

يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

كسوة الكعبة المشرّفة

وفنون الحجّاج

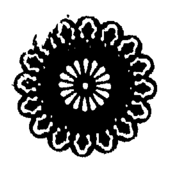
ابراهيم حلمى



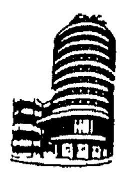
إبراهيم حلمى

كسوة الكعبة المشرّفة

وفنون الحجّاج



■ المشرف على التحرير : جمال الغيطانى



● العدد ٣٢٠ ●

الاهــداء

أشرف الآن بعد أن خرجت هذه الأوراق الى رحاب النور بأن أقول للأستاذ (صفوت كمال) الأستاذ بالمعهد العالى للفنون الشعبية ، ومدير تحرير مجلة الفنون الشعبية : « أستاذى العزيز .. شكراً» لاهتمامك بى وقت أن كنت أنا طالب دراسات عليا بالمعهد أتلقى منك ، ومحررا بالمجلة من بعد أستزيد وأستنير بضياء أفكارك .

ابراهيم حلمى

مكونات كسوة الكعبة المشرَّفة وفنون زركشتها(*)

منذ أعوام سحيقة ، ومنذ أن عرف الانسان الله ، وأدرك الطريق الى هداه وتطهر قلبه بنور ربانى مشرق ، سعى من تيسر له من بنى جنسه الى زيارة بيت الله الحرام ، من أجل أن يغتسل من الذنوب والأوزار والأدران ، ويعود فائزا بنعيم الصفح والتوبة والغفران .

ومنذ أن هل دين الاسلام ، وهو خاتم الرسالات السماوية ، بأركانه الخمس ، حف الانسان المسلم الركن الأخير منه ـ وهو الحج ـ بكل مظاهر الاجلال والعناية والاهتمام فى حياته .

وكان أبرز دليل على ذلك هو عنايته الخاصة ببيت الله الحرام ، وسعيه واهتمامه بكساء هذا البيت العتيق ، الذى كان أول بيت وضع للناس مباركا .

ولقد مرت الأيام ، وبعبورها فى ساحة الزمن ، كانت تتفتق مدارك الانسان المسلم ، وتتركز فى ابداعات فنية قيِّمة ، خصَّ بها كساء بيت ربه المعظم ، حتى وصلت الى أعلا مراتب الابداع فى الفنون ، فكان فى الختام جملة ما نشاهده الآن فوق جدران بيت الله الحرام من كساء جميل الصنع ، فائق الاتقان ، حلو الصورة يجعلنا نشيد بقدرات وملكات من أبدع هذا ، وسبحان من الهم العقول والأذهان لكى تبدع عن طريقها أصابع الفنان .. !

مكونات كسوة الكعبة المشرفة :

من واقع آخر وثيقة مصرية كتبت وحررت كإشهاد شرعى لكسوة الكعبة الشريفة فى عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية نستطيع أن نقف على مكونات وتفاصيل هذه الكسوة المصرية ، ونجدها على النحو الآتى :

١ ـ ثمانية أحزمة[١] وأربعة كردشيات[٢] مزركشة جميعها بالمخيش[٣] الفضة الأبيض والمخيش الفضة الملبس بالذهب البندقى[٤] على حرير أطلس أسود وأخضر ، وهذه الأحزمة وما يتبعها من رنوكة[٥] عددها أربعة ، وكذلك الكردشيات سالفة الذكر مركَّبة جميعها على ثمانية أحمال من الحرير الأسود الكمخ[٦] المكتوب بالدالة المعروفة ، وهذه الأحمال الثمانية مبطنة بالبفتة البيضاء وعروضها متماسكة بواسطة أشرطة من البنوار القطن الأبيض ، وتتكون هذه الأحمال من اثنين وخمسين ثوبا من قماش الكمخ المذكور ، يحتوى كل ثوب على ١٤,٨٠ مترا طول و٠,٩٣ مترا عرض[٧] .

٢ ـ ستارة باب بيت الله الحرام المعبَّر عنها بالبرقع ، وهى مزركشة أيضا بالمخيش سالف الذكر بنوعيه على حرير أطلس أسود وأخضر وأحمر ومبطنة بالبفتة البيضاء ومبطنة كذلك بالأطلس الحرير الأصفر ، وبها ثلاثة شرابات[٨] كبيرة من الحرير الأسود والقصب والمخيش والكنتير[٩] وستة أزرار فضة مطلية بالذهب واثنا عشرة شرَّابة صغيرة من القطن الهندى الأحمر والقصب والكنتير الفضة الأبيض والأصفر والمخيش العقادى الأصفر[١٠] ، واثنتا عشرة شمسية مزركشة[١١] على الحرير الأحمر بالمخيش الفضة بنوعيه ومبطنة بالأطلس الأحمر ، والستارة المذكورة مكونة من أربعة أجزاء متصلة ببعضها ، وهى : العتبة[١٢] والطراز[١٣] والقائمان الكبير والصغير[١٤] .

٣ ـ ستارة باب سطح بيت الله الحرام ، وهو المعروف بباب التوبة داخل البيت الحرام ، وهى من الحرير الأطلس الأسود والأخضر والأحمر ومزركشة بالمخيش بنوعيه ، ومبطنة بالبفتة البيضاء والنوار[١٥] القطن ، وكذلك الأطلس الحرير الأصفر .

٤ ـ كيس مفتاح الكعبة المشرفة ، وهو من الأطلس الأخضر الحرير ومزركش بالمخيش الفضة المذكورة بنوعيه ، وله شرَّابتان من القصب الفضة الأصفر والمخيش العقادى والكنتير الفضة الأصفر ، وثلاثة أحبال قطن مجدولة تعرف بالمجاديل[١٦] ، وواحد وأربعون حبلا من القطن تعرف بالعصافير[١٧] ، وهذه الأحبال لتعليق الكسوة الشريفة على الكعبة المطهَّرة ، واقتان من الحرير الطبيعى الأسود المفتول لاصلاح ما يلزم فى الكسوة الشريفة خلال عام ارسالها ، ويبلغ مقدار المخيش بنوعيه المزركشة به قطع الكسوة الشريفة جميعها ١٢٩٥٩ مثقالا[١٨] من الفضة النقية وما يخالطها من الذهب البندقى .

ونلاحظ على وثيقة هذه الكسوة المصرية الأخيرة خلال عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية ملحوظتين هامتين ، هما :

اولا : ان مكونات هذه الكسوة قد خلت من كسوة مقام سيدنا الخليل (ابراهيم) ـ عليه السلام ـ وستارة باب مقصورته ، حيث كان قد بطل عمل الكسوة لهذا المقام الجليل منذ عام ١٣٥٩ هـ ـ الموافق ١٩٤٠ م ، لأن حكومة المملكة العربية السعودية قد غيرت شكل ما يحيط بالمقام من غطاء ، فأحاطته بسياج معدنى ذهبى ، فلم تعد هناك حاجة لكساء هذا المقام الجليل ، فى حين نجد فى اشهادات سابقة لكسوة الكعبة الشريفة وجود كسوة لمقام خليل الرحمن وخليل الانسان سيدنا (ابراهيم) ـ عليه السلام ـ وكذلك ستارة لباب مقصورته الشريفة .

فمثلاً فى اشهاد كسوة عام ١٣٢٢ هجرية الموافق ١٩٠٥ ميلادية توصف كسوة مقام سيدنا (ابراهيم) بانها مبطنة بالبفت الأبيض المزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الحرير الأخضر

والأحمر ، وبها أربعة شراريب حرير أسود وقصب وكنتير ومخيش وعشر شمسيات مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأحمر وعشرة شراريب صغيرة قطن مصبوغ أحمر وقصب وخمسة أزررة فضة مطلية بالبندقى الأحمر بها سجق قطن[19] شبكة بقيطان قطن وأزررة وشراريب من قطن هندى أحمر وأصفر بخرز[20] وفى نفس الوثيقة نجد وصفا لستارة مقصورة سيدنا (ابراهيم) ـ عليه السلام ـ بأنها مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر على الحرير الأسود والأخضر والأحمر ، بها خمسة أزررة فضة مطلية بالبندقى الأحمر وعشرة شمسيات مزركشة بالمخيش الأبيض والأصفر على الأطلس الحرير الأحمر بها عشرة شراريب صغيرة قطن هندى أحمر وقصب مبطنة بالبفت الأبيض والأطلس الحرير الأخضر .

ثانيا : ان وثيقة اشهاد الكسوة الشريفة الأخيرة فى عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية قد خلت من ذكر « ستارة باب المنبر المكى » فى حين ان وثائق الاشهادات السابقة كانت تذكرها باعتبارها احدى مكونات كسوة الكعبة الشريفة .

ونعتقد ان اللجنة التى قامت بكتابة وثيقة الاشهاد الشرعى لهذه الكسوة والمكونة من فضيلة الشيخ (أحمد هريدى) مفتى مصر وقتها و(عبدالعظيم عبدالهادى القاضى) سكرتير دار الافتاء و(محمد ابراهيم صالح) رئيس دار الكسوة الشريفة ، والمقدم (عبدالرحمن حلمى الزغبى) المنتدب من مكتب الأمن بوزارة الأوقاف لتسليم الكسوة الشريفة بالأقطار الحجازية ، و(حسن عباس زكى) وزير الاقتصاد ورئيس بعثة الحج و(أحمد عبدالله طعيمة) وزير الأوقاف ، وآخرين حضروا تسلم هذه الكسوة ، كل هؤلاء سقط منهم سهوا ان « ستارة باب المنبر المكى » هى احدى مكونات كسوة الكعبة المشرفة .

ولقد كنا نظن ان هذه الستارة قد بطل عملها وقتها بدار كسوة الكعبة بالخرنفش بالقاهرة ، وذلك أسوة بما حدث لكسوة مقام سيدنا (ابراهيم) وستارة باب مقصورته ، لكن فحصنا لمفردات كسوة الكعبة الشريفة هذه بالدار المذكورة تأكد لنا انها كانت موجودة ، لأنها مازالت مع بقية قطع الكسوة الأخيرة ويحتفظون بها حتى الآن فى الدار .

وهذه الستارة يصفها (ابراهيم رفعت باشا) قائلا : انها مصنوعة من المواد المصنوع منها البرقع (ستارة باب بيت الله الحرام) ، ومقاس ما فيها من الحرير الأطلس الأسود السادة ٦¼ أذرع ، وزنةما عليها من المخيش بنوعيه ٣٩٧ مثقالا[21] .

هذه هى مكونات كسوة الكعبة المشرفة ، أما فنون زركشتها فنستطيع أن نرجعها الى عهود قديمة .

واقدم هذه العهود التى تتحدث عن طراز كسوة الكعبة المشرفة هو عام ١٥٩ هجرية .

قال (الفاكهى) فى كتاب « أخبار مكة » مؤرخا لها : « .. ورأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها : بسم الله ، بركة من الله ، مما أمر به عبدالله المهدى محمد أمير المؤمنين ، اصلحه الله ، محمد بن سليمان ان يصنع فى طراز (تنيس) كسوة الكعبة ، على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة »[٢٢] .

وهذا التاريخ يرجع بنا الى أيام الدولة العباسية ، حيث كانت مصر تابعة لها بحكم الولاء للخلافة الاسلامية ، وكانت (تنيس) احدى مدن دمياط التى تقوم بصناعة كسوة الكعبة المشرفة ، وفق اصول الصنعة التى تحذقها هى وبلدة أخرى شهيرة بصناعتها لكسوة الكعبة المشرفة ، وتدعى (تونة) ولها هى الأخرى طراز خاص بها وشهير ملء الآفاق .

كانت بصمات الذوق المصرى واضحة فوق كساء بيت الله الحرام منذ بواكير الاهتمام به فى عصر النبى ، صلى الله عليه وسلم .

قال (عبدالرازق) عن (ابن جريج) : « أخبرت ان عمرا كان يكسوها القباطى ، واخبرنى غير واحد ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كساها القباطى والحبرات ، وأبو بكر وعمر وعثمان »[٢٣] .

كان هذا القباطى قماشا مصريا منسوجا من الكتان المبيّض وبه زخارف كتابية على شكل دوائر[٢٤] .

ولم يكن هذا القماش الذى نال شرف أن يستر بيت الله الحرام يعنى بمعناه اللفظى اسم طائفة بعينها ، ولكنه يعنى طريقة فنية تطبيقية اشتهر بانتاجها القبط من قبل دخول الاسلام وبرعوا فيها فاصبح اسمهم يطلق عليها سواء أكان صانعا قبطيا أم مسلما ، وظل هذا الاسم مستعملا طوال الفترة التى سادت فيها هذه الطريقة الفنية فى زخرفة المنسوجات الى آخر العصر الفاطمى[٢٥] .

ويخطىء من يظن ان قماش القباطى كان ذا لون واحد ، أو من نوع الأقمشة السادة الخالية من الألوان . فهو على الرغم من قدم العهد به إلا انه يعتبر من « المنسوجات الزخرفية ، وانه اول محاولة للحصول على زخرفة نسيجية مكونة من لونين أو أكثر وان وسيلة صنعه تعد من ابسط الوسائل التى اتبعت فى صنع اقمشة مزخرفة النسيج »[٢٦] .

وعندما ازدهر استخدام قماش القباطى ، ذى الأسلوب المميز فى الزخرفة المصرية كان يواكب ذلك ازدهار آخر فى فن النسيج ، وهو أسلوب التطريز الذى اظهر براعة الانسان المصرى ، ماسك الابرة والخيوط ، لينسج فوق سطح المنسوجات آيات واضحة من ابداعاته ، ليؤكد ان « فن التطريز اصيل فى مصر وليس حرفة مستوردة ، فقد نشأ وظل بها فى سلسلةمتصلةالحلقات منذ اقدم عصورها التاريخية الى أوائل العصر الاسلامى على الأقل »[٢٧] .

وبتلاحق السنين ، أخذ هذا الفن يوجد لنفسه صورا متعددة ، وقنوات يصب فيها اشكالا فنية فائقة الحسّ ، فكان فنّ الزركشة بصفة عامة وفن زركشة كسوة الكعبة المشرّفة على وجه الخصوص ، بما له من سمات خاصة تحفها قدسية في داخل نفوس المبدعين لها من المسلمين ، لتضيف صفحات مجيدة منها الى الفن الاسلامى ، تبهر بها العيون والنواظر ، وتشرح بها القلوب والخواطر .

فنون زركشة كسوة الكعبة المشرّفة :

شملت فنون زركشة كسوة الكعبة المشرّفة ثلاثة أشياء تضافرت معا لتبرز وتجلو محاسنها على الوجه الأكمل . وهذه الأشياء هي :

١ ـ الحرف بما له من المعنى والشكل .
٢ ـ الزخرف بما له من وحدة الايقاع المنتظم .
٣ ـ اللون بما له من وقار التعبير الهادىء .

وإذا دققنا الفحص في احزمة كسوة الكعبة المشرفة فسنجد أن العناصر الثلاثة السابقة تتناغم معا في وحدة عضوية واحدة .

الكتابات على أحزمة الكعبة المشرّفة وأسلوب زركشتها :

جاءت الكتابات على احزمة الكعبة المشرفة الثمانية على النحو الآتى :[٢٨]

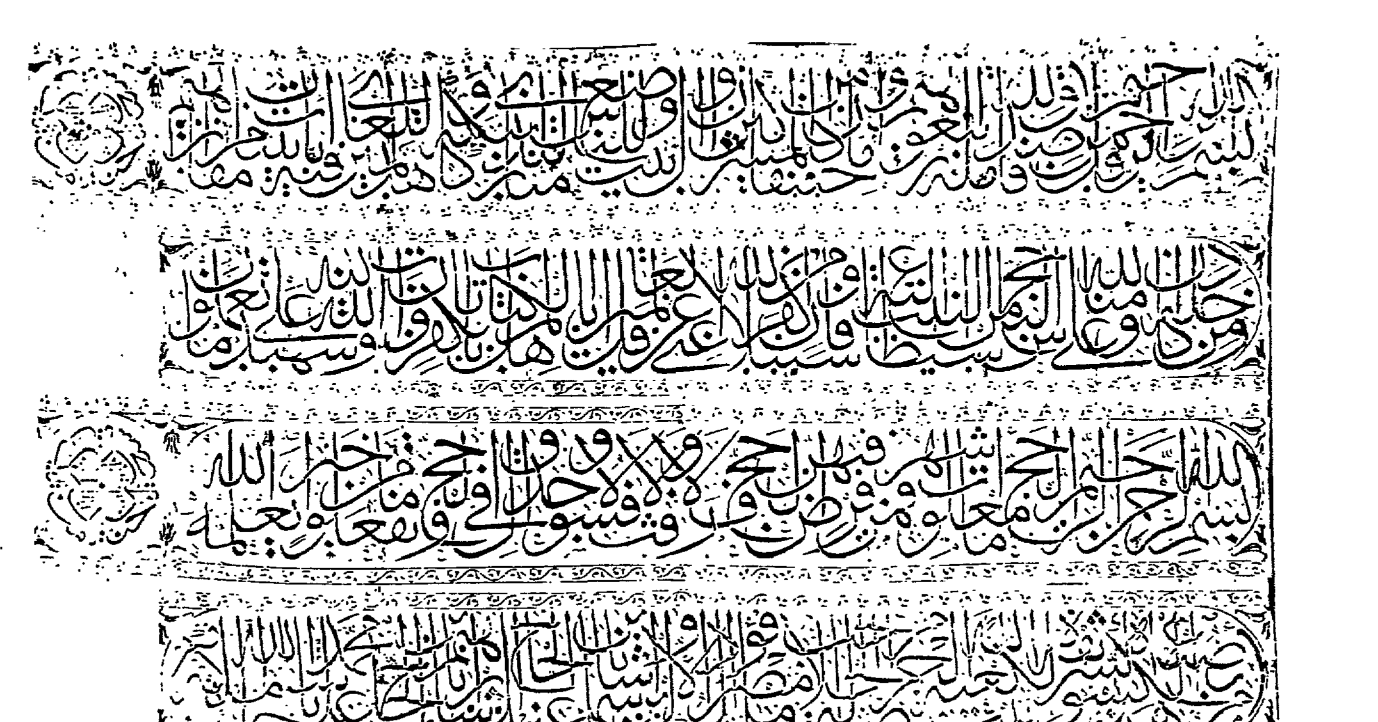
● الحزام الأول : طوله ٧,٥٠ مترا ، ويتداخل فيه ١٢٠٩ مثقالا من خيوط المخيش الفضة ، ومكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى . وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » .

● الحزام الثانى : طوله ٦,٨٠ مترا ، ويتداخل في تشغيله ٨٧٤ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل . ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم »

● الحزام الثالث : طوله ٦,٤٠ مترا ، ويتداخل فيه ٩٠١ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم »

● الحزام الرابع : طوله ٥,٧٠ مترا ، ويتداخل فيه ٧٨٥ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « ومن دخله كان آمنا . ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين . قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله . والله شهيد على ما تعملون »

● الحزام الخامس : طوله ٧,٥٠ مترا ، ويتداخل فيه ١٠٣٨ مثقالا من



■ كتابات حزام الكعبة المشرفة عام ١٩٢٥ ميلادية فى عهد الملك فؤاد ■

المخيش . ومكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . وإذ بوانا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . واذن فى الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق »

● الحزام السادس : طوله ٦,٧٠ مترا ، ويتداخل فيه ٩٤١ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق »

● الحزام السابع طوله ٦,٣٥ مترا ، ويتداخل فيه ٨٣٤ مثقالا من المخيش ، ومكتوب عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله »

● الحزام الثامن والأخير : به الاهداء وهو : « صنع بالجمهورية العربية المتحدة من الرئيس جمال عبدالناصر سنة ١٩٦١ » .

وبالطبع كانت هذه الكتابات على أحزمة كسوة الكعبة المشرّفة التى صنعتها مصر عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية .

ومن فنون الزركشة نلاحظ ان الخط مكتوب بخط الثلث لكل حزام ، وان هذا الخط مكتوب بخيوط المخيش البارز ، وفوقه وتحته شريطان زخرفيان بأسلوب الزركشة البارزة ، وكل شريط ينحصر بين خطين يحصران توريقا على جانبى فرع نبات يأخذ شكل موجة الماء فى شكل الانحناءات .

ويلاحظ أن الفنان مزركش كسوة الكعبة المشرّفة يبدأ حصر الكتابة فى قوس مفتوح جهة اليسار ، وهذا القوس يعلوه توريق ويتذيله آخر ، فى حين ينهى كتابة الحزام بقوس عكس الاتجاه الأول وبنفس طريقة حصر القوس الأول ، مع اختلاف الاتجاه ، لكى يعطى نوعا من التماثل فى أسلوب الزركشة .

كما يلاحظ أيضا ان بين كل حزامين وضع الفنان مزركش كسوة الكعبة زركشة داخل دائرة ، وهى المسماه باسم (الرُنك) وهذا الرُنك انقسم الى أربعة اقسام متساوية ، شكلتها أربعة كلمات هى « يا حنّان يا منّان يا سبحان يا ديّان » وهذه الكلمات الأربعة تشترك جميعها فى أول وثانى حرفين ، وهما (يا) كما تشترك فى الحرفين الأخيرين ، وهما (ان) . وفضلا عن الجرس الموسيقى الذى تكونه هذه الكلمات الأربعة وتعطى صفاء الدعاء ونقاء الابتهال لمن يقرأها فإنها تشكل ما يشبه الوردة عندما يتجمع كل حرف آخير منها مع نظيره فى تشكيل فنى رائع .

ولقد تصرف الفنان كاتب الزركشة فى شكل حرفى النداء وهما (يا) ، وجعلهما فى وضع معكوس على شكل (ل) حتى يعطى مساحة فاصلة بين كل كلمتين ، وهذه المساحة ملأها بنقطتى حرف ياء النداء ، وجعل الفنان مزركش كسوة الكعبة المشرّفة التقاء هذه الحروف الأربعة على شكل شبكة تملأ قلب الشكل ، ووسطه بنقطة فى المركز .

الكردشية وزركشتها .

توضع أربعة كردشيات عند أركان الكعبة المشرَّفة وتحت مستوى أحزمتها ، وكل كردشية عبارة عن دائرة داخل تشكيل مزركش على شكل مربع ، طول ضلعه ٣,٤٠ متر ، وهذه الدائرة تحوى سورة الاخلاص ، مكتوبة بحيث تأخذ شكل الدائرة هي الأخرى ، وعند كتابة العبارة « ولم يكن له كفوا أحد » صادف الخطاط حرفي كاف في كل من « يكن » و« كفوا » وحتى لا يشوه تشكيله الخطي اكتفى بكتابة الحرف الأول في كلمة « يكن » ووضع عند أسفل شرطة كافها كافا صغيرة على شكل (كـ) تعويضا عن الحرف كاف في كلمة « كفوا » .

ولقد كوّن الفنان الخطاط تشكيلا مزركشا مشبّكا من كل الحروف ذات السيقان في سورة الاخلاص ، وهذا التشكيل الهندسي حوى تشكيلا آخر دائريا عبارة عن أربعة كلمات من دعاء (يا الله) ، وقد جعل الخطاط حرف ألف النداء مع حرف الألف في لفظ الجلالة ليشكلا زاوية قائمة شغلت مساحة ربع الدائرة ، وقد تصرف الخطاط في طريقة كتابة حرفي النداء مثلما فعل في الرنوك التي في الأحزمة . وقد حدث تطور في شكل الكردشية ، إذا غيّر الفنان الخطاط والمزركش هذا التكوين المشكَّل من الكلمات الأربعة للفظ الجلالة والتي كانت تكتب منذ أزمنة بعيدة عثرنا على نسخة منها أيام الملك فؤاد الأول عام ١٩٢٥ ، الى دائرة من الحرير الأخضر كُتِبَ في داخلها عبارة « الله جل جلاله » .

كما حدث تطور آخر في ذلك الاطار المزركش الذى كان يحيط بالكردشية الى أربعة زوايا من الزركشة في الأركان متصلة ببعضها ، وهذه الزوايا عبارة عن تشكيل هندسي من الأوراق النباتية المتداخلة ، بحيث تحدد هذه الزوايا اطار الشكل المربع .

وكانت كل كردشية تزركش بما هو زنته ٤٠٥ مثقالا من المخيش بنوعيه الفضي والذهبي[٢٩]

ستارة باب الكعبة أو (البرقع) :

تعتبر ستارة باب الكعبة المشرَّفة أكثر قطع الكسوة الشريفة احتفاء بالزخارف النباتية والهندسية والكتابية على السواء[٣٠]

وهذه الستارة متماثلة الزركشة النباتية والهندسية حول محورها الرأسي ، أما زركشة الخط فهي بالطبع لا تخضع لهذا التماثل ، نظرا لوجود آيات قرآنية تأخذ من مساحة مسطحها قدرا هو أكثر من النصف ، لذا يتعذر التماثل .

وإذا ما دققنا النظر في زركشتها النباتية فسنجد انها إطار يحيط هذه الستارة بأوراق وفروع نباتية ، تتقابل على جانبي الفرع ، وتكثر الزخارف والزركشة في الجزء السفلي من الستارة بشكل لافت للنظر ، وهو ما يسمى باسم (القائم الكبير) والذى به فتحة باب الكعبة المعظمة . فالفنان المزركش والمصمم لها أراد



■ كرداشية كسوة الكعبة المشرفة عام ١٩٢٥ ميلادية فى عهد الملك فؤاد ■

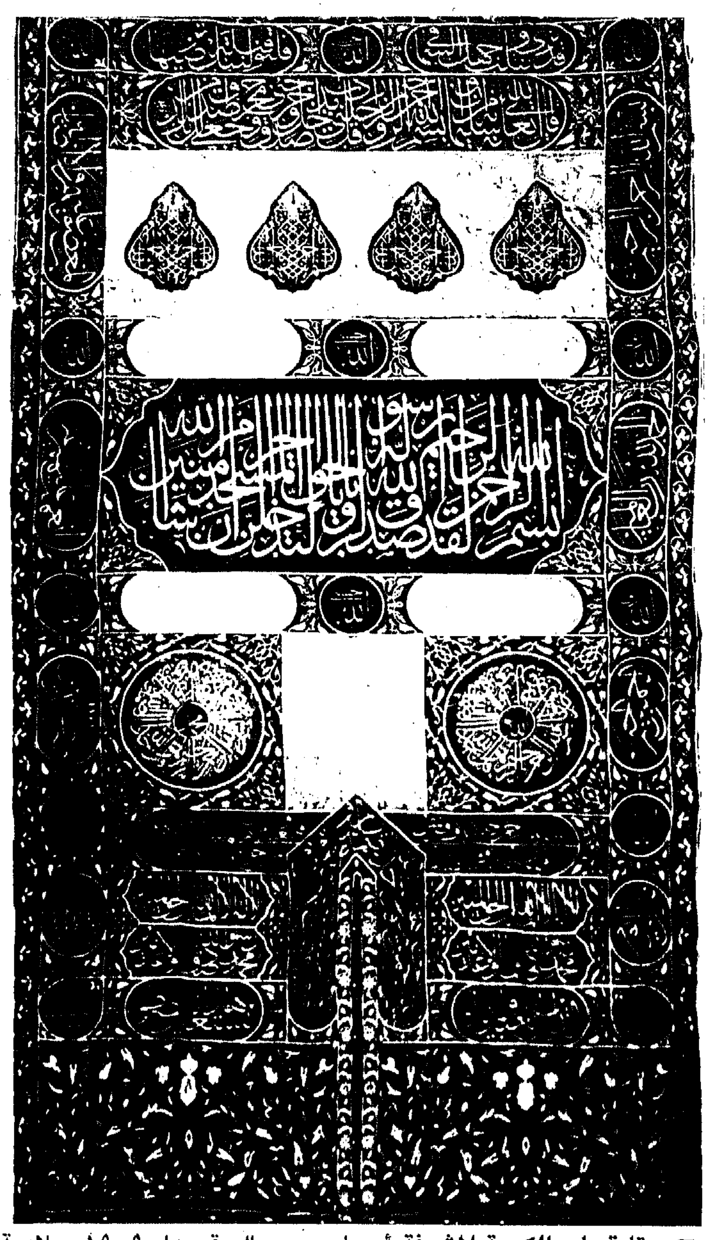
أن يضعها على هذا النحو فى الجزء القريب من سطح الأرض ، لكى يبعد باقى الزخارف الكتابية عن مستوى الأرض بأكبر مسافة ممكنة ، لأنها زركشة كتابية لآيات قرآنية شريفة .

أما الزركشة الهندسية فلا تخرج عن أن تكون ذات شكل دائرى ، أو بيضاوى ، أو مستطيل ، أو دائرى منبعج ، أو أشكال مزركشة على هيئة القنديل أو ثمرة الكمثرى .

والزركشة الكتابية فى ستارة باب الكعبة المشرفة أو البرقع عديدة ، ففى أعلا جزء فيها نجد فى ركنيها لفظ الجلالة مقترنا بالربوبية داخل دائرة مكتوب فيها « الله ربى » ثم الآية القرآنية الشريفة : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » ، وذلك داخل شكل بيضاوى ، ثم عبارة « الله حسبى » داخل دائرة فى المنتصف ، ثم تكملة الآية القرآنية الشريفة : « فلنولينك قبلة ترضاها » فى شكل بيضاوى ثان يتماثل من حيث الشكل مع نظيره الأول حول المحور الرأسى المار بالمنتصف . وفى أسفل هذه الآية القرآنية نجد آية قرآنية أخرى فى داخل شكل بيضاوى كبير تقول : « قال الله تعالى انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم » وهى الآية رقم(٣٠) من سورة المائدة ، غير ان كاتب الخط لم يكمل السطر بباقى الآية ، وإنما أكمل السطر بآية أخرى قرآنية تقول : « وقل رب ادخلنى مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » ، وقام الخطاط بكتابة آخر كلمتين فى هذه الآية وهما « سلطانا نصيرا » بخط أصغر من باقى حروف الآية الكريمة ، حتى يتمكن من أن يكمل بهما باقى السطر فى حدود المساحة والحيز المتاحين ، فى براعة فائقة واتقان لا يوصف ودقة متناهية[٣١]

ثم أسفل هاتين الآيتين الكريمتين يوجد أربع أشكال كتابية مزركشة ، داخل شكل على هيئة القنديل أو ثمرة الكمثرى ، تحتوى البسملة كل واحدة منها ، فى تكوين متماثل الشكل حول كل محور رأسى لاحداها ، فى حين تتخلل الزركشة فيما بين هذه الأشكال الأربع القنديلية أو الكمثرية افقيا ورأسيا بأوراق نباتية ذات فروع .

يلى ذلك شكل بيضاوى يحتوى على الآية القرآنية الكريمة فى الجزء الأيمن من الستارة : « بسم الله الرحمن الرحيم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » ، وهى مكتوبة فى سطرين يفصلهما خط أفقى ، ثم دائرة داخلها عبارة « الله حسبى » ثم تكملة آية الكرسى فى الجزء الأيسر من الستارة فى شكل بيضاوى متماثل مع الجزء الأيمن : « له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون » ويكمل الفنان الخطاط والمزركش الآية فى سطور لاحقة . وعند هذا الحد ينتهى الجزء الأول العلوى ، وهو ما يسمى باسم (العتبة) .



■ ستارة باب الكعبة المشرفة أو ما يسمى بالبرقع عام ١٩٠٩ ميلادية في عهد السلطان حسين كامل ■

أما الجزء التالى فقد أدخل الفنان الخطاط والمزركش بأكبر خط فى التصميم كله الآية الكريمة : « بسم الله الرحمن الرحيم . لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » .

والى هنا ينتهى الجزء الذى يلى (العتبة) والمسمى باسم (الطراز) . ثم تأتى أسفل ذلك تكملة آية الكرسى ، ثم كردشيتان داخلهما سورة الاخلاص ، مع اختلاف بسيط عن الكردشيات التى تعلق منفصلة فى أركان الكعبة . إذ يتوسط اليمنى لفظ « الله جل جلاله » أما اليسرى فيتوسطها « محمد رسول الله » . وينتهى عند ذلك الجزء المسمى بالقائم الصغير . أما القائم الكبير فهو بقية الجزء السفلى من الستارة ، وهو الذى يحتوى على فتحة باب الكعبة ، والتى زركشت على جانبيها بسورة الاخلاص ، وفى الجزء الأيمن من الفتحة والأيسر سورة قريش ، وتحتها « لا إله إلا الله الملك الحق المبين » فى كل من الجزء الأيمن والأيسر وتحتها « محمد رسول الله صادق الوعد الأمين » .

ونلمح فى زركشة الستارة الكتابية فاتحة الكتاب ، وهى مكتوبة فى مجموعة من الأشكال البيضاوية ، على الاطار الخارجى لها ، فى حين يتوسط نهاية الزركشة الكتابية مستطيل كتب بداخله : « أمر بصنع هذه الستارة صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول بن اسماعيل باشا بن الحاج ابراهيم باشا بن الحاج محمد على باشا » وان كانت هذه الأسماء قد تغيرت كثيرا ، واستبدلت باسم الملك فاروق الأول ، ثم الرئيس جمال عبدالناصر ، والذى توقف ارسال الكسوة المشرفة فى عهده ، ثم الرئيس أنور السادات فيما بعد ، والذى كانت لديه النية فى اعادة ارسال الكسوة المصرية للكعبة المشرفة ، ولكن لم تمكنه الظروف من ذلك ، بعد أن تم تغيير الاسم بالفعل من على آخر كسوة(٣٢)

ستارة باب سطح بيت الله الحرام أو باب التوبة :

على يمين الداخل من زاوية الركن الشمالى الشرقى للكعبة المشرفة يوجد باب يصعد منه على مدرج الى أعلا الكعبة ، يقال له « باب التوبة » . وهذا الباب عليه ستارة من الحرير المزركش بما هو زنته ١٠٢٤,٦٦ مثقالا من خيوط المخيش بنوعيه .

ومكتوب على هذه الستارة « بسم الله الرحمن الرحيم وإذا جاءك الذين » وذلك فى السطر الأول العلوى منها . أما السطر الثانى فمكتوب فيه التكملة « يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم » ، وفى الثالث مكتوب « على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءا بجهالة » وفى السطر الرابع « ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » .

أما السطر الخامس ، فمكتوب بخط أصغر « صدق الله ربنا وخالقنا العزيز الرحيم وصدق رسوله البشير النذير » .

وفي نصف السّتارة السفلي فمكتوب الاهداء على ثلاث سطور ، وهي « أمر بتجديد هذه الستارة الشريفة » ، « صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول » ، « ابن اسماعيل باشا ابن الحاج ابراهيم باشا » . وفي الستائر القديمة كان يكتب الاهداء في السطر الخامس من الجزء العلوى ، وهذا ما لاحظناه على ستارة باب التوبة التى أمر بصنعها السلطان (محمد خان الخامس) .(٣٣)

ويلاحظ على هذا الجزء السفلي من هذه الستارة انه متماثل في الزركشة النباتية والهندسية حول المحورين الأفقي والرأسي المارين بالمنتصفين ، والزركشة فيه غزيرة . أما الاطار الخارجي للستارة فهو مزركش بعدد ١٤ وردة ، كل واحدة منها داخل دائرتين في حين يفصل بين كل وردتين تكوين زخرفي مزركش متماثل حول محوريه الأفقي والرأسي ، ويختلف هذا التكوين في منتصف الاطار العلوى والسفلي لكسر حدة التماثل في أسلوب زركشة الستارة .

أما من حيث الألوان ، ففضلا عن لون الستارة الأسود ، يستخدم فنان الزركشة بعض قطع من الحرير الأخضر في نصف الستارة العلوى ، امعانا في اظهار الآيات المؤكدة لمعانى الايمان والتوبة ، وهو المعنى الذى أضفى على اسم هذه الستارة .

ويختلف أسلوب زركشة اطار هذه الستارة عن أسلوب زركشة اطار ستارة باب الكعبة المشرفة ، كما يختلف عن أسلوب زركشة ستارة باب المنبر المكي ، إذ أن أسلوب زركشة اطار هاتين الستارتين واحد في استخدام الفرع النباتي والأوراق على جانبيه ، ولكن الفنان المزركش لستارة باب التوبة عمد الى الزركشة بالدوائر وبالتكوين ذى الوحدة المتكررة بلا فروع نباتية .

وحيث ان هذا الأسلوب موجود في ستارة السلطان (محمد خان الخامس) فواضح ان البصمات العثمانية واضحة على الأسلوب الفنى في زركشة مثل هذه الستارة ، وان كانت الأيدى المزركشة لها مصرية .. !

ستارة باب المنبر المكي :

هذه الستارة وصفها اللواء / ابراهيم رفعت باشا في رحلته للأراضي الحجازية عام ١٣١٨ هجرية الموافق ١٩٠١ ميلادية فقال انها : « مصنوعة من المواد المصنوع منها البرقع ، ومقاس ما فيها من الحرير الأطلس الأسود السادة ٦¼ أذرع ، وزنة ما عليها من المخيش بنوعيه ٣٩٧ مثقالا »(٣٤)

(الذراع = ٧٥ سنتيمترا)

وأسلوب زركشة هذه الستارة لم يختلف كثيرا خلال هذا القرن سوى في اختيار الآيات القرآنية الشريفة التى تكتب عليها .

ففي أحد نماذجها التى نشرها اللواء (ابراهيم رفعت باشا) نجد الآيات القرآنية الشريفة الآتية :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى السطر الأول العلوى : « بسم الله الرحمن الرحيم . إن الله ».
وفى السطر الثانى الذى يليه : « وملائكته يصلون على النبى يا أيها ».
وفى السطر الثالث الذى يليه : « الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ».
وفى السطر الرابع الذى يليه : « الاهداء من الخديو عباس حلمى باشا خديو مصر ».

وتنتهى الكتابة عند منتصف الستارة بالتمام ، بحيث يشغل منتصفها السفلى زركشة فنية وهندسية ، حيث يتدلى قنديل أو مشكاة من مركز ثقلها معلق بثلاث خيوط .

هذه الزركشة كانت فى عام ١٣١٨ هجرية المواغق ١٩٠١ ميلادية ، أما نفس الستارة فى عام ١٣٤٤ هجرية الموافق ١٩٢٥ ميلادية أيام الملك فؤاد الأول ملك مصر فقد تم تغيير الآيات القرآنية فيها الى :

السطر الأول فى منتصفه : « قال الله تبارك وتعالى فى كتابه العزيز ».
وفى السطر الثانى الذى يليه : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ».

وفى السطر الثالث الذى يليه : « وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة ».
وفى السطر الرابع الذى يليه : « فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . صدق الله العظيم » . وعبارة الختام بخط صغير .

أما السطر الخامس والأخير فى الكتابة فكتب فيه : « أمر بصنع هذه الستارة لمنبر بيت الله الحرام صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول نصره الله وذلك سنة ١٣٤٤ »..

إن اختيار هذه الآية التى تدعو الى صلاة الجمعة لوضعها على ستارة باب المنبر المكى مقترن بأهمية المنبر فى أداء شعائر صلاة الجمعة ، حيث تشكل خطبة خطيب المنبر الركن الأساسى فيها .

ولقد عمد الفنان المزركش لهذه الستارة الى ترك الجزء السفلى منها باستثناء وضع القنديل أو المشكاة لاعطاء أكبر قدر ممكن لاظهار مدى سواد الحرير الذى يمثل لفيفا من الظلام ، فيحدث التضاد بين هذا الظلام وتعلق القنديل أو المشكاة به .

□ □ □

كسوة مقام سيدنا ابراهيم عليه السلام :

يكتسب مقام الخليل (ابراهيم) عليه السلام قدسية خاصة عند كافة المسلمين . فقيل : انه هو الحجر الذى وقف عليه الخليل ـ عليه السلام ـ حين بنى الكعبة ، وهذا يروى عن (ابن عباس) ـ رضى الله عنهما ـ و(سعيد بن جبير) ، وغيرهما ، وقيل : وقف عليه حين أذن للناس بالحج ، وقيل : وقف عليه حين غسلت زوجة ابنه اسماعيل رأسه لما جاء يسأل عن ولده اسماعيل[٣٥]

وروى (ابن بطوطه) أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا ، ثم أتى المقام فقرأ : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » ، وركع خلفه ركعتين[٣٦]

وكان الخليفة (المهدى) العباسى هو أول من حلّى هذا المقام بحلية ذهبية من أعلاه وأسفله عام ١٦١ هجرية . وقد قال القاضى (عز الدين بن جماعة) : حررت لما كنت مجاورا بمكة سنة ٧٥٣ هجرية مقدار ارتفاع المقام عن الأرض ، فكان ٧/٨ الذراع ، وأعلا المقام مربع من كل جهة ٣/٤ الذراع ، وموضع غوص القدمين ملبّس بالفضة ، وعمقه من فوق الفضة سبعة قراريط ونصف قيراط من ذراع القماش المستعمل فى مصر[٣٧]

(الذراع = ٧٥ سنتيمترا)

وكانت مصر ترسل كسوة مقام سيدنا الخليل (ابراهيم) ـ عليه السلام ـ مع كسوة الكعبةالمشرّفة كل عام حتى أربعينيات هذا القرن حيث تغير شكل المقام جملة وتفصيلا ـ كما سبق أن قلنا ـ وأحيط بسياج ذهبى .

وهذه الكسوة مؤلفة من خمسة قطع ، أربعة منها راسية والخامسة هى سقفها ، وارتفاعها ٣,٣٤ مترا ، وعرضها ٣,١٨ مترا عند القاع و١,١٢ مترا عند القمة وعلى كل قطعة منها ما وزنه من ٦١٠ الى ٦١٤ مثقالا من المخيش بنوعيه ، أما السقف فعليه ما وزنه من المخيش ١٣٩ مثقالا .

ولابراز جمال هذه الكسوة فقد استخدم الحرير الأسود والأطلس الحرير الأحمر والأخضر ، هذا فضلا عن الكتابات التى جاءت بها على النحو الآتى كما فى الجدول رقم (١) :

الزركشة الكتابية التى كانت على كسوة مقام الخليل (ابراهيم) ـ عليه السلام ـ سنة ١٣٤٤ هجرية
الموافق ١٩٢٥ ميـــلادية

الوجـه الأول	الوجـه الثـانى	الوجـه الثـالث	الوجـه الرابـع
بسم الله الرحمن الرحيم) وإذ جعلنا البيت	مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى	وعهدنالى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى	للطـائفينوالعـاكفين والـركـع السجود
(بسم الله الرحمن الرحيم) وإذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى	قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن	إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا	واعلم أن الله عزيز حكيم صدق الله ربنا وخالقنا العزيز الرحيم
(بسم الله الرحمن الرحيم) إن أول بيت وضع للناس للذى	ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن	دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع	١- إليه سبيلا . إن الله غنى عن العالمين
الله جل جلاله . محمد صلى الله عليه وسلم	ابو بكر رضى الله عنه . عمر رضى الله عنه	عثمان رضى الله عنه . على رضى الله عنه	حسن رضى الله عنه . حسين رضى الله عنه
(بسم الله الرحمن الرحيم) قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا	(بسم الله الرحمن الرحيم) هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا	(بسم الله الرحمن الرحيم) وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك انت السميع العليم	امر بتجديـد هذه الكسـوة الشريفة صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول بن اسماعيل بـاشـا ابن ابـراهيم بـاشـا بن الحاج محمد على باشـا سنة ١٣٤٤ هـ

جـدول رقـم (١)



■ كسوة مقام سيدنا ابراهيم عليه السلام عام ١٩٢٥ ميلادية فى عهد الملك فؤاد ■

وهذه الكسوة التى صنعتها مصر فى عام ١٣٤٤ هجرية الموافق ١٩٢٥ ميلادية إذا ما قورنت بنظيرتها التى عملت فى عام ١٣٢٧ هجرية الموافق ١٩١٠ ميلادية والتى امر بصناعتها السلطان العثمانى (محمد خان الخامس) سنجد تغييرا طفيفا فى مكان الآية الأخيرة من الوجه الثالث ، فكتب بدلا منها (السلطان محمد خان الخامس بن السلطان الغازى عبدالمجيد خان بن السلطان محمود خان بن السلطان عبدالحميد خان) ويستكمل بقية الاسم فى نهاية الوجه الرابع (ابن السلطان أحمد خان خلّد الله خلافته وايد بالعدل سلطنته الى انتهاء الزمان ونهاية الدوران سنة ١٣٢٧ هـ)[٣٨]

ونلاحظ على اسلوب زركشة كسوة الخليل (ابراهيم) ـ عليه السلام ـ انه على الرغم من كثرة وتنوع الآيات القرآنية المستخدمة فى زركشتها إلا انها داخل تقسيمات هندسية تتكرر على كل الجوانب ، كما يصغر الخط فى الجزء السفلى منها ليفسح مكانا كبيرا للزركشة النباتية على اوجه هذه الكسوة الأربعة .

ستارة باب مقصورة سيدنا (ابراهيم) عليه السلام :

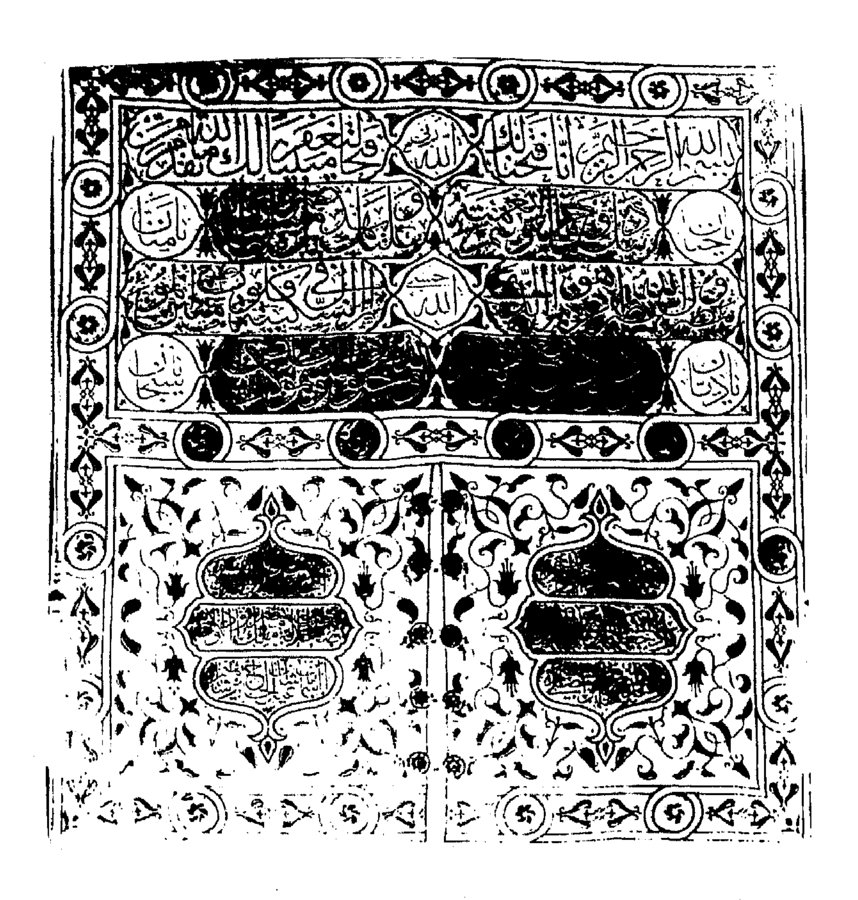
هذه الستارة مركبة من قطعتين طول كل منها ٥,٧٠ مترا ، ومن وصلة للقطعتين ، وهى كانت تصنع من المواد التى كانت تصنع منها ستارة باب الكعبة أو البرقع ، ويزن ما كان على القطعة الأولى من المخيش ٩١٥ ٢/٣ مثقالاً ، وما كان على القطعة الثانية ٩٠٦ ١/٣ مثقالا ، وما كان على الوصلة ٤٨ مثقالا ، فالجملة كان ١٨٧٠ مثقالا ، وكان عليها خمسة ازرار فضة وعشر شمسيات وعشر شرابات صغيرة[٣٩]

وقد جاء زركشتها الكتابية على النحو الآتى :

السطر الأول : « بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك » ، ثم دائرة داخلها « الله ربى » ، ثم تكملة الآية « فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من »

السطر الثانى : يبدأ بدائرة داخلها دعاء « يا حنّان » ، ثم تكملة الآية : « ذنبك وما تاخر ويتم نعمته » ، ثم يفصل الفنان المزركش والخطاط الآية بما يشبه شكل المقص ، ثم يكمل : « عليك ويهديك صراطامستقيما » ، ثم دائرة داخلها دعاء « يامنّان »

السطر الثالث : يكمل الخطاط الآية : « وينصرك الله نصرا عزيزا . هو الذى » ثم نجد عبارة « الله حسبى » داخل ما يشبه الدائرة ، ثم : « انزل السكينة فى قلوب المؤمنين » . السطر الرابع : دائرة فى داخلها دعاء « يا ديّان » ثم تكملة الآية : « ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » ثم فاصل كما فى السطر الثانى ، ثم يكمل الآية : « ولله جنود السموات والأرض » ، ثم يكمل الخطاط البارع بقية الآية بخط صغير فوق حرف الضاد فى الكلمة الأخيرة حيث يضع عليها كلمة « وكان » ، ثم يضع فوق حرف الراء فى الكلمة الأخيرة « الارض » عبارة « الله عليما حكيما ، ثم ينهى السطر بدعاء داخل دائرة « يا سبحان »

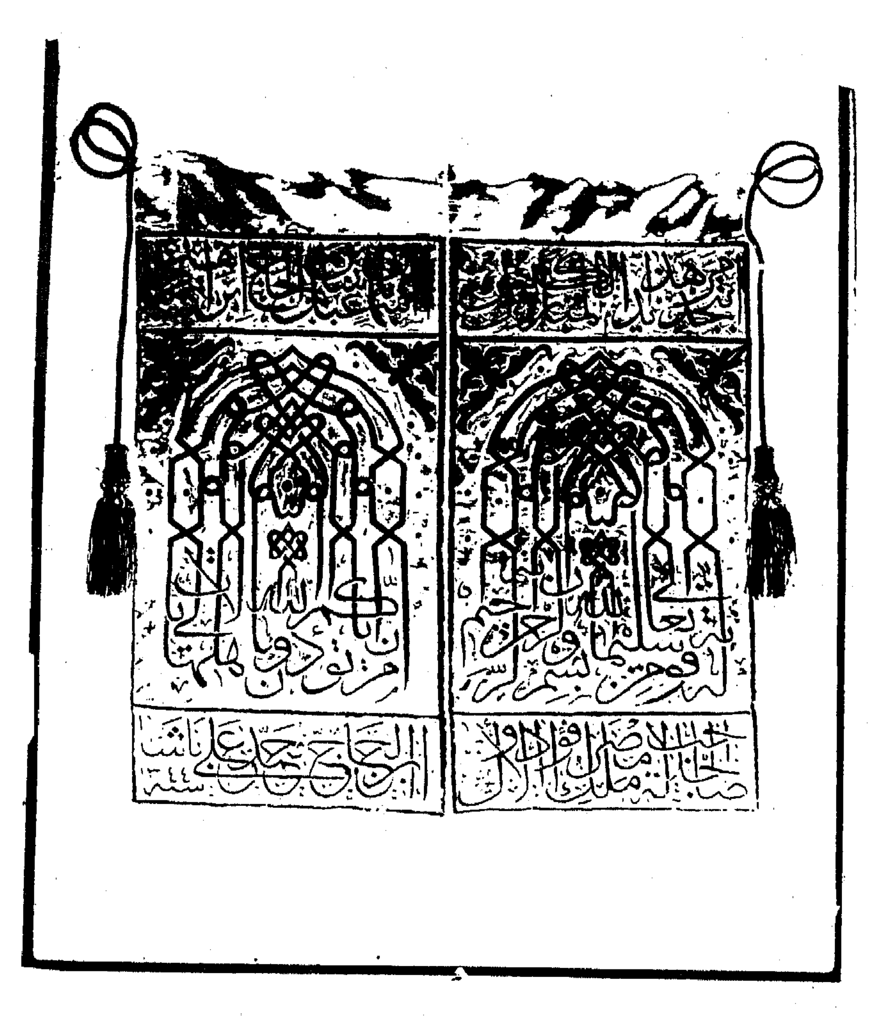


■ ستارة باب مقصورة سيدنا ابراهيم عليه السلام عام ١٩٢٥ ميلادية فى عهد الملك فؤاد ■

والكتابة فى الجزء السفلى تنقسم الى قسمين : يمين ويسار ،
ففى اليمين نجد فى السطر الخامس : « بسم الله الرحمن الرحيم » ،
وفى السطر السادس : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا »
وفى السطر السابع : « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى »
أما جزء اليسار فنجد فى السطر الخامس : « أمر بتجديد هذه الستارة الشريفة »
وفى السطر السادس : « صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول » ،
وفى السطر السابع : « بن اسماعيل باشا بن الحاج ابراهيم باشا » ولم يكمل الخطاط بقية الاسم على غراراباقى صور الاهداءات السابقة لعدم كفاية المساحة .
وقد عمد المصمم الى الاكثار من الزركشة فى الجزء السفلى بالأوراق النباتية والورود داخل الدوائر على محيط الستارة الخارجى ، فضلا عن الزركشة بالأزرار الفضية فى شريط المنتصف .

كيس مفتاح الكعبة المشرَّفة :

عند فتح باب الكعبة المشرَّفة كانت تقام مراسم معينة وسط ابتهاج حجاج بيت الله الحرام ، من ذلك ما رواه الرحالة الأندلسى (ابن جبير) فى عام ٥٧٩ هجرية . قال وهو يصف كيفية فتح باب البيت الحرام : « .. فيصعد زعيم الشيبيين اليه ، وبيده مفتاح القفل المبارك ، ومعه من السدنة من يمسك فى يده سترا أسود ، يفتح يديه به أمام الباب خلال ما يفتحه الزعيم الشيبى المذكور ، فإذا فتح القفل قبَّل العتبة ، ثم دخل البيت وحده وسدّ الباب خلفه ، وأقام قدر ما يركع ركعتين ، ثم يدخل الشيبيون ويسدون الباب أيضا ويركعون ، ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول . وفى أثناء محاولة فتح الباب الكريم ، يقف الناس مستقبلين اياه بأبصار خاشعة ، وأيد مبسوطة الى الله ضارعة . وإذا انفتح الباب كبّر الناس ، وعلا ضجيجهم ، ونادوا بألسنة مستهلة : « اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين . ثم دخلوا بسلام آمنين »[٤٠]
ولأجل أهمية فتح باب بيت الله الحرام ، بما يحدثه فى نفوس المسلمين الطائفين والعاكفين والركع السجود من غبطة وانشراح وابتهال الى غفّار الذنوب ، حرصت مصر على ارسال كيس لمفتاح البيت العتيق مع كل كسوة للكعبة المشرَّفة كانت ترسلها .
ويصف اللواء (ابراهيم رفعت باشا) هذا الكيس فيقول : « هذا الكيس من الأطلس الساسى[٤١] الأخضر الذى مقاسه ذراع وثمن (١ ١/٨ ذراع) وموضوع عليه مخيش فضة ملبَّس بالذهب البندقى الأصفر الذى زنته ٤٥ مثقالا ، وكنتير شنشخانة[٤٢] أبيض وترتر[٤٣]
فضة أبيض مثقالين ، وهو مبطن بالأطلس الساسى الأخضر ، ومركّب عليه



■ كيس مفتاح الكعبة المشرفة عام ١٩٢٥ ميلادية فى عهد الملك فؤاد ■

قيطان بشرابتين مصنوعتين من قصب ومخيش عقادى اصفر وكنتير شخشانة »[٤٤]

والكيس الموجود الآن بدار كسوة الكعبة المشرّفة بالخرنفس مقاسه ٤٢ × ٥٥ سنتيمترا ، ومكتوب بالمخيش على احد وجهيه الآية القرآنية الكريمة : « إن الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات إلى اهلها ، وعلى الوجه الآخر مكتوب الآية القرآنية الكريمة : « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم » ومكتوب في اطار علوى وسفلى خارجى عليه الاهداء : « صنع بالجمهورية العربية المتحدة في عهد الرئيس (جمال عبدالناصر) ، ثم استبدل الاسم باسم الرئيس الراحل (انور السادات)[٤٥]

والآية القرآنية الكريمة التى تكتب على كيس مفتاح الكعبة لها قصة . فقد ردّ النبى المصطفى - صلى الله عليه وسلم - مفتاح الكبة الى (عثمان بن طلحة) بعد أن أخذه من (عمر بن الخطاب) وقال : « خذوها يا بنى طلحة خالدة تالدة الى يوم القيامة لا ينزعها منكم إلا ظالم » ثم نزلت الآية القرآنية الكريمة على الرسول المصطفى الأمين . ومن ثم بقيت سدانة الكعبة من بعده في بنى شيبة الى اليوم[٤٦]

ومن واقع مشاهدة صورتى كيس مفتاح باب الكعبة المشرّفة في عام ١٣٢٧ هجرية الموافق ١٩١٠ ميلادية ايام الخديو (عباس حلمى الثانى) وعام ١٣٤٤ هجرية الموافق ١٩٢٥ ميلادية ايام الملك فؤاد الأول ، ومشاهدة آخر كيس للكعبة المشرفة صنعته مصر عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية ، نستطيع ان نقرر أن زركشة هذا الكيس لم تختلف في كثير رغم اختلاف السنين ، وكل ما حدث أن تم تبديل أسماء الحكام فقط ، مع بعض التغيرات الطفيفة في الزركشة مثل استخدام شكل الوردة في زركشة الكيس أيام الخديو (عباس حلمى الثانى) في حين تغير ذلك الى استخدام نقط مكانها في أيام الملك فؤاد وما تلاها من سنين حتى آخر كيس في عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية .

كسوة الكعبة الداخلية :

برغم الاهتمام الحافل من المؤرخين بكسوة الكعبة المشرّفة الخارجية ، وبمن قام بعملها على مدى التاريخ ، وحتى رصد الوانها وتغيراتها إلا أن كسوة الكعبة الداخلية لم يتتبعها أحد من المهتمين ، ولا نعرف حتى الآن من هو أول من كسى الكعبة المشرّفة من الداخل .

واقدم تاريخ وقفنا عليه لكسوة الكعبة الداخلية ذكره الرحالة الأندلسى (ابن جبير) أثناء تأديته لفريضة الحج خلال عام ٥٧٩ هجرية . قال (ابن جبير) : « وسقف البيت مجلل بكساء من الحرير الملون »[٤٧]

وفى عام ٦٥٩ هـ قام ملك اليمن (المظفر يوسف بن المنصور) بكساء بيت الله الحرام من الداخل والخارج بعد أن قُتِلَ خليفة بغداد (المستعصم بالله)

العباسى[٤٨] ولم يصف لنا احد شكل هذه الكسوة اليمنية الداخلية للكعبة المشرّفة ، ولم نستطع الوقوف على تفاصيلها ، كالشكل ، واللون ، واسلوب الزركشة ، والكتابات التى عليها .

واول كسوة للكعبة المشرّفة من الداخل وجدنا لها بعض التفاصيل ـ فيما بين ايدينا من المصادر ـ هى الكسوة التى أرسلتها مصر ايام سلطنة (الناصر حسن ابن قلاون) فى عام ٧٦١ هجرية .

قيل عن هذه الكسوة المصرية انها كانت تستر باطن الكعبة المشرّفة ، ابتداء من سقفها حتى أرضها ، ولكن يبدو ان أحدا من سدنة الكعبة المشرّفة كان يقتطع منها بضعة اجزاء ليفرقها على من كانوا مغرمين باقتناء قطع منها .

قال (الحافظ ابو الطيب الفاسى) (٧٧٥ ـ ٨٣٢) هجرية وهو ويصفها : « وبلغنى انها كانت اطول من هذا بحيث تصل الى الأرض ، وهى الآن ساترة لمقدار النصف الأعلا وسقفها ، وهى حرير أسود ، وفيها جامات[٤٩] مزركشة بالذهب »[٥٠]

وبالوقوف برهة عند هذا الأسلوب الفنى فى زركشة كسوة الكعبة المشرّفة من الداخل نجده انه اسلوب قديم ، وهو الاعتماد على وضع « الجامات » أو ما يسمى الآن بالكردشيات المزركشة بالزخارف ، سواء أكانت كتابية او غير كتابية .

وإذا كان نفس المؤلف قد قال فى نفس كتابه : « وفى سنة عشر وثمانمائة احدثت فى جانب الكسوة الشرقى من الكعبة جامات منقوشة بالحرير الأبيض »[٥١] فليس معنى ذلك ان بداية التفكير فى وضع الجامات على كساء بيت الله الحرام قد بدأ فى عام ٨١٠ هجرية ، كما قال المؤلف ، وإنما الصحيح الذى يستقيم مع المنطق والتاريخ هو ان هذا العلم المتاخر كان بداية لهذا النوع من الزركشة بالجامات للكسوة الخارجية التى صنعتها مصر ـ إذا صح التقدير ، ولم يغفل ذكر البداية الحقيقية المؤرخون ـ فى حين كانت كسوة الباطن للكعبة المشرّفة تحمل نفس هذا الأسلوب الفنى من الزركشة بالجامات المزركشة او ما يسمى الآن بالكردشيات ذات الزركشة المذهبة والمفضضة منذ عام ٧٦١ هجرية على الأقل .

وإلا كيف « يستحدث » شيء وقبل ذلك بنحو نصف قرن من الزمان كان موجودا على الكسوة الداخلية للكعبة المشرّفة ؟!!

ولم نعرف لون هذه الكسوة الداخلية ، لانه لم يشر أحد من المؤرخين الى ذلك ، وإنما أشار المؤرخون الى لون كسوة الكعبة الداخلية التى عملتها مصر سنة ٨٢٥ هجرية ، ايام سلطنة السلطان المملوكى (الأشرف برسباى) وقالوا انها كانت من الحرير الأحمر[٥٢]

وظلت مصر تصنع كسوة الكعبة المشرّفة من الداخل ، حتى عام ١١١٨ هجرية الموافق ١٧٠٦ م ، حيث استأثرت بها الدولة العثمانية وحدها بعد أن شاركت مصر بضع سنين فى عملها بحكم تبعية مصر لها بعد الغزو العثمانى عام ٩٢٢ هجرية . الموافق ١٥١٧ ميلادية .

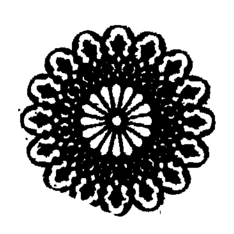


■ كسوة الكعبة المشرفة من الداخل التى ترجع الى عهد السلطان العثمانى عبدالعزيز خان ■

كانت زركشة كسوة الكعبة التي صنعتها تركيا أيام السلطان العثماني (سليمان القانوني) علم ٩٧٤ هجرية الموافق ١٥٦٦ ميلادية تأخذ شكل الزجزاج العريض وداخله عبارة « لا إله إلا الله » وظهرت فيها وحدة زخرفية على شكل شجرة أو وردة ذات ثلاث مستويات ، ثم تغير الشكل في القرن الحادى عشر الهجرى الى زجزاجين متكررين ، أولهما عريض كُتِبَ عليه : « الصلاة والسلام عليك يا رسول الله » ومتكررة في الشريط الواحد ، ثم يلي ذلك زجزاج أقل في السمك ، كُتِبَ عليه : « اللهم صلى وسلم على أشرف جميع الأنبياء والمرسلين ، ثم يلي ذلك زجزاج أقل في السمك مكتوب فيه : « ورضى الله تعالى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ ، وعلى الصحابة أجمعين » . أما الشريط العريض من الزجزاج الكبير ، فهو بنفس السمك الكبير ، ولكن تغيرت فيه الكتابة الى : « محمد حبيب الله ولا سواه » وكانت كسوة الكعبة المشرفة من الداخل حمراء اللون في عهد السلطان (عبدالعزيز خان) العثماني ، وكانت بنفس التقسيم ذى الزجزاج ، وظهرت فيها بعض الزركشة بأشكال فنية ، مثل كلمة « يا حنّان » في داخل شكل زخرفي في أعلا الزجزاج الأصغر ، وكلمة « يا منّان » في شكل معكوس للشكل الأول وتحت الزجزاج الأصغر التالية للزجزاج الكبير الأوسط .

وفي هذا الزجزاج ظهرت عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » متكررة ، أما الزجزاج الصغير العلوى فمكتوب فيه الآية القرآنية الشريفة : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام » . وتتكرر هذه الآية القرآنية بامتداد الزجزاج ، أما الزجزاج السفلى فمكتوب فيه : « سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده » وهكذا تتكرر هذه العبارات متبادلة بامتداد الزجزاج نفسه .





الهوامش والمراجع

(*) فى الفارسية زركش الثوب المذهب أو الثوب تطرز حواشيه بخيوط الذهب ـ ص ١٢٢ ـ « تاصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل »

(١) الحزام : هو الشريط الذى عليه كتابة مزركشة ومزخرفة على الكسوة الشريفة .

(٢) الكردشية : زخارف كتابية فى شكل دائرى له تكونه الخاص .

(٣) المخيش : نوع من الخيوط السلكية الرفيعة والتى تم سحبها من الفضة الخالصة ، أو الملبسة بالذهب .

(٤) البندقى : عيار ٩٩ ٪ وهو أنقى أنواع الذهب .

(٥) رونكه وهى كلمة فارسية بمعنى اللون والصبغة ، وهى فى الاصطلاح التارخى بمعنى الشعار و(الأرما) والبندرة ـ أنظر « تاصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل » للدكتور / أحمد السعيد سليمان ـ ص ١١٥ .

(٦) الكمخ : الكتابة .

(٧) هذه التفاصيل بياناتها من دار الكسوة بالخرنفش بالقاهرة .

(٨) شُرَّابات : جمع شرابة ، وهى مجموعة خيوط قصيرة مجمعة فى شكل كروى وذات اطراف متفرقة من هذه الخيوط .

(٩) الكنتير : نوع من خيوط المخيش .

(١٠) المخيش العقادى الأصفر : نوع من الخوط ذى طلاء ذهبى بالذهب .

(١١) شمسة مزركشة : هى شكل دائرى شبه الشمس بأشعتها مزخرفة .

(١٢) العتبة : هى الجزء العلوى من البرقع أو الجزء العلوى من ستارة باب الكعبة .

(١٣)الطراز : هو الجزء الأوسط من البرقع او الجزء الأوسط من ستارة باب الكعبة .

(١٤) القائم الصغير : هو أيضا جزء أوسط ويلى الطراز ، أما القائم الكبير فهو الجزء السفلى من البرقع .

(١٥) النوار : شريط منسوج من القطن يوضع على ملتقى العرضين .

(١٦) المجاديل : هى أحبال لتعليق الكسوة فى سطح الكعبة بعد أن يتم خياطتها بالجزء العلوى من الكسوة الشريفة ، وهى سميكة نوعا .

(١٧) العصافير : هى أحبال من النوع الرفيع بغرض ربط الكسوة الشريفة فى حلق النحاس المثبت فى محيط الكعبة المشرفة العلوى .

(١٨) المثقال يعادل ٤,٧٥ جرام .

(١٩) سجق قطن : ضفيرة من النسيج فى أطرافها كرات .

(٢٠) هذه التفاصيل بياناتها من دار الكسوة بالخرنفش بالقاهرة .

(٢١) اللواء / ابراهم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ـ ص ٢٩٦ جـ ١ ـ دار المعرفة ببيروت ـ بدون تاريخ .

(٢٢) المقريزى ـ « خطط المقريزى » ـ ص ٣٣٨ جـ ١ ـ دار التحرير ١٩٦٧ .

(٢٣) محمد صالح الشيبى « اعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام » ص ١٩٦ تحقيق اسماعيل أحمد اسماعيل حافظ ـ مطبوعات نادى مكة الثقافى ١٩٨٤ .

(٢٤) د سعاد ماهر « النسيج الاسلامى » ص ٣٤ مطابع دار الشعب ١٩٧٧ .

(٢٥) المرجع السابق ـ ص ٣٥ .

(٢٦) المرجع السابق ـ ص ٣٦ .

(٢٧)المرجع السابق ـ ص ٢٣ .

(٢٨) ابراهيم حلمي « كسوة الكعبة الشريفة » ص ٨٥ ـ مقالة بمجلة الفنون الشعبية عدد (٢٩) اكتوبر ـ نوفمبر ـ دسمبر ١٩٨٩ ـ الهيئة العامة للكتاب .

(٢٩) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٢٩٣ حـ ١ .

(٣٠) ابراهيم حلمي « كسوة الكعبة الشريفة » ص ٨٥ .

(٣١) يبدو غريبا من الخطاط عدم اكمال سورة المائدة وهو ذلك الحوار الذى دار بين الملكة (بلقيس) ورجال بلاطها ، وفيما نعتقد ـ وهذا مجرد ظن بلا سند ـ ان التكملة كانت موجودة فيما سبق من كساوى ، وغير ان احد سلاطين الدولة العثمانية ، وهو السلطان (سليمان بن سليم الأول) قام بهذا التغيير فى عهده ، تيمنا بان الآية الأولى تحوى اسم (سليمان) والثانية تحمل دعاء بان يهب الله له (سلطانا نصيرا) .

(٣٢) شاهدنا بانفسنا هذا التغيير فى الاسم على نفس الكسوة عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية والتى عادت من الحجاز فى عهد الرئيس جمال عبدالناصر ، وقد لاحظنا على نفس الكسوة اسم الرئيس الراحل عبدالناصر ، وقد لاحظنا على نفس الكسوة اسم الرئيس الراحل أنور السادات .

(٣٣) قارن بين ستارة باب التوبة فى عهد الملك فؤاد الأول سنة ١٩٣٠ وتلك الستارة للسلطان محمد خان الخامس ـ ص ٥٧٧ حـ ١ « مرآة الحرمين » لابراهيم رفعت باشا ، وهى شكل رقم ١٠٤ .

(٣٤) اللواء / ابراهم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ـ ٢٩٦ حـ ١ .

(٣٥) الحافظ أبو الطيب الفاسى « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » ص ٢٠٢ حـ ١ . مكتبة النهضة الحديثة بمكة ودار احياء الكتب العربية ـ عيسى البابى الحلبى ١٩٥٦ .

(٣٦) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٩٣ حـ ٣ ـ دار التحرير للطبع والنشر ـ كتاب التحرير رقم ١٦٨ .

(٣٧) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٢٤٣ حـ ١ .

(٣٨) المرجع السابق ـ ص ٢٤٧ حـ ١ ، ص ٥٧١ حـ .

(٣٩) المرجع السابق ـ ص ٢٩٥ حـ ١ .

(٤٠) ابن جبير « رحلة ابن جبير » ص ٧٩ ـ دار الكتاب اللبنانى ـ مكتبة المدرسة ـ بدون تاريخ .

(٤١) السلسى : حرير جيد ينسب الى بلاد ساسان بأرض العجم .

(٤٢) كنتير ششخانة : هو خيوط من المخش ملفوفة فى بعضها .

(٤٣) الترتر : دوائر مثقوبة من وسطها .

(٤٤) اللواء / ابراهم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ـ ص ٢٩٦ حـ ١ .

(٤٥) ابراهيم حلمى « كسوة الكعبة الشريفة » مجلة الفنون الشعبية ـ العدد (٢٩) ص ٨٨ .

(٤٦) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٢٩٩ حـ ١ .

(٤٧) ابن جبير « رحلة ابن جبير » ص ٧٢ .

(٤٨) المقريزى « الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك » ص ٨٤ ـ تحقيق د . جمال الدين الشيال ـ مكتبة الخانجى ١٩٥٥ ، عبدالملك بن حسين العصامى المكى

« سمط النجوم العوالى فى انباء الأوائل والتوالى » ص ٢٢٢ حـ ٤ ـ المكتبة السلفية بالروضة بالقاهرة ـ ١٣٨٠ هجرية .

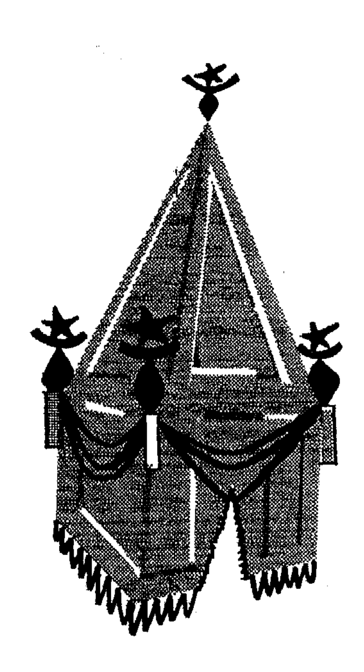
(٤٩) الجامة : كلمة فارسية بمعنى الرداء . انظر « تاصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى » من الدخيل » للدكتور احمد السعيد سليمان ـ ص ٥٩ ، والمقصود بكلمة جامة هنا هى وضع قطع من القماش المزركش فوق كسوة الكعبة المشرفة ، على غرار الكردشيات السابق وصفها .

(٥٠) الحافظ ابى الطيب الفاسى « شفاء الغرام .... » ص ١٢٣ حـ ١ .

(٥١) المرجع السابق ـ ص ١٢٣ حـ ١ .

(٥٢) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ـ ص ٢٩١ حـ ١ .

□ □ □



مشوار كسوة الكعبة المشرفة عبر التاريخ

كسوة الكعبة المشرفة فى الجاهلية :

قال الراوى فى سيرة الملك (سيف بن ذى يزن) :
« وبعد ان اظهر الوزير (يثرب) ايمانه للملك صار عنده اعز من اخوانه ، وزادت مرتبته .. واقبل الليل بالظلام ، وطلبت العين حظها من المنام ، وانصرف كل واحد منهم الى مضاربه والخيام ، فنام الملك فى فراشه ، وغرق فى منامه ، فرأى فى ليلة هاتفا يقول له : ياذا يزن بقى عليك حلاوة اسلامك وهو ان تكسو البيت الشريف فانت فى بركته وبركة الطائفين به من مشارق الأرض الى مغاربها . فلما افاق من منامه ولذيذ احلامه طلب الوزير (يثرب) اليه فلما حضر بين يديه قص القصة التى جرت عليه فقال له الوزير : ياملك الزمان افعل ما امرت به فاجابه الى ذلك وامر بكسوة البيت خصفا وهى نوع من الثياب الغليظة ـ وولى النهار ، واقبل الليل بالاعتكار ، ونام الملك ، فاتاه الهاتف وقال له : اكس البيت غير هذا فلما افاق امر باحضار الوزير ، فلما حضر قص عليه الرؤيا فقال له الوزير : ياملك الزمان . انت ملك الأرض فى طولها وعرضها وهذا لا يليق به ولا يليق بمقامك ، فامر الملك بالحرير ، وامر الصناع ان يشتغلوا فى الكسوة وكساه واتم امره ثم نام تلك الليلة فاتاه الهاتف ثالث مرة ، وقال له اكس البيت غير ذلك ، فلما افاق من منامه امر باحضار الوزير وقص عليه ما راى فقال له الوزير : ياملك الزمان افعل ما امرت به فامر بزركشة الكسوة بالخز والفضة والذهب ، ففعلوا ما امر به الملك ، ورتب هذا على الملوك من بعده[1]

هكذا استطاع الأدب الشعبى المصرى ان يرصد ظاهرة الاحتفاء بكسوة الكعبة المشرفة فى واحدة من اهم سيره الشعبية العربية ، الا وهى سيرة الملك (سيف ابن ذى يزن) بل واستطاع كذلك أن يرصد ذلك التدرج فى نوعية الكسوة المشرفة الذى حدث لها ، وذلك وفق ما راى خياله فى احد اشكال ابداعات تعبيراته الشعبية .

وتقول احداث هذا السيرة الشعبية ان الملك الحميرى اليمنى (ذا يزن) هم بهدم الكعبة المشرفة ونقل حجارتها الى بلده واعادة بناء هيكلها باليمن لكى يتباهى بذلك بين سائر ملوك الأرض قاطبة ، غير ان الانتقام الالهى منه جعله لا يستطيع ان يتم تنفيذ وسلوس النفس بالهدم ، حيث يردعه كلما هم بالهدم ، ويمرض ، مرارا وتكرارا ، ولم يكن هناك من مخرج من تلك الورطة سوى أن يغض الطرف عن هدم الكعبة المشرفة بل على العكس من ذلك ، يامر بكسوتها على النحو الذى رآه فى منامه .

وتلخص السيرة الشعبية (سيف بن ذى يزن) تلك الواقعة فى ابيات شعرية تقول على لسان الملك (ذى يزن) وهو يبدى بها الندم ، فيقول[٢] » :

لقد رمت هدم البيت والركن والحجر
فردنى الجبار بالقهر والقدر
عزمت مرارا مرة بعد مرة
على هدمه بغيا وقد مسنى الضرر
وقد جاءنى من بعد ذلك هاتف
وقد كنت أسلمت على غم من كفر
وقال اكس هذا البيت ياذا بكسوة
فحللته خذاً وديباجا اشتهر
واقررت أن الله لا رب غيره
وأن خليل الله بالحق قد أمر

واذا كانت هى هكذا رؤية الفنان الشعبى فيما يخص كسوة الكعبة المشرفة ، فى ابداع سيرة شعبية ، فأين هذا كله ـ والسؤال يفرض نفسه فرضا ـ من الواقع التاريخى الصحيح لمسيرة الانسان العربى والمسلم مع كساء بيت الله الحرام ؟ فى الحقيقة لم يثبت للمؤرخين راى قاطع واحد عمن هو الشخص الذى كان أول من قام بكساء الكعبة المشرفة ، ولا عرف بيقين مؤكد لا يتزعزع متى تم ذلك فى زمن من الأزمنة قبل الاسلام .

ولكن للحقيقة فقد انحصرت الآراء فى بضعة افراد بالذات دون غيرهم فنالوا بذلك العمل الشرف الرفيع العظيم .

فمن هم هؤلاء ؟

روى (عبد الرازق)عن (ابن جريج) قال) « زعم بعض علمائنا أن أول من كسى الكعبة اسماعيل النبى عليه السلام »[٣] .

ويقال انه (عدنان بن أد) أو (عدنان بن أدد) فقد خاف ان يدرس الحرم فوضع انصابه ، فكان اول من وضعها ، وأول من كسى الكعبة[٤] . وكانت كسوته للكعبة المشرفة من الأنطاع ، وهى عبارة عن قطع من الأديم أو الجلد ، ولم يذكر احد من المؤرخين ممن يؤيد ذلك متى تمت هذه الكسوة وإن أشار بعضهم الى نسب (عدنان بن أدد) فهو على حد قول البلاذرى ـ حفيد سيدنا (اسماعيل بن ابراهيم) عليهما السلام ـ ويليه لخمسة اجيال كاملة .

وقيل أن أول من كسا الكعبة هو تبع (أسعد أبو كرب) أو (معان اسعد الحميرى) وقد روى فى ذلك قصة تشبه فى كثير من تفاصيلها ما حكاه الحكاء الشعبىّ فى السيرة الشعبية (سيف بن ذى يزن) مع بعض التغيرات فى الأشخاص والأحداث ، التى فرضها حكاء السيرة الشعبية ، وفق رؤيته ونسيجه الفنى فى ابداعه الخاص .

قال (الحافظ أبو الطيب الفاسى) : في كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » عن هذاالملك : « لما اقبل تبع وهو (معان أسعد الحميرى) ملك اليمن من الشرق ، وجعل المدينة ـ يثرب ـ على طريقه لقضاء وطر له بها ، ثم توجه منها الى مكة ، لأنها طريقه لبلده ، فلما كان بين أمج وعسفان ، لقيه نفر من هذيل من بني لحيان ، فحسنوا له تخريب الكعبة ، وأن يبنى عنده بيتا يصرف اليه الحجيج ، فعزم على ذلك ، فدقت بهم دوابهم ، وغشيتهم ظلمة شديدة وريح ، فدعى أحبارا كانوا معه من أهل الكتاب ، فسالهم فقالوا : هل هممت لهذا البيت بسوء ؟ فاخبرهم بما قال له الهذليون وما أراد ان يفعل ، فقالوا له : ما أراد القوم الا هلاكك وهلاك من معك ، هذا بيت الله لم يرده أحد بسوء الا هلك . قال : فما الحيلة ؟ قالوا : تنوى له خيرا ان تعظمه وتكسوه وتنحر عنده وتحش دوابهم أياما ينحر كل يوم مائة بدنة وكسا البيت »[5]

وروى عن (جعفر بن محمد) عن ابيه قال : « لما اقبل (تبع) يريد هدم البيت وصرف وجوه العرب الى اليمن فبات مريضا ، فاقبل وقد سالت عيناه على خديه ، فبعث الى الأحبار والسحرة والكهان والمنجمين ، فقال : مالى ؟ فوالله لقد بت ليلتى وما اجد شيئا ، ثم صرت الى ما ترون ، فقالوا : لعلك حدثت نفسك لهذا البيت بسوء ؟ فقال : نعم . قالوا : فحدث نفسك ان تصنع به وبأهله خيرا . ففعل وقد رجعت عيناه فارتد بصيرا ، وكسى البيت الخصف »[6] .

ويقال ان هذه الكسوة كانت من الخصف والمعافر والملاء والوصايل والعصب والمسوح والأنطاع والبرود[7] .

ويقال كانت مدة هذه الكسوة للكعبة المشرفة قبل الهجرة النبوية بنحو ٢٢٠ سنة كما حدد ذلك التاريخ (العمرى)[8] .

وهذه الكسوة التى قام بها الملك الحميرى لم يتفق احد من المؤرخين على زمنها الحقيقى .

فكلا من (الحافظ ابى الطيب الفاسى) في كتابه (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام) نقلا عن (العتبى) و(المسعودى) في كتابه (مروج الذهب) يذكر ان قصة الملك الحميرى مع أول كسوة للكعبة المشرفة كانت قبل الاسلام بسبعمائة عام ! ![9]

وان صحت هذه القصة فنحن نرجح ان تكون وقائعها قد حدثت قبل الاسلام بنحو ما بين ٧٨ سنة الى ١٢١ سنة ، وسندنا في تحديد ذلك ما قد ورد في حادثة كساء الملك الحميرى اليمنى (اسعد ابو كرب) للكعبة المشرفة من بعض الأبيات الشعرية التى تحدد هذا التاريخ قائلة :

ورد الملك تبع وبنوه ... ورثوهم جدودهم والجدودا

إذ جبينا من ظفار ... ثم سرنا بها مسيرا بعيدا

فاستبحنا بالخيل ملك (قباذ)
وابن اقلود جاءنا مصفودا
فكسونا البيت الذى حرم الله
ملاء مقصبا وبرودا
واقمنا به من الشهر عشرا
وجعلنا لبابه اقليدا
ثم طفنا بالبيت سبعا وسبعا
وسجدنا عند المقام سجودا
وخرجنا منه إلى حيث كنا
ورفعنا لواءنا معقودا

إذا فتاريخ هذه الكسوة يتفق مع فترة حكم الملك الساسانى فى فارس (قباذ الأول) والذى تولى الحكم سنة ٤٨٨ ميلادية لمدة ثلاث واربعين سنة (١٠) .

وقد قيل ان خلفاء الملك الحميرى اليمنى (أسعد أبو كرب) قاموا كذلك بكساء بيت الله الحرام بالجلد والأقمشة ثم أخذ الناس يقدمون للكعبة المشرفة هدايا من الكساوى المختلفة فيلبسونها على بعضها ، فكان اذا بلى ثوب وضع عليه ثوب آخر ، وكانت قريش ترافد فى كسوة البيت الحرام ، وذلك بأن يقدروا بعضا من المال على القبائل بقدر احتمالها فى عهد (قصى بن كلاب) حتى جاء (أبو ربيعة بن المغيرة المخزومى) وكان من الأثرياء فقال لقريش) « أنا أكسو الكعبة وحدي سنة ، وجميع قريش سنة » وظل يأتى بالحبر الجيدة من الجلد بأرض اليمن ، فيكسو الكعبة ، الى أن مات . فكانت قريش تلقبه بلقب « العدل » وذلك لأنه كان يعدل قريشا وحده فى كسوة الكعبة المشرفة (١١) .

وروى (الواقدى) عن (النوار بنت مالك) أم (زيد بن ثابت) رضى الله عنهما ـ انها قالت : رأيت قبل أن ألد زيدا على الكعبة مطارف خز اخضر ، واصفر ، وكرار ـ أى خيش رقيق ـ واكسية من اكسية الأعراب ، وشقاق شعر .

كما روى (البخارى) عن أم المؤمنين (عائشة بنت ابى بكر) ـ رضى الله عنها ـ قالت : كانوا يصومون عاشوراء قبل ان يفرض رمضان ، وكان يوما تستر فيه الكعبة .

وقيل عن (ابن جريج) أن الكعبة كانت تكسى يوم عاشوراء اذا ذهب آخر حاج حتى كان بنو هاشم فكانوا يعلقون عليها القميص يوم التروية من الديباج لكى يرى الناس ذلك عليها بهاء وجمالا ، فاذا كان يوم عاشوراء علقوا عليها الازار .

وعن (عمربن الحكم السلمى) قال : نذرت أمى بدنة تنحرها عند البيت ، وجللتها شقتين من شعر ووبر ، فنحرت البدنة ، وسترت الكعبة بالشقتين ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ بمكة لم يهاجر ، فنظرت الى البيت يومئذ

وعليه كسى شتى من وصائل وأنطاع وكرار وخز ونمارق عراقية كل هذا قد رأيته عليه [١٢] .

وتعد (نتيلة بنت جناب) أم(العباس بن عبد المطلب) أول عربية قامت بكساء الكعبة المشرفة فى الجاهلية . فيقال انها ضل (العباس) منها وهو طفل صغير ، أو أخوه (ضرار) أو(خوار) فنذرت إن هى وجدته أن تكسو الكعبة المشرفة ، فلما عثرت عليه قامت بكساء الكعبة وفاء بنذرها [١٣] .

وروى (الفاكهى) عن (جسره) ، قال : أصاب خالد بن جعفر بن كلاب لطيمة فى الجاهلية ـ وهى جمال تحمل العطر والحرير ـ فيها نمط من ديباج فأرسل به إلى الكعبة ، فنيط عليها ـ أى وضع عليها ـ فعلى هذا هو أول من كسا الكعبة الديباج .[١٤] .

مما سبق يتبين لنا أن كسوة الكعبة المشرَّفة عبر التاريخ العربى لها مشوارها الحافل والهام ، الذى لا يمكن إغفاله بأى حال من الأحوال ، على الرغم من الدجى الدامس لألفاف الظلام فى الجاهلية ، وقبل شروق نور فجر الاسلام على يد نبيه المصطفى الكريم صلوات الله عليه وسلامه .

فقد كان الاهتمام بكساء بيت الله الحرام يعد مفخرة إنسانية يتطلع إليها هؤلاء البشر ، ممن كانوا يطوفون بالبيت العتيق ، طلبا للغفران ، بصرف النظر عن كون الرسالة المحمدية لم يات وقتها أوان مبعثها ، أو كانت الرءوس الضالة تسجد أمام جلاميد أصنام شتى ، لا هى تنفع ، ولا هى تضر ، ولا هى حتى تملك من أمرها شيئا .

ففى أغوار تلك النفوس الطيبة كان غالبا ما يكمن ويستقر فى الوعى أن هذا البناء الشامخ ما هو إلا بيت الله المحرَّم ، ولذا وجب كسوته على من وجد فى طاقته القدرة ويستطيع أن يفعل .

أما وقد انبلج نور البعثة المحمدية ، فقد انتقلت كسوة الكعبة المشرَّفة من مرحلة هامة وحافلة إلى مرحلة أخرى أهم وأحفل ، وشتان ما بين المرحلتين ، مثلما هو شتان ما بين شىء فى الظلام ، وآخر فى روعة النور .. !

كسوة الكعبة المشرَّفة فى صدر الاسلام :

روى (البخارى) عن (عروة) يوم فتح مكة فى رمضان أن قال الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم : « هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة »[١٥] .

وقد كان من الطبيعى ألا يشارك الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون فى كساء بيت الله الحرام قبل الفتح ، ذلك أن المشركين من قريش حالوا دون ذلك ، إلى ان تم فتح مكة فابقى صلى الله عليه وسلم على كسوة الكعبة ، ولم يستبدلها ، حتى احترقت على يد امرأة كانت تريد تبخيرها ، فكساها الرسول صلى الله عليه وسلم بالثياب اليمانية .[١٦] .

وبعد النبي صلى الله عليه وسلم كساها خليفته (أبوبكر الصديق) ، ثم كساها (عمر ابن الخطاب) بالقماش المصرى المعروف باسم (القباطى) ، وكان يكتب إلى مصر لتحاك له الكسوة فيها .

وكان (عمر بن الخطاب) ينزع الكسوة القديمة كل سنة ، ويفرقها على الحجاج لكي يستظلوا بها بعد وضعها على نوع من الأشجار بمكة اسمه السمر[17] .

وقال (ابن اسحق) : بلغنى ان البيت لم يكس فى عهدى (أبى بكر) ، ولا (عمر) ، بمعنى انه لم يجدد له كسوة[18] .

وقيل انه فى عهد (عمر بن الخطاب) وجد شيئا من الكسوة القديمة على حائض ، فامر بحفر حفرة ، والقى فيها الكسوة القديمة ، وأهل التراب عليها خوفا من أن يلبسها جنب أو حائض ، فقالت له أم المؤمنين (عائشة بنت ابى بكر) : إن ثياب الكعبة إذا نزعت عنها لا يضرها من لبسها من حائض ، ولكن بعها واجعل ثمنها فى سبيل الله تعالى وابن السبيل ، فكان ما اشارت به (عائشة) رضى الله عنها .[19]

وكان ذو النورين (عثمان بن عفان) اول من وضع من الخلفاء كسوتين على الكعبة المشرفة ، إحداهما فوق الأخرى ، وكانت إحداهما من البرود اليمانية[20]

وكساها (عبدالله بن عمر بن الخطاب) ما كان يجلل به بدنه من قماش القباطى المصرى والحبرات والأنماط .[21]

ويقال أن (ابن عمر) كان يكسو بدنه إذا أراد أن يحرم القباطى والحبر ، وفى رواية الأنماط ، فإذا كان يوم عرفة البسها إياها ، وإذا كان يوم النحر نزعها ، ثم أرسل بها إلى (شيبة بن عثمان الحجبى) فناطها على الكعبة قبل أن تكسى .[22]

فى عهد بنى أمية :

كان (معاوية بن ابى سفيان) يكسو الكعبة المشرفة بكسوتين فى العام . وكانت الكسوة الأولى من الديباج فى يوم عاشوراء ، وأما الثانية فكانت من القماش المصرى (القباطى) فى اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان .[23]

ويقال أن (شيبة بن عثمان الحجبى) قد كتب إلى (معاوية بن ابى سفيان) فى امر تراكم اكسية الكعبة فوق بعضها البعض ، فقال : لو طرح عنها ما عليها من كسى الجاهلية ، فخفف عنها حتى لا يكون مما مسه المشركون شىء لنجاستهم ؟ فأمره أن يجرد الكعبة المشرفة مما عليها من كساو ، ويخلقها بالطيب ، ويلبسها ما جهزه إليها من ديباج وقباطى وحبرة . ففعل ، وقسم الثياب التى كانت عليها بين أهل مكة ، وكان (ابن عباس) ـ رضى الله عنهما ـ حاضرا فى المسجد الحرام وهم يجردونها فما انكر ذلك ولا كرهه[24]

ثم كساها (يزيد بن معاوية بن ابى سفيان) الديباج الخسروانى ، كذلك فعل

(ابن الزبير) ، فقد كان يبعث إلى أخيه (مصعب) ليرسل إليه الكسوة كل سنة .
وربما كساها به كذلك (الحجاج بن يوسف الثقفى) ، ولعله فعل ذلك تكفيرا عما أتاه من رميها بالمنجنيق فى قتله (ابن الزبير) وهو معتصم بها .

وكساها بالديباج أيضا الخليفة (عبدالملك بن مروان) . فقد كان يبعث به من الشام ، فيمر به وعلى المدينة ، فينشر يوما فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم على الأساطين فى مؤخر المسجد ، ثم يطوى ويبعث به إلى مكة .[٢٥]

وقد كساها الخليفة (هشام بن عبدالملك) ديباجا من النوع الغليظ .

وقال (الماوردى) : وكساها بنو أمية فى بعض أيامهم الحلل التى كانت على أهل (نجران) فى جزيتهم ، والديباج من فوقها .

فى عهد الدولة العباسية :

لم يهتم خلفاء الدولة العباسية فى بداية عهد التأسيس بكساء بيت الله الحرام ، نظرا لكثرة القلاقل ، بل كان منهم من يريد أن يبنى فى بغداد نموذجا لصرف الأنظار إليه أطلقوا عليه (القبة الخضراء) ، وذلك فى عهد الخليفة العباسى الثانى (أبوجعفر المنصور) ، وكان ما قاساه هذا الخليفة من عواقب اهماله الحرمين عبرة لخلفائه ، فلما تولى ابنه (المهدى) أمر الخلافة من بعده قام بكساء الكعبة المشرفة كسوة جديدة .[٢٦]

هذه الكسوة ذكرها (المقريزى) فى خططه ، نقلا عن (الفاكهى) فى كتابه (أخبار مكة) ، حيث أخبرنا أنها كانت فى عام ١٥٩هـ ، فى حين ذكرها (النويرى) فى كتابه (نهاية الأرب) بأنها كانت فى علم ١٦٠هـ .

فعند (المقريزى) قال نقلا عن (الفاكهى) الذى قال : ورأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها « بسم الله ، بركة من الله ، مما أمر به عبدالله المهدى محمد أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، محمد بن سليمان أن يصنع فى طراز (تنيس) كسوة الكعبة ، على يد الخطاب بن مسلمة عاملة سنة تسع وخمسين ومائة »[٢٧] .

اما عند (النويرى) فقد ذكر ضمن أحداث عام ١٦٠ هجرية انه : حج (المهدى) فى هذه السنة بالناس ، وفيها نزع المهدى كسوة الكعبة وكساها كسوة جديدة ، وكان سبب نزعها أن حجبة الكعبة ذكروا له أنهم يخافون على الكعبة أن تتهدم ، لكثرة ما عليها من الكسوة فنزعها ، وكانت كسوة هشام بن عبدالملك من الديباج الثخين ، وما قبلها من عمل اليمن .[٢٨]

وكانت هناك كسوة أخرى صنعها الخليفة العباسى (المهدى) فى عام ١٦٢ هجرية اتى بها من مصر ..

قال (المقريزى) عن هذه الكسوة نقلا عن (الفاكهى) قال : « ورأيت كسوة من كسا المهدى مكتوبا عليها بسم الله ، بركة من الله لعبدالله المهدى محمد أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم أن يصنع فى طراز تنيس ، على يد الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة .[٢٩]

وراى (الفاكهى) كسوتين من اكسية الخليفة العباسى (هارون الرشيد) فى عامى ١٩٠ ، ١٩١ هجرية .

قال عن الأولى : ورايت ايضا كسوة لهارون الرشيد ، من قباطى مصر ، مكتوبا عليها « بسم الله ، بركة من الله للخليفة الرشيد عبدالله هارون امير المؤمنين ، اكرمه الله ، مما امر به الفضل بن الربيع ان يعمل فى طراز تونة سنة تسعين ومائة .(٣٠)

اما عن الثانية فقال (الفاكهى) : رايت فيها كسوة من كسا امير المؤمنين هارون الرشيد من قباطى مصر ، مكتوبا عليها : « بسم الله ، بركة من الله لعبدالله هارون امير المؤمنين اطال الله بقاءه ، مما امر الفضل بن الربيع مولى امير المؤمنين بصنعته فى طراز شطا ، كسوة الكعبة سنة إحدى وتسعين ومائة »(٣١)

وقال (الفاكهى) : « ورايت كسوة مما يلى الركن الغربى - يعنى من الكعبة - مكتوبا عليها : « مما امر به السرى بن الحكم وعبدالعزيز بن الوزير الجروى ، بامر الفضل بن سهل ذى الرياستين وطاهر بن الحسين ، سنة سبع وتسعين ومائة »(٣٢)

وفى عهد الخليفة العباسى (المامون بن هارون الرشيد) امر ان تُكسى الكعبة ثلاث مرات كل سنة ، فتكسى الديباج الأحمر يوم التروية ، وتكسى القباطى اول رجب ، وتكسى الديباج الأبيض فى عيد رمضان .(٣٣)

ثم استمر الأمر على ذلك ، ثم اقتصر إلى ان الازار الذى تكسى به الكعبة فى عاشوراء ، ويلصق بالديباج الأحمر الذى تكسى به يوم التروية لا يفى إلى تمام السنة ، وانه يحتاج إلى ان يجدد لها إزار على عيد رمضان ، مع قميص الديباج الابيض الذى تكسى به فى العيد ، فامر أن تكسى إزارا آخر باخر عيد رمضان .(٣٤)

وفى خلال القلاقل التى نشبت فى هذا العصر نجد ان (ابا السرايا السرى بن منصور الشيبانى) قد بعث (الحسين ابن الحسن الأفطس) إلى مكة فى سنة تسع وتسعين ومائة لما ظهر امره ، فدخل مكة ، فلما كان فى المحرم من هذه السنة نزع الحسين كسوة الكعبة ، وكساها كسوة اخرى كان قد انفذها (ابوالسرايا) من الكوفة من القز(٣٥)

وفى عهد (المامون) شاهد (الفاكهى) كسوة للكعبة المشرفة ، قال عنها : ورايت شقة من قباطى مصر فى وسطها ، إلا انهم كتبوا فى اركان البيت بخط دقيق اسود « مما امر به امير المؤمنين المامون سنة ست ومائتين . »(٣٦)

وفى سنة ٢٤٠هـ رفع إلى الخليفة العباسى (جعفر المتوكل على الله) ان إزار الديباج الاحمر يبلى قبل هلال رجب من مس الناس وتمسحهم بالكعبة ، فزادها إزارين مع الازار الأول ، فاذال قميصها الديباج الأحمر واسبله حتى بلغ الأرض ، ثم جعل الازار فوقه ، فى كل شهرين إزار .

ثم نظر الحجبة فإذا الازار الثانى لا يحتاج إليه ، فوضع فى تابوت الكعبة ، وكتبوا إلى (المتوكل) أنه يكفى إزار واحد مع ما أذيل من قميصها ، فصار يبعث بإزار واحد ، فتكسى به بعد ثلاثة أشهر ، ويكون الذيل ثلاثة أشهر . ثم فى سنة ٢٤٣هجرية أمر (المتوكل) بإزالة القميص القباطى حتى بلغ الشاذوران الذى تحت الكعبة .

قال (الماوردى) : ثم كسا المتوكل أساطينه الديباج ، وقد عدت الكساوى التى كست بها الكعبة من سنة ٢٠٠ إلى سنة ٢٤٤ فإذا هى ١٧٠ ثوبا[٣٧]

ومن أكثر أكسية الكعبة المشرفة فى العصر العباسى وصفا وإسهابا عند من شاهدوها كانت تلك الكسوة التى وصفها الرحالة العربى الأندلسى (ابن جبير) خلال حجه فى عام ٥٧٩ هجرية ، حيث تناولها بالوصف الدقيق فى ثلاث مواضع من كتاباته عن رحلاته الشهيرة .

لقد وصفها فى المرة الأولى ، فقال : « وظاهر الكعبة كلها ، من الأربعة جوانب ، مكسو بستور من الحرير الأخضر ، وسداها قطن ، وفى أعلاها رسم بالحرير الأحمر ، فيه مكتوب : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة » الآية ، وإسم الامام الناصر لدين الله فى سعته قدر ثلاث أذرع يطيف بها كلها . قد شكل فى هذه الستور من الصنعة الغريبة التى تمطره أشكال محاريب رائقة ، ورسوم مقروءة مرسومة بذكر الله تعالى ، وبالدعاء للناصر العباسى المذكور الآمر بإقامتها ، وكل ذلك لا يخالف لونها . وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون سترا ، وفى الصفحين الكبيرين منها ثمانية عشر ، وفى الصفحين الصغيرين ستة عشر ، وله خمسة مضاو ، وعليها زجاج عراقى بديع النقش ، أحدها فى وسط السقف ، ومع كل ركن مضوى . والواحد منها لا يظهر لأنه تحت القبو المذكور بعد وبين الأعمدة أكواس من الفضة عددها ثلاث عشرة ، وإحداها من ذهب » [٣٨]

ووصفها فى المرة الثانية ، فقال : « وكسوة الكعبة المقدسة من الحرير الأخضر حسبما ذكرناه ، وهى أربع وثلاثون شقة فى الصفح الذى بين الركن اليمانى والشامى منها تسع ، وفى الصفح الذى يقابله بين الركن الأسود والعراقى تسع أيضا ، وفى الصفح بين اليمانى والأسود ثمانى أيضا . قد وصلت كلها فجاءت كانها ستر واحد يعم الأربعة جوانب » .

وقد احاط بها من أسفلها تكفيف مبنى بالجص ، فى ارتفاعه أزيد من شبر ، وفى سعته شبران أو أزيد قليلا ، فى داخله خشب غير ظاهر ، وقد سمرت فيه أوتاد حديد فى رؤوسها حلقات حديد ظاهرة ، قد أدخل فيها مرس من القنب غليظ مفتول ، واستدار بالجوانب الأربعة ، بعد أن وضع فى أذيال الستور شبه حجز السراويلات ، وأدخل فيها ذلك المرس ، وخيط عليه بخيوط من القطن المفتولة الوثيقة ، ومجتمع الستور فى الأركان الأربعة مخيط إلى أزيد من قامة ، ثم منها الى أعلاها تتصل بعرى من حديد تدخل بعضها فى بعض » .

« واستدار أيضا بأعلاها ، على جوانب السطح ، تكفيف ثان ، وقعت فيه أعالى الستور فى حلقات حديد على تلك الصفة المذكورة ، فجاءت الكسوة المباركة مخيطة الأعلى والأسفل ، وثيقة الأزرار ، لا تخلع إلا من عام إلى عام عند تجديدها . فسبحان من خلد لها الشرف إلى يوم القيامة لا إله سواه »[٣٩]

وفى المرة الأخيرة وصف (ابن جبير) كسوة الكعبة المشرفة ، فقال : « وفى يوم السبت ، يوم النحر المذكور ، سيقت كسوة الكعبة المقدسة ، من محلة الأمير العراقى إلى مكة ، على أربعة جمال . تقدمها القاضى الجديد بكسوة الخليفة السوداوية ، والرايات على رأسه ، والطبول تهر وراءه » .

« فوضعت الكسوة فى السطح المكرم أعلى الكعبة . فلما كان يوم الثلاثاء ، الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور ، اشتغل الشيبيون بإسبالها خضراء يانعة تقيد الأبصار حسنا ، فى أعلاها رسم أحمر واسع ، مكتوب فيه فى الصفح الموجه إلى المقام الكريم - حيث الباب المكرم - وهو وجهها المبارك ، بعد البسملة : « إن أول بيت وضع للناس ، الآية ، وفى سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له ، وتحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان بدوائر صفار بيض ، فيها رسم بخط رقيق يتضمن آيات من القرآن ، وذكر الخليفة أيضا » .

« فكملت كسوتها ، وشمرت أذيالها الكريمة ، صونا لها من أيدى الأعاجم وشدة اجتذابها ، وقوة تهافتها عليها وانكبابها ، فلاح للناظرين منها أجمل منظر ، كأنها عروس جليت فى السندس الأخضر . أمتع الله بالنظر إليها كل مشتاق إلى لقائها ، حريص على المثول بفنائها ، بمنه »[٤٠]

وعند أفول نجم الدولة العباسية كانت ستائر كسوة الكعبة المشرفة وهى تصارع تقلبات الأجواء من حولها بمثابة قراءة فى عالم الغيب لتاريخ دولة تلفظ النفس الأخير من عمرها .

قال (ابن أياس) عن تلك الفترة التى انحصرت ما بين عامى ٦٤٨ و٦٥٥ هجرية . إبان سلطنة الملك المعز (عز الدين أيبك التركمانى) على مصر يؤيد ذلك الاعتقاد فى عالم قراءة التواريخ الغيبية للدول ، ما نصه :

« ومن الحوادث فى أيام الملك المعز (عز الدين أيبك) ، أن فى أوائل دولته ، جاءت الأخبار من مكة ، أن فى يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة ، قام بمكة أرياح عاصفة عظيمة ، فمزقت أستار الكعبة الشريفة ، فما سكن الريح إلا والكعبة عريانة ، وزال عنها الكسوة السوداء ، ومكثت واحد وعشرين يوما ليس عليها كسوة ، وكان هذا فألا لزوال دولة بنى العباس ، فما عن قريب حتى جاء هولاكو ، وأخرب بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم بالله ، وزالت دولة بنى العباس من بغداد »[٤١]

ومع انتهاء دولة بنى العباس انتهى تقريبا دورها الحضارى فى كساء الكعبة

المشرفة ، وبدأت دول أخرى تنافسها هذا الشرف العظيم ، من المشرق ومن المغرب ، وخاصة مصر التى ظهرت قوتها تبزغ إلى الوجود وتنفصل عن التبعية للدولة العباسية ، ويصبح لها الكيان المستقل المنفرد .

ولقد كان لعصر الدولة العباسية تأثيره الكبير والبعيد فى تحديد وتطوير شكل كسوة الكعبة المشرفة ، سواء من ناحية النسيج أو من ناحية اللون والذى تغير كثيرا فيما قبل مجىء دولة بنى العباس .

وهذا الدور الذى لعبه العباسيون فى تطوير صناعة النسيج انتج أنواعا متعددة من المنسوجات التى تم نسجها فى دور الطراز الخاصة ، وكذلك دور الطراز العامة فى مدينة السلام ، وغيرها من مراكز النسيج الخاصة بدولة بنى العباس ، وكذلك كان لدور الطراز فى بغداد أهمية كبرى فى ذلك ..

وبآخر كسوة عباسية للخليفة الناصر تحددت الألوان لكساء بيت الله الحرام فى اللون الأسود ، واستمر ذلك من بعد ، إلى أن انقرضت الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هجرية ، وظهرت قوى جديدة ودول أخرى ورثت دورها ، فقامت به على النحو الذى سنراه .

كسوة الكعبة المشرفة فى عهد الدولة الفاطمية :[٤٢]

على الرغم من أن أمر كساء الكعبة المشرفة لم يقم به الامام (على بن أبى طالب) ، نظرا للقلاقل العديدة التى عرضت لفترة خلافته ولم تمكنه من أداء ذلك ، إلا أن الدولة الفاطمية المتشيعة للامام (على بن أبى طالب) وآله حظيت فى فترات عدة بالاهتمام بكساء بيت الله الحرام .

فقد حكى (المؤيد) صاحب حماه فى تاريخه أن الفاطميين فى عهد خليفتهم الثانى (العزيز بالله بن المعز لدين الله) ، فى إمارة (أبى الحسن جعفر) من السلمانيين على مكة فى سنة ٣٨١ هجرية قد كسوا الكعبة المشرفة بكسوة بيضاء اللون[٤٣]

وقال (المسبحى) فى حوادث سنة ٣٨٤ هجرية : وفى ذى القعدة ورد (يحيى بن اليمان) من تنيس ودمياط والفرما بهديته ، وهى أسفاط وتخوت وصناديق مال ، وخيل وبغال وحمير ، وثلاث مظال وكسوتان للكعبة .[٤٤]

وقال (ابن اياس) ضمن حوادث سنة ٣٨٧ هجرية فى عهد (الحاكم بأمر الله) الفاطمى : « إن جماعة من العربان وثبوا على كسوة الكعبة وانتهبوها جميعا ، فكسيت الكعبة فى تلك السنة الشنفاص الأبيض ، وهذا من الغرائب ، فإن الكعبة ما كسيت شنفاص قط إلا فى زمن الحاكم .[٤٥]

ولم يذكر لنا (ابن اياس) عن هؤلاء العربان شيئا عن كونهم من المصريين او من غير المصريين ، وإن كان قد اثبت لنا فى التاريخ اثرا حميدا قام به الخليفة الفاطمى .

ولم تكن هذه الكسوة هي الكسوة الوحيدة التي أرسلها هذا الخليفة الفاطمي لكساء بيت الله الحرام ، فقد ذكر (الحافظ أبوالطيب الفاسي) في كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » أن (الحاكم بأمر الله) الفاطمي بعث بكسوة للكعبة المشرفة في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة[٤٦]

وفي سنة ٤٢٣ هجرية بعث الخليفة الفاطمي (الظاهر لاعزاز دين الله) بكسوة للكعبة المشرفة .[٤٧] .

وخلال الفترة التي بين سنتي ٤٣٧ و٤٤٤ هجرية زار الرحالة الفارسي (ناصر خسرو) في رحلاته كل من سوريا وفلسطين والحجاز ، وعاين بنفسه الكسوة التي كانت على الكعبة المشرفة ، ووصفها قائلا : « كانت الكعبة مضاءة بأربع شبابيك موضوعة في الزوايا الأربع ، ومغشاه بزجاج شفاف ، ليمنع المطر من أن يتخلل الكعبة . أما الكسوة فكانت بيضاء عليها شريطان بعرض ذراع ، وارتفاع الكسوة بين الشريطين نحو عشرة أذرع ، وفوق وتحت هذان الشريطين توجد أجزاء بنفس السمك والمقاس ، وبهذا الوضع بدت الكعبة كأنها مقسمة إلى ثلاثة أقسام كل قسم عشرة أذرع تقريبا وفق تقديري الشخصي ، وعلى وجوه الكسوة الأربع رأيت محاريب تم نسجها بالحرير الملون ، وعليها زركشة بالخيوط الذهبية بالقصب . وعلى كل واجهة توجد محاريب مزركشة ، ويبدو أن المحراب الأوسط هو الأكبر ، أما الاثنان الآخران فمقاسهما أقل من الأوسط ، وكان عدد المحاريب المرسومة على الأجناب الأربعة كلها يبلغ اثنى عشر محرابا . »[٤٨]

وفي عهد الدولة الفاطمية وصلت إلى الكعبة المشرفة كساوى لها من جهات أخرى غير بغداد والقاهرة ، مثل صنعاء وبلاد العجم أو مراكش .

ففي عام ٤٥٥ ذكر لنا (ابن تغرى بردى) عن كسوة للكعبة المشرفة من اليمن ، فقال : « دخل الصليحي إلى مكة ، واستعمل الجميل مع أهلها ، وأظهر العدل والاحسان ، وطابت قلوب الناس له ، وكسا البيت الحرام بثياب بيض »[٤٩]

ولم تكن هذه الكسوة اليمنية لتمثل غير اليمن ، بعد أن أزال (الصليحي) قوة وسلطان قبضة الدولة العباسية على اليمن ، وانتمى الى الحاكم الفاطمي في مصر الخليفة (المستنصر بالله معد) ، وخطب باسمه في المساجد اليمنية ودعا للخليفة الفاطمي في هذه المساجد .

وذكر (ابن الصابي) ضمن حوادث عام ٤٦٦ هجرية أنه : « ورد إلى مكة إنسان أعجمي يعرف بسلار من جهة جلال الدولة ملكشاه ، ودخل وهو على بغله بمركب ذهب ، وعلى رأسه عمامة سوداء ، وبين يديه الطبول والبوقات ، ومعه للبيت كسوة ديباج أصفر ، وعليها اسم محمود بن سبكتكين ، وهي من استعماله ، وكانت مودعة بنيسابور من عهد محمود بن سبكتكين عند إنسان يعرف بأبي القاسم الدهقان ، فأخذهما الوزير نظام الملك منه وانفذها مع المذكور . »[٥٠]

وكسا الكعبة المشرفة في نفس العام (أبوالنصر الاستراباذي) كسوة بيضاء من عمل الهند ، وكساها الحبرات وغيرها الشيخ (أبوالقاسم رامشت) صاحب الرباط بالمغرب وذلك في سنة ٥٣٢ هجرية ، وكانت كسوته بثمانية عشر ألف دينار مصرية على ما قال (ابن الأثير) ، وقيل : بأربعة آلاف دينار .[٥١]

وهناك بعض المصادر الأخرى قد ذكرت أن (أبا القاسم رامشت هذا من تجار الفرس الأثرياء ، وقد قام بكساء الكعبة المشرفة في هذه السنة عندما انقطع إرسال كسوة الكعبة المشرفة بسبب خلافات نشبت بين الملوك السلجوقية ، فأرسل للكعبة الحبرات وكل ما وجد إليه السبيل ، فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر ألف دينار مصرية »[٥٢]

وقد ذكر المؤرخون أن الكعبة المشرفة قد عريت من كسوتها سنة ٦٤٢ هجرية لتقطع كسوتها من ريح شديدة ، فأراد الملك (المنصور) وهو صاحب اليمن أن يكسوها ، فقال له شيخ الحرم : لا يكون هذا إلا من جهة الديوان العزيز - يعني الخليفة العباسي - ولم يكن عند شيخ الحرم شيء ، فلأجل ذلك اقترض ثلاثمائة مثقالا ، واشترى بها ثيابا بيضاء وصبغها بالسواد ، وركب عليها الطراز القديم الذي كان في كسوة الكعبة المشرفة ، وكساها بذلك .[٥٣]

وقد أعاد ابنه الملك المظفر (يوسف بن المنصور) طلب أبيه في أن يكسو الكعبة المشرفة في سنة ٦٥٩ هجرية ، وكانت مصر قد كسرت شوكة التتار في هجمتها الشرسة التي محت سلطان الدولة في بغداد . فذهب الملك اليمني إلى الحجاز ، « فلما قارب مكة خرج عنها الشريفان (إدريس بن قتادة) و (أبونمي بن أبي سعد) خوفا منه ، ثم دخل مكة في عساكره وجنوده ملبيا ، خاشعا ، متضرعا ، عاري الرأس والجنب ، حتى قضى حق الطواف ، ثم تقدمت العساكر والجيوش فحصت في الحجون ، ولم يزل بمكة إلى أن قضى ما يجب عليه من الوقوف بعرفة ، فوقف عند الصخرات ، وطلعت أعلامه وأعلام صاحب مصر مضمومة ، فقال له الأمير (عز الدين بن الامام) : هلا أطلعت أعلامك قبل أعلام المصريين ؟ فقال : أتراني أخفي أعلام من كسر ملك التتار وعساكره بالأمس وأقدم أعلامي لأجل حضوري وغيبته ؟ لا أفعل هذا أبدا ، وكسا الكعبة الشريفة ، ولم يكسها ملك قبله بعد الخلفاء العباسيين ببغداد ، واستمر يكسوها سنين مع ملوك مصر ، وإنما يجعل كسوته على الكعبة بعد سفر الحاج المصري من مكة مراعاة لصاحب مصر ، وانفرد بكسوتها في بعض السنين . »[٥٤]

ثم جاء عصر انفراد مصر بكسوة الكعبة المشرفة وهو العصر المملوكي .

□ □ □

كسوة الكعبة فى عصر سلاطين المماليك :(٥٥)

امتدت فترة الحكم المملوكى نحو ثلاثة قرون إلا ربعا ، وهى فترة - بلا شك - طويلة تقارب فترة حكم الفاطميين لمصر وتزيد عليها بخمس سنين ، لكنها كثيرة وحافلة عنها فيما يخص حوادث التاريخ التى تطوف حول كساء بيت الله الحرام .

مع الانفاس الأولى لهذا العصر نذكر أن ملك اليمن (المظفر يوسف ابن المنصور) فى سنة ٦٥٩ هجرية حج الى الكعبة المشرّفة بحرا ، وكساها من داخلها ، ونثر عليها الذهب والفضة ، وعمل لها بابا وقفلا ، ثم ودع الكعبة المشرّفة والدموع ملء عينيه الى بلاده .(٥٦)

كانت هذه الكسوة هى الأولى والأخيرة التى يرسلها أحد منْ غير مصر فى عصر سلاطين المماليك .

كانت الرءوس كلها تتطلع الى الظفر بكساء بيت الله الحرام ، من اليمن والعراق ، بل ومن بلاد فارس والدولة العثمانية الناشئة فى القوة والتكوين ، لكن هذا التطلع يعد شيئا والواقع شىء آخر .

فلم تكن مصر لترضى أن ينال احد هذا الشرف سواها ، حتى وان شرعت فى وجهها اسنة رماح او فُتلت عضلات ..!

فى عام ٧٥١ هجرية أراد الملك اليمنى (المجاهد) أن ينزع كسوة الكعبة المصرية ويكسوها كسوة من عنده باسمه ، فلما علم بذلك أمير مكة أخبر المصريين ، فقبضوا عليه ، وفى ذلك قال مؤذن الكعبة شعرا :(٥٧)

يا راقد الليل مسرورا باوله .. إن الحوادث قد يطرقن اسحارا
فإن امنت بليـل طاب اوله .. فرب آخر ليـل اجـج النـارا

وتاججت النار بالفعل فوق جبل عرفات فى حرب ضروس بين المصريين واهل اليمن ، ولم تخمد إلا وملك اليمن مصفّد فى الحديد المصرى ، وأتى به الى القاهرة مكبلا ..!

وحينما عاد امير الحج المصرى الى القاهرة ذهب لمقابلة السلطان (الناصر حسن بن قلاوون) بالقلعة ليطلعه على نتائج الأمور .

يقول (ابن ایاس) شارحا ما تم فى هذه الحادثة : « .. فلما طلع الى القلعة ، عرض على السلطان الملك المجاهد ، صاحب اليمن ، فلما مثل بين يدى السلطان امر بنزع قيوده ، واطلقه ، ورسم له بالعود الى بلاده ، ثم ان السلطان ارسل معه الأمير قشتمر المنصورى ، احد الأمراء العشرات ، ليوصله الى مكة ، فلما خرج من مصر ، ووصل الى الينبع ، وثب هنك ، ومن معه من جماعته على الأمير قشتمر ، الذى خرج صحبته ، واراد قتله ، فلما جرى ذلك ، قبض امير الينبع على الملك المجاهد ، ووضعه فى الحديد ، وسلمه الى الأمير قشتمر ، فرجع به الى القاهرة ،

فلما علم السلطان بذلك تغير خاطره على الملك المجاهد ، وأرسله وهو مقيد الى ثغر الاسكندرية ، واحتاط على موجوده »(٥٨)

وعلى الرغم من وأد المصريين لرغبات ملك اليمن فى كساء بيت الله الحرام إلا أن تلك الرغبة ظلت حبيسة فى صدور حكام اليمن ، يتمنون تلك اللحظة التى تواتيهم لتحقيق رغبتهم وأمنيتهم الغالية .

ولما جاءت هذه اللحظة كان قد مرّ نحو نصف قرن انتظرها اليمنيون بفارغ الصبر ، ففى عام ٩٨٠ هجرية : « كان أمير الحاج المصرى بهادر وصحبته أمير مجلس والأمير قره دمرداش الأحمدى ، ولما وصل الحاج الى مكة بلغهم قدوم محمل اليمن وكسوة الكعبة ، جهّز ذلك صاحب اليمن اسماعيل بن الأفضل عباس بن المجاهد ، فمنع الأمير قره دمرداش الأحمدى المحمل من الدخول وحجاج اليمن »(٥٩)

وعادت الكسوة اليمنية الى جبال اليمن ، وماتت تطلعات اليمنيين فى كساء بيت الله الحرام الى الأبد .

وفى الحقيقة لم تكن آمال اليمنيين تشرئب وحدها فى المنطقة العربية أو الاسلامية ، بل كانت هناك رءوس تحلم بمثل هذا الشرف الرفيع كما قلنا مٍن قبل .

ففى عام ٧١٨ هجرية نست بغداد انها لم تعد عاصمة الخلافة الاسلامية ، ولم تع الخريطة السياسية الجديدة للمنطقة العربية بعد اندحارها أمام التتر وبزوغ نجم عصر جديد سطع فى مصر على أيدى المماليك .

فى هذا العام قدم من العراق محمل الى مكة وكسوة للكعبة عراقية ، فلم يُمَكّنوا من الكسوة(٦٠)

ولم يذكر لنا رواة التاريخ من هؤلاء الذين لم يمكنوا العراقيين من وضع كسوة الكعبة على جدرانها ، هل هم المصريون أو أهل الحجاز ؟ وان كان سياق حوادث التاريخ تمكننا من ان نستنتج أن السيوف المصرية كان لها الدور الكبير فى توجيه دفة الأمور وحسم الخلاف ..!

نفس الحدث تكرر مرة أخرى فى عصر سلاطين المماليك ، ولكن بعد نحو ستين عاما من الحادثة الأولى ..!

يقول (ابن اياس) فى حوادث شهر ذى الحجة ٨٧٧ هجرية : « وفيه وصل مبشر الحاج ـ وهو الرسول الذى يسبق مجىء قافلة الحج للاطمئنان على أحوال الحجاج ـ واخبر بأن لما وصل المحمل العراقى ، ودخل الى المدينة الشريفة ، كان امير ركبهم شخصا يقال له رستم ، وصحبته قاض يقال له أحمد بن دحيه ، فضيقوا على قضاة المدينة ، وأمروهم بأن يخطبوا فى المدينة باسم الملك العادل حسن الطويل ، خادم الحرمين الشريفين ، فلما خرجوا من المدينة وقصدوا التوجه الى مكة ، فكاتبوا أهل المدينة أمير مكة بما وقع ، فخرج اليهم الشريف

محمد بن بركات ولاقاهم من بطن مرو ، قبل ان يدخلوا الى مكة وقبض على رستم امير ركب المحمل العراقى ، وقبض على القاضى الذى صحبته ، وعلى جماعة من أعيانهم ، واودعهم فى الحديد ليبعث بهم الى السلطان ، ثم اطلق بقية من كان فى ركبهم من الحجاج ولم يتعرض لهم »[٦١]

وحينما عاد ركب الحجاج الى القاهرة « احضروا صحبتهم رستم امير الحاج العراقى ، والقاضى الذى بعث بهما حسن الطويل ، وصحبتهما كسوة للكعبة ، وامر اهل المدينة ومكة أن يخطبا فيهما باسم الملك العادل حسن الطويل ، فرسم السلطان بسجن رستم والقاضى فى البرج الذى بالقلعة ، فسجنا »[٦٢] ومن بلاد فارس برزت مطامع او مطامح ملكها فى كساء بيت الله الحرام ، والظفر بذلك الشرف الرفيع من بين انياب سلاطين العصر المملوكى ، ولم تكن تلك المطامع او المطامح قد حدثت ذات مرة وانتهى الأمر ، وانما كانت الأمور يصحبها الالحاح فى الطلب والاستئذان دون فرض سياسة القوة الجبرية وانفتال العضلات .

فى شهر المحرم سنة ٨٣٨ هجرية كانت قافلة الحج المصرى قد عادت الى القاهرة تحمل اخبارا لا تسر عدوا او حبيبا ، فقد غمر مكة السيل العرم ، واحدث بسقف الكعبة المشرَّفة ثقبا .

فى اثناء ذلك وفد الى القاهرة رسول (شاه روخ) ملك العجم بهدية او هدايا للسلطان المملوكى الأشرف برسباى ، منها ـ كما يروى ابن اياس ـ « نحوا من ثمانين شقة اطلس مقصّب ، والف قطعة من الفيروز والبلخش ، فقوّم ذلك بثلاثة آلاف دينار ، وحضر صحبة القاصد ـ اى الرسول ـ كسوة للكعبة ، وسال الاذن فى قبول ذلك »[٦٣]

استطاع ملك العجم (شاه روخ) وهو ابن (تيمورلنك) ان ينفذ بادب وبثقل الهدايا التى تذهب بالعقول ، ويبدو ان العقول قد ذهب بعضها ، ولم يستطع السلطان (الأشرف برسباى) ان يتخذ قرارا حاسما فى مسالة قبول او رفض ان يقوم احد من غير المماليك فى مصر بكساء بيت الله الحرام ، وحينما حار عقل السلطان وضرب اخماسا فى أسداس طلب المشورة ، على الرغم من تلك الهدايا التى تزغلل العيون ..!

قال (ابن اياس) فى حوادث شهر صفر سنة ٨٣٨ هجرية : « وفيه رسم السلطان بعقد مجلس فى القصر ، فاجتمع به القضاة الأربعة ، وسبب ذلك أن قاصد شاه روخ احضر كسوة للكعبة المشرَّفة ، وذكر انه نذر بذلك ، فاستفتى السلطان فى هذا الامر القضاة الأربعة ، فلما طال بينهم الجدال ، اجاب قاضى القضاة بدر الدين العينى بان نذره لا ينعقد ، واجاب العلّامة ابن حجر بأن ذلك لا يجوز إلا لمن يكون ناظرا على الحرمين الشريفين ، وطال الكلام فى ذلك ، وانفض المجلس على جواب البدر العينى »[٦٤]

كان رسل او قصّاد ملك العجم (شاه روخ بن تيمورلنك) في انتظار رد السلطان ، وكانوا موقنين ان السلطان المملوكي لن يصمد طويلا امام النفائس التي بعث بها ملكهم اليه على سبيل الرشوة المقنعة ، لكنهم صدمتهم ردود السلطان .

يقول (ابن اياس) : « وفيه عاد قصّاد شاه روخ اليه ، وكتب له الجواب عن كسوة الكعبة المشرّفة التي ارسلها ، بان العادة القديمة جرت بان الكعبة المشرّفة لا تكسى إلا ممن يكون ناظرا على الحرمين الشريفين ، وردّ عليه الجواب بذلك ، والهدية التي ارسلها ، وكسوة الكعبة المشرّفة ، ورجع من غير طائل »[٦٥]

اضمر ملك العجم (شاه روخ بن تيمورلنك) الغيظ من جراء رد السلطان المملوكي المصري (الاشرف برسباى) ، فتعاديا ، غير انه انتظر الى ما بعد وفاة السلطان المملوكي المصري (الأشرف برسباى) ، وخلع ابنه السلطان (العزيز يوسف) ، وتولية السلطان (الظاهر جقمق) امور السلطنة ، فاعاد الطلب من جديد ، بعد عشر سنوات كاملة دون ياس .

يقول (ابن اياس) في حوادث شهر شعبان سنة ٨٤٨ : « وفيه قدم قاصد من عند شاه روخ بن تيمورلنك ، وصحبته هدية للسلطان ، ومع الهدية كسوة للكعبة ، فامر السلطان بان يخفيها عن الأمراء وارباب الدولة ، فلما طلع بها مع الهدية ، دخل بها الى البحرة ، فتسامع بها الأمراء ، فشق عليهم ذلك ، ثم ان طائفة من المماليك الجلبان نزلوا الى الدار التي نزل بها القاصد ، فنهبوا كل ما فيها ، هم والسواد الأعظم من العوام ، ولم يشعر السلطان بشيء من ذلك ، وكان الذى نُهِبَ للقاصد نحو من عشرة آلاف دينار »[٦٦] وصحيح ان ما حدث لرسول ملك العجم (شاه روخ) كان فتنة كبيرة ارتجت لها الأرض ، على حد تعبير ابن اياس ، لكن رد فعل العامة من الناس كان عنيفا تجاه ذلك الرسول ، الذى جاء ينتزع من المصريين شرفا جليلا وعظيما ، وهو اختصاصهم بكساء الكعبة المشرّفة .

قال (ابن اياس) في رد فعل العامة من الناس : « وقد حصل للقاصد من العوام غاية البهدلة ، من السبّ والرجم وغير ذلك ، وتشوش السلطان غاية التشوش ، ولولا انه كان دينا لرسم بقتل سائر العوام ، ولكنه دينه رده عن ذلك ، وكان العوام ظالمة في هذه الواقعة ، فإنهم فعلوا شيئا من غير مرسوم السلطان ، وقد اخطاوا في ذلك كل الخطا »[٦٧]

إن نظرة (ابن اياس) الى رد فعل العامة كانما هي نظرة حاكم الى تصرف احد من رعاياه خرج في تصرفه عن حدود قانونه ، ولكن العامة رأت في ذلك جريمة فعلها ملك العجم فجاء تصرفهم ورد فعلهم امام رسوله فحدث له « غاية البهدلة » كما عبر عن ذلك مؤرخنا ابن اياس .

غير ان السلطان (الظاهر جقمق) لم يكن امام هذه المشكلة يستطيع ان يتخذ

قراره الحاسم ، فظل يفكر طويلا ، بالرغم من ردود الافعال الغاضبة من حوله ، ومن الشارع ، ثم تفتق ذهنه عن حل وسط ، وهو ان يرسل كسوة الكعبة المشرّفة التي بعث بها ملك العجم الى مكة ، ولكن ليكسو بها باطنها وليس ظاهرها ، اى ان تظل الكسوة في داخل الكعبة المشرّفة لا يراها احد ، كما انه ارسلها الى مكة في السر ، لا من رأى ولا من سمع ..!

هذه الكسوة الأعجمية ظلت في داخل الكعبة المشرّفة مدة ثمان سنوات الى ان اصدر السلطان (الظاهر جقمق) امرا بنزعها ، واستبدالها باخرى مصرية تحمل اسمه هو . طبعا لم يتم ذلك سوى بعد وفاة ملك العجم (شاه روخ) بنحو سنتين كاملتين .. ![٦٨]

كل هذه التصرفات شكلت في العصر المملوكي نوعا من التابو او التحريم امام كل من يفكر في القيام بمحاولة كساء بيت الله الحرام من غير المصريين ، سواء بفرض القوة والاجبار او بالتفاهم واعمال العقل والسياسة ، وبقي الأمر حكرا على مصر وحدها لا يشاركها فيه اى شريك . منذ مفتتح هذا العصر ، وبمجرد توطيد اركان الدولة المملوكية وفراغها من حروبها مع التتار القادمين الى المنطقة العربية كالجراد قامت مصر بدورها دون تقصير حيال كسوة الكعبة المشرّفة .

وكان السلطان (الظاهر بيبرس) اول من ارسل كسوة للكعبة المشرّفة من سلاطين العصر المملوكي .

قال البعض ان ذلك تم في عام ٦٦١ هجرية[٦٩]

وقال آخرون ان ذلك تم عند قيام السلطان (الظاهر بيبرس) باداء فريضة الحج عام ٦٦٧ هجرية[٧٠]

جهّز السلطان (الظاهر بيبرس) قافلة الحج بمحملها الشهير ، غير ان الأمور لم تمش وفق ما كان ينشد السلطان .

يقول (الجبرتي) واصفا ذلك : « فلما وصلوا الى مكة منعوهم من دخول المحمل ومن كسوة الكعبة ، فقال امير المحمل لامير مكة : اما تخاف من الملك الظاهر بيبرس ؟ فقال : دعه ياتيني على الخيل البلق . فلما رجع امير المحمل واخبر السلطان بما قاله امير مكة ، جمع له في السنة الثانية اربعة عشر الف فرس ابلق ، وجهزهم صحبة امير الحاج ، وخرج بعدهم على ثلاث نوق عشاريات ، فوافاهم عند دخولهم مكة وقد منعهم التتار وامير مكة ، فحاربوهم فنصرهم الله عليهم ، وقتل ملك التتار وامير مكة ، طعنه السلطان بالرمح وقال له : انا الملك الظاهر ، جئتك على الخيل البلق . فوقع الى الأرض ، وركب السلطان فرسه ، ودخل الى مكة ، وكسا البيت ، وعاد الى مصر[٧١]

ومن المؤكد ان هذه الكسوة للكعبة المشرّفة تلتها كسوات اخرى بعث بها سلطان مصر المملوكي الظاهر بيبرس ، ولكن كم بلغ عددها ؟ الله أعلم .

فقد ذكر صاحب كتاب « درر الفوائد المنظمة » انه في سنة ٦٦٨ هجرية : « حج

بالناس أمير يقال له التنيسى ، وجاء بكسوة الكعبة من جهة الظاهر صاحب مصر »[٧٢]

وذكر (ابن اياس) فى حوادث سنة ٦٧٥ هجرية ان هناك كانت توجد كسوة للكعبة المشرَّفة طافت فى موكب كبير بالقاهرة ، وذلك قبل أن ترسل فى قافلة الحج الى مكة المكرمة[٧٣]

ويبدو من وراء سطور التاريخ ان بعض الرءوس حاولت أن تتطلع الى أن تنال شرف كساء بيت الله الحرام ، بعيدا عن مصر ، فى عصر السلطان (المنصور قلاوون) مما جعل سلطان مصر يرسل الى أمير مكة معاتبا ، لكى يوصد الباب أمام تلك الرءوس .

ففى أخبار عام ٦٨١ هجرية نجد ان أمير مكة حلف للسلطان (المنصور قلاوون) يمين الولاء والطاعة له ولولده ، والتزامه بتعليق الكسوة المصرية دون غيرها فى كل موسم[٧٤]

وفى عصر ابنه السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) كانت هناك كسوة مصرية للكعبة المشرَّفة ، استطاع الرحالة العربى (ابن بطوطة) أن يرصدها فى رحلته عام ٧٢٦ هجرية مرتين .

قال فى المرة الأولى : « .. وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض . وهى تتلألأ عليها نورا واشراقا ، وتكسو جميعها من الأعلى الى الأرض »[٧٥]

وفى المرة الأخيرة وصفها فى اسهاب ، فقال : « .. وفى يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى الى البيت الكريم فوضعت فى سطحه . فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر اخذ الشيبيون (بنى شيبة) فى اسبالها على الكعبة الشريفة » .

« وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان ، وفى اعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ، ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأن الله بكل شىء عليم) »

ويستطرد (ابن بطوطة) فى وصفها قائلا : « وفى سائر جهاتها طرز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن ، وعليها نور لائح مشرق من سوادها . ولما كسيت شمرت أذيالها صونا من أيدى الناس »[٧٦]

وفى عام ٧٣٨ هجرية وصف (ابن فضل الله العمرى) كسوة مصرية للكعبة المشرَّفة ايام سلطنة (الناصر محمد بن قلاوون) فقال : « لما حججت فى سنة ٧٣٨ صعدت أنا وامراء الركب المصرى لتلبيس الكعبة الشريفة ، حتى كنا على سطحها ، فرأيته مبلطا بالمرمر والرخام الأبيض ، ومن جوانبه جدر قصار فيها

حلق لمرابط الستور ، تجر فيها الكسوة بحبال ، ثم تربط في تلك الحلق » .
وقال : « وأنا أحمد الله إذ بيدي توليت خلع الكسوة العتيقة عنها وتلبيسها الكسوة الجديدة »[٧٧]

ولم يقف المؤرخون كثيرا عند كسوة الكعبة المشرفة التي بعث بها السلطان المملوكي (الناصر أحمد بن قلاوون) عام ٧٤٢ هجرية ، ربما بسبب اشتداد الفتن بين أمراء المماليك بعضهم وبعض .[٧٨] لكن هؤلاء المؤرخين وقفوا كثيرا عندما أوقف السلطان (الصالح اسماعيل بن قلاوون) ضيعة كاملة بالشرقية (هي الآن تتبع محافظة القليوبية) ، وهذه الضيعة تسمى (بيسوس) ، وجعلها مُرصدة على كسوة الكعبة المشرفة .[٧٩] ويقال ان هذا الوقف كان عبارة عن ثلاث قرى ، وليس قرية واحدة ، وهذه القرى هي : بيسوس وسندبيس وأبو الغيط ، وهي من قرى القليوبية ، اشتراها من بيت المال ووقفها على كسوتي الكعبة المشرفة والحجرة النبوية المطهرة بالمدينة المنورة سنة ٧٥٠ هجرية .[٨٠]

وبرغم هذا الوقف المرصود على كسوة الكعبة المشرفة فنجد من خلال التاريخ انه في عام ٧٧٥ هجرية قد كسيت الكعبة المشرفة كسوة قصيرة فوق كسوة أخرى بيضاء وسوداء ، فلما كان السادس عشر من ذي الحجة ، وبعد نحو أسبوع واحد أخرجت الكسوة وكسيت بها الكعبة من داخلها .[٨١]

وفي دولة السلطان (فرج بن برقوق) حدثت عدة تغيرات في زخارف كسوة الكعبة المشرفة .

قال العلامة (ابن فهد) يصف تلك التغيرات في سنة ٨١٠ هجرية : « وأحدث في كسوة الجانب الشرقي من الكعبة الشريفة جامات منقوشة بالحرير الأبيض مكتوب فيها (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) بالبياض ، ومنع ذلك بعد أربع سنين متوالية » .[٨٢]

ثم حدث تغير آخر وفي زخارف كسوة الكعبة المشرفة ، « ففي سنة ٨١٤ هجرية جعل وجهة الباب من الكسوة كمخا أزرق بجامات مكتوب فيها .. (والله العالم ما كان وما يكون) .

وفي سنة ٨١٩ جعلت الجامات المصنوعة من الحرير الأبيض في جميع الكسوة من تحت وإلى أسفل بعد أن انقطعت ٤ سنين واستمرت الجامات في كسوة الكعبة خمس سنين متولية بعد هذه ، ثم أزيلت وعُوِّض عنها جامات سود في سنة ٨٢٥ هجرية .[٨٣] وحينما طاف موكب المحمل بهذه الكسوة قبل ارسالها الى مكة لفتت اليها الأنظار في القاهرة في زمن السلطان (الأشرف سيف الدين برسباي) .

يقول (المقريزي) في وصف ذلك المشهد الذي احتشدت من أجله كثير من العوام والخواص : « وفي يوم الأثنين سادس عشرة (رجب سنة ٨٢٥ هجرية) أدير محمل الحاج بالقاهرة ومصر على ما جرت به العادة . وقد كثر الاعتناء بأمره ، وعُملت كسوة الكعبة في غاية الحسن ، بحيث لم يعمل مثلها فيما

أدركناه ، وولى عملها شرف الدين أبو الطيب محمد بن تاج الدين عبدالوهاب ابن نصر الله ناظر الكسوة ، لحسن مباشرته وعفته »[٨٤] وفى سلطنة السلطان (الأشرف اينال) سنة ٨٦٤ هجرية كانت كسوة الجانب الشرقى بيضاء بجامات صفر .[٨٥] أما فى سنة ٨٦٥ هجرية فكانت كسوة الجانب الشرقى والشامى بيضاء بجامات سود ، وفى الجامات السود بعض ذهب .[٨٦] وفى عام ٨٩٦ هجرية أرسل السطان (قايتباى المحمودى) الى مكة كسوة للكعبة المشرفة وكسوة لمقام سيدنا ابراهيم ، وأقام لذلك احتفالا عظيما فى شهر رجب ، وكان حاضرا رسول سلطان بنى عثمان ذلك الموكب .[٨٧]

وقبل مجىء الجيوش العثمانية غازية كانت هناك كسوات للكعبة المشرفة كل عام ترسل من القاهرة الى مكة فى عادة منتظمة ، وموكب كبير تسلط عليه كل الأنظار من كل اتجاه .[٨٨]

وقبل هجوم العثمانيين على مصر أطلقت اشاعة فى القاهرة فى شوال سنة ٩٢٢ هجرية أن العثمانيين سوف يرسلون الى مكة وصحبتهم كسوة للكعبة المشرفة ، غير انه لم يثبت صحة ذلك ، لذا سارع السلطان المملوكى (قانصوه الغورى) بإرسال الطواشى (مرهف) من البيبحر وصحبته كسوة الكعبة المشرفة ومستلزماتها الى مكة ، عن طريق ميناء الطور .[٨٩]

كل ذلك فى اللحظات الأخيرة قبلما يهب الاعصار المدمر القادم من الشمال ، فيسقط الورقة الأخيرة فى شجرة الحكم المملوكى بعدما جفت ويبست وانطرحت أرضا ، وداستها أقدام الغزاة العثمانيين الجدد مع النزع الأخير لأنفاس عام ٩٢٢ هجرية الموافق ١٥١٧ ميلادية .

كسوة الكعبة المشرَّفة فى العصر العثمانى :

حينما ودعت مصر عصر سلاطين المماليك ، واستقبلت عصرا جديدا تحت لواء العثمانيين استمرت مسيرتها فى كساء بيت الله الحرام ، ولم يمنعها مانع من اداء واجب وشرف وهبها الله به وخصها بهذا التشريف الجليل من ذى الجلال والاكرام سبحانه وتعالى .

وفى العام التالى للغزو العثمانى ، وفى يوم الاثنين ثانى عشر شهر رمضان عرض ملك الأمراء (خاير بك) كسوة الكعبة المشرفة ، والبرقع ، ومقام الخليل ابراهيم عليه السلام ، وكسوة لضريح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعدة ستور ، وكسوة لضريح الخليل ابراهيم بالقدس ، ومحملا ، وقد تناهوا فى زركشة برقع كسوة الكعبة المشرفة وملحقاتها على خلاف المعتاد ، وأقيم احتفال كبير بالقلعة من أجل هذه المناسبة .[٩٠]

ولم يكن هذا الاحتفال هو الأول والأخير بالكسوة ، وانما جرى احتفال ثان بعد أسبوع واحد من الاحتفال الأول .

قال (ابن أياس) يصف وقائع هذا الاحتفال : « وفى يوم الاثنين تاسع عشر شهر رمضان ، فيه خرج (الشهابى احمد بن الجيعان) نائب كاتب السر ، و(مصلح الدين) خاندرار ابن عثمان ، وخرج صحبتهما كسوة الكعبة الشريفة وهى محزومة محملة على الجمال ، وأشيع انهما يتوجهان من البحر الملح الى جدة ومن جدة الى مكة ، فكان لهما فى القاهرة موكب حفل ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، وخرج صحبتهما نحو من الفى عثمانى ، وقدامهم طبلان وزمران ورماة نفط ، وركب قدامهما الأمير (قايتباى) الدوادار الكبير واعيان جماعة من المباشرين . فلما شقوا من القاهرة رجّت لهم ، فخرجوا من باب النصر وتوجهوا الى الوطاق بالريدانية »[٩١]

كان الصرف على كسوة الكعبة المشرفة يتم من حاصل الأوقاف التى اوقفها السلطان المملوكى (الصالح اسماعيل) غير ان هذه الأوقاف لم تعد تكفى تكاليف عمل كسوة الكعبة المشرفة فخصص السلطان العثمانى (سليمان بن سليم الأول) وقفية سنة ٩٤٧ هجرية اوقف فيها عشرة قرى من قرى مصر لينفق من ريعها على كسوة الكعبة المشرفة وكسوة الحرم النبوى الشريف .

وقد قال فى هذه الوقفية بعد ديباجة طويلة تبين انه ظل متفكرا فى كلام الله سبحانه وتعالى ـ وناظرا ثواب الحج ، « وعلما بأن تعظيم الكعبة المستورة بالأستار الشريفة العالية وتشريفها فى الحج يوجب الجنة » ، ولذا فقد اوقف « جميع القرى الثلاث المسماة (بيسوس) وابو الغيث وحوض بقمص الواقعة بالولاية المصرية التى كان الحاصل منها فى السنة الواحدة مبلغ ٨٩٠٠٠ درهم »[٩٢]

ومنها جميع القرى السبع الجديدة الواقعة فى الولاية الشرقية بالديار المصرية :

اولها : قرية (سلكة) كان تحصل منها فى تلك السنة مبلغ ٣٠٤٩٤ درهما .

وثانيها : قرية (سيرو بجنجة) تحصل منها ٧١٨٢٠ درهما .

وثالثها : قرية (قريش الحجر) تحصل منها ٥١٣٠٤ درهما .

ورابعها : قرية (منايل وكوم رحان) تحصل منها ٣٧٨٤٠ درهما .

وخامسها : قرية (بجام) تحصل منها ١٤٩٣٤ درهما .

وسادسها : قرية (منية النصارى) تحصل منها ٦٠٨٥٨ درهما .

وسابعها : قرية (بطاليا) تحصل منها ١٠٤٨٤ درهما .

وبذا تكون جميع المبالغ المرصودة فى تلك السنة ٣٦٥١٥٢ درهما فضيا ، وقد حدد الواقف اوجه الصرف على النحو الآتى :

١ ـ ان يصرف مبلغ ٢٧٦٢١٦ درهما للانفاق على أستار ظاهر الكعبة المشرفة فى كل سنة .

٢ ـ أن يصرف مبلغ ٧٥٠٣٧٠ درهما للانفاق على كسوة الكعبة المشرفة الداخلية ، والحجرة النبوية المطهرة بالمدينة المنورة ، والمقصورة المعمورة بالحرم الشريف ، والمنبر ومحرابه ، والأستار الأربعة للحرم الشريف ، ومحراب (ابن العباس) وقبره ، وقبر (على بن أبى طالب) و (الحسين) و (عثمان ابن عفان) و (فاطمة بنت أسد) رضوان الله عليهم أجمعين .

٣ ـ الفائض ، وهو مبلغ ٥٨٢٦٧٠ درهما يحفظ بغرض سد العجز إذا ما حدث نقص فى مياه النيل أتبعه قلة وعجز فى المحاصيل والغلال .

وفى سنة ١٠٠١ هجرية الموافق ١٥٩٢ ميلادية حضر السيد (مسعود بن الشريف حسن) نيابة عن والده بالمسجد الحرام ، وحضر أكابر العلماء والأعيان لقياس طول الكعبة من داخلها لورود أمر السلطان (محمد بن مراد) بذلك ليعمل لها كسوة ، فذرعت بالذراع الحديد المصرى ، فعملت وأرسلت .(٩٣)

وفى عام ١٠٣٩ هجرية الموافق ١٦٢٩ ميلادية وقع بالحرم الملكى سيل عظيم حتى وصل ارتفاعه عن الأرض الى منسوب يعلو باب الكعبة المشرفة بذراعين ، فأحدث ذلك بعض التداعيات استوجب أن يرسل شريف مكة الى جدة لاحضار خشب يجعل على الكعبة لسترها الى أن يشرعوا فى العمارة ، فلما وصل الخشب ستروا جميع ما سقط منها ، وجعلوا بابا من الخشب فى الجهة الشرقية ، ثم جعل الشريف للكعبة المشرفة ثوبا أخضر وألبسه اياها فى السابع من شهر شوال .(٩٤)

وفى عام ١٠٤٠ هجرية الموافق ١٦٣٠ ميلادية أجريت عدة اصلاحات فى بيت الله الحرام ، « وفى يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر شعبان ركب الميزاب . وفى يوم الجمعة غرة رمضان المبارك البست الكعبة ثوبها ، وذلك كله من قبل مولانا امير المؤمنين السلطان (مراد خان بن السلطان أحمد بن السلطان محمد خان) .(٩٥)

واختصت مصر بكسوة الكعبة المشرفة الخارجية ، فى حين انفردت الدولة العثمانية بكسوة الكعبة المشرفة الداخلية ، وبقيت مصر تصنع أقمشة الكسوتين الداخلية والخارجية كلها الى عام ١١١٨ هجرية الموافق ١٧٠٦ ميلادية حيث أمر السلطان (أحمد بن محمد) بحياكة كسوة الكعبة الداخلية التى ترسل من قبل السلطان علم توليه الملك فى استامبول ، فصنعت فيها وأرسلت فى العام التالى الى مكة المكرمة عن طريق مصر ، فاختصت استامبول من ذلك الوقت بحياكة الكسوة الداخلية .(٩٦)

واستمر سلاطين الدولة العثمانية فى ارسالها الى عهد السلطان (عبدالعزيز ابن السلطان محمود الثانى) ، حيث انقطعت الدولة العثمانية عن ارسال الكسوة الداخلية ، وبقيت الكسوة التى كان أرسلها السلطان المشار اليه علم ١٢٢٧ هجرية .(٩٧)

وعندما حدثت الهجمة البربرية بقيادة (نابليون بونابرت) على مصر عام ١٢١٣ هجرية الموافق ١٧٩٨ ميلادية كان تعرية الكعبة المشرفة من ثيابها بمثابة اشعار للمسلمين بما أصاب بلادهم من مهانة ومذلة على يد الفرنسيين وفقا للعادات والتقاليد القديمة عند استفحال الأخطار المحدقة.[٩٨]

وقد ذكر (الجبرتي) ان « رجلا مغربيا يقال له الشيخ (الكيلاني) كان مجاورا بمكة والمدينة والطائف، فلما وردت أخبار الفرنسيس الى الحجاز ، وانهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك وضجوا بالحرم ، وجردوا الكعبة ، وان هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين ، وقرأ بالحرم كتابا مؤلفا في معنى ذلك فاتغظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وانفسهم ، واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر الى القصير مع ما انضم اليهم من أهل ينبع وخلافه ».[٩٩]

ولم يكن الاهتمام بكسوة الكعبة المشرفة من قبل الفرنسيين عند احتلالهم مصر إلا ستار تندثر فيه الأطماع الاستعمارية الفرنسية وقت مجيء حملتها في القرن الثامن عشر.

ففي أحداث شهر رمضان عام ١٢١٥ هجرية الموافق ١٨٠٠ ميلادية قال (الجبرتي) انه قد « وقع السؤال والفحص عن كسوة الكعبة التي صنعت على يد (مصطفى أغا) كتخدا الباشا ، وكملت بمباشرة حضرة صاحبنا العمدة الفاضل الأديب الناظم الناثر السيد (اسماعيل) الشهير (بالخشاب) ، ووضعت في مكانها المعتاد بالمسجد الحسيني وأهمل أمرها الى حد تاريخه ، وربما تلف بعضها من رطوبة المكان وخرير السقف من المطر ، فقال الوكيل : ان سارى عسكر قصده التوجه بصحبتكم يوم الخميس قبل الظهر بنصف ساعة الى المسجد الحسيني ، ويكشف عنها ، فإن وجد بها خللا أصلحه ، ثم يعيدها كما كانت ، وبعد ذلك يشرع في ارسالها الى مكانها بمكة ، وتكسى بها الكعبة على اسم المشيخة الفرنساوية ، فقالوا له شأنكم وما تريدون ، وقرىء في المجلس فرمان بمضمون ذلك ».[١٠٠]

ولم يستطع أحد من المشايخ أن يفتح فمه بكلمة أمام مداهنة (المشيخة الفرنساوية) التي أرادت أن تكسو كعبة الاسلام المقدسة باسمها ، بعد أن جاست خلال وداست دماء وعظام الآلاف من المسلمين ..!!

قال (الجبرتي) : « ولما كان يوم الخميس رابع عشرة (رمضان) الموعود بذكره توجه الوكيل ومشايخ الديوان الى المشهد الحسيني لانتظار حضور سارى عسكر الفرنسيس بسبب الكشف على الكسوة ، وازدحم الناس زيادة على عادتهم في الازدحام في رمضان ، فلما حضر ، ونزل عن فرسه عند الباب ، وأراد العبور للمسجد رأى ذلك الازدحام ، فهاب الدخول ، وخاف من العبور ، وسأل ممن معه عن سبب هذا الازدحام ، فقالوا له هذه عادة الناس في نهار رمضان يزدحمون دائما

على هذه الصورة في المسجد ، ولو حصل منكم تنبيه كنا أخرجناهم قبل حضوركم ، فركب فرسه ثانيا وكرّ راجعا ، وقال : نأتي في يوم آخر ، وانصرف من حيث جاء وانصرفوا » .(١٠١)

وبعد ذلك قال (الجبرتي) متتبعا : « ولما كان يوم الخميس رابع عشرة ، تقيد للحضور بسبب الكشف على الكسوة (استوفو) خازندار الجمهور و(فوريه) وكيل الديوان ، فحضر صحبتهم المشايخ والقاضي والأغا والوالي والمحتسب بعدما أخلى المسجد من الناس ، وأحضروا خدامين الكسوة الأقدمين ، وحلوا رباطاتها، وكشفوا عليها ، فوجدوا بها بعض خلل ، فأمروا بإصلاحه ، ورسموا لذلك ثلاثة آلاف فضة ، وكذلك رسموا للخدمة الذين يخدمونها ألف نصف فضة ، ولخدمة الضريح ألف نصف ، ثم ركبوا الى منازلهم ، ثم طويت ، ووضعت في مكانها بعد اصلاحها » .(١٠٢) ويبدو أن الدولة العثمانية قد اشتمت الأحداث في مصر ، من خلال ما كان يجرى لكسوة الكعبة المشرفة من تلف ، أو ربما أرادت أن تقول أمام تراجيديا الأحداث الدموية انها موجودة بقوة سلطانها الديني على المسلمين ، فكان ما تم من أحداث في عام ١٢١٦ هجرية .

قال (الجبرتي) في أحداث جمادى الآخرة من هذا العام : « وورد الخبر بوصول كسوة للكعبة من حضرة السلطان ، فلما كان يوم الأربعاء حضر واحد أفندي وآخرون وصحبتهم الكسوة ، فنادوا بمرورها في صبحها يوم الخميس ، فلما أصبح يوم الخميس المذكور ركب الأعيان والمشايخ والأشاير وعثمان كتخدا المنوه بذكره لامارة الحج ، وجمع من الجاويشية والعساكر والقاضي ، ونقيب الأشراف واعيان الفقهاء ، وذهبوا الى بولاق ، وأحضروها ، وهم أمامها ، وفردوا قطع الحزام المصنوع من المخيش ثلاث قطع والخمسة مطوية ، وكذلك البرقع ومقام الخليل ، كل ذلك مصنوع بالمخيش العال ، والكتابة غليظة مجوّفة متقنة وباقي الكسوة في سحاحير على الجمال ، وعليها أغطية جوخ أخضر ، ففرح الناس بذلك ، وكان يوما مشهودا ، وأخبر من حضر انه عندما وصل الخبر بفتح مصر ، أمر حضرة السلطان بعملها فصنعت في ثلاثين يوما ، وعند فراغها امرهم بالسير بها ليلا ، وكان الريح مخالفا ، فعندما حلوا المراسى اعتدل الريح بمشيئة الله تعالى ، وحضروا الى الاسكندرية في أحد عشر يوما » .(١٠٣)

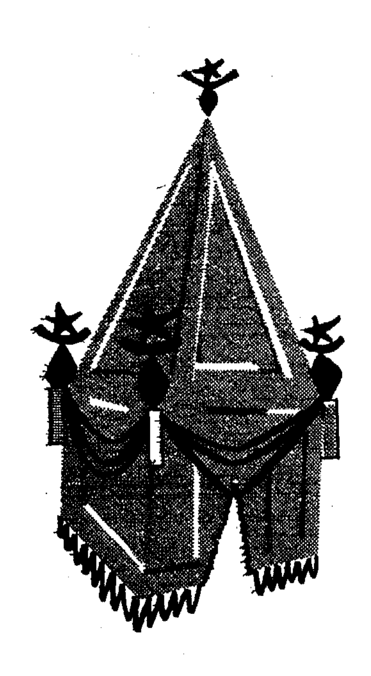
ومع هذا الوجود العثماني الذى كان يلفظ النفس الأخير كان علماء الحملة الفرنسية ينقبون في تراث مصر الحضاري ، ويقفون على كل كبيرة وصغيرة فيه ، وكان من جملة ذلك مخصصات كسوة الكعبة المشرّفة وتكاليفها وقتها .

قال (الكونت استيف) الخازن العام للحملة الفرنسية بقيادة (نابليون بونابرت) : « الكسوة هى الاسم الذى يطلق على الطنافس والبسط التى تسلم لأمير الحج كى يكسو بها الكعبة ، ويزين قبر فاطمة بالمدينة ، وكانت هذه تصنع في قلعة القاهرة ، وقد رصد السلطان سليمان مبلغ ٥٢٦,٠٠٠ مديني لنفقات

صنعها ، وارتفع السلطان مصطفى بهذا الرصيد ، لكى يجعله كافيا ، الى ٨٠٧,٠٩٠ مدينى »[١٠٤]

ولما دخل الامام (سعود) الكبير ابن (عبدالعزيز آل سعود) الى الحجاز انقطعت مصر عن ارسال الكسوة الخارجية ، فكساها الامام المشار اليه عام ١٢٢١ هجرية من القز الأحمر ، ثم كساها فى الأعوام التالية بالديباج ، والقيلان الأسود ، وجعل إزارها وكسوة بابها من الحرير الأحمر المطرز بالذهب والفضة .[١٠٥]

□ □ □



كسوة الكعبة المشرفة فى عصر محمد على وماتلاه :

عندما تولى (محمد على) حكم مصر فى شهر ربيع الأول عام ١٢٢٠ هجرية الموافق مايو ١٨٠٥ ميلادية كان الفرمان العثمانى الذى اعطاه حق الحكم بعد تعيينه من قبل نواب الشعب ينص على ان : « على خزينة مصر القيام بالنفقات السنوية التى تقوم بها عادة للحرمين الشريفين » (١٠٦)

وخرجت اول كسوة للكعبة المشرفة من مصر فى شهر ذى القعدة عام ١٢٢٠ هجرية الموافق يناير ١٨٠٦ ميلادية فى عصر الوالى الجديد لمصر (محمد على) ، قال (الجبرتى) : « وفى يوم الاثنين رابع عشرة اخرجوا المحمل والكسوة ، وعين للسفر بهما من القلزم (مصطفى جاويش العنتبلى) ، ومعه صراف الصرة دفعوا له ربعها وثمنها ، وهذا لم يتفق نظيره » (١٠٧)

وبعد اربعة ايام فقط من هذا التعيين ، وعند آخر ضوء النهار يوم الجمعة ثامن عصر شهر ذى القعدة تحركت الجمال الحاملة لكسوة الكعبة المشرفة تخب الأرض خبا من عند ناحية قايتباى بصحراء المماليك ، ومنها الى جهة السويس ، ليسافروا من القلزم . (١٠٨)

وفى العام التالى ، وفى شهر ذى القعدة ايضا ذكر (الجبرتى) انه : « فى يوم السبت ثامنه ، اداروا كسوة الكعبة والمحمل ، وركب معها المتسفر عليها من القلزم ، وهو شخص يقال له (محمود اغا الجزيرى) وركب امامه الاغا والوالى والمحتسب وطائفة الدلاة وكثير من العسكر » (١٠٩)

وحينما حدث الاصطدام بين الوهابيين فى الأراضى الحجازية وقافلة الحج المصرية فى عام ١٢٢٢ هجرية الموافق ١٨٠٧ ميلادية توقفت مصر عن ارسال كسوة الكعبة المشرفة مدة ست سنوات حتى تستقر الأمور على ارض الحجاز ، ولم ترسل الكعبة المشرفة كسوة من مصر سوى فى شهر شوال ١٢٢٨ هجرية الموافق ١٨١٣ ميلادية على الرغم من عملها كسوة فى عام ١٢٢٣ هجرية ولكنها لم ترسلها ، وظلت محفوظة طيلة هذه المدة الى ان قرر (محمد على) السفر الى الأراضى الحجازية بنفسه . قال (الجبرتى) فى احداث شهر شوال عام ١٢٢٨ : « فى سابعه يوم السبت ، اداروا كسوة الكعبة وكانت مصنوعة من نحو خمس سنوات ، وموضوعة فى مكان بالمشهد الحسينى ، فاخرجوها فى مستهل الشهر ، وقد توسخت لطول المدة ، فحلوها ، ومسحوها ، وكان عليها اسم السلطان (مصطفى) فغيروه وكتبوا اسم السلطان (محمود) فلجتمع الناس للفرجة عليها ، وكان المباشر لها الرئيس (حسن المحروقى) فركب فى موكبها . » (١١٠)

وفى شهر شوال عام ١٢٢٩ هجرية الموافق ١٨١٤ ميلادية اقيمت زفة شعبية لكسوة الكعبة المشرفة من باب القلعة حتى مسجد الامام الحسين . قال عنها (الجبرتى) :

« وفى يوم السبت حادى عشرة ، نزلوا بكسوة الكعبة بالطبول والزمور الى المشهد الحسينى ، واجتمع الناس على عادتهم للفرجة . » (١١١)

ونفس الاحتفال حدث فى العام التالى ، عام ١٢٣٣ هجرية الموافق ١٨١٨ ميلادية .

ولقد ادرك موكب كسوة الكعبة المشرفة فى عصر (محمد على) الرحالة والمستشرق الانجليزى (ادوارد وليم لين) فقال عنه بعد مشاهدته : « عقب العيد السابق ذكره بيومين او ثلاثة تقريبا (عيد الفطر) تحمل الكسوة المرسلة سنويا مع قافلة الحجاج الكبرى ، فى موكب يسير من القلعة حيث تصنع على نفقة السلطان الى مسجد الحسين ، لتخاط اقسامها معا ، وتبطن استعدادا للحج القريب . والكسوة ديباج اسود غليظ تغطيه نقوش لآيات قرآنية الخ ، تنسج بالحرير من اللون نفسه ويعبر كل جانب شريط عريض ، مزين بنقوش مشابهة تشغل بالذهب . وإنى اكتب الآن عن موكب الكسوة ، بعد عودتي من مشاهدته ، فى السادس من شهر شوال عام ١٢٤٩ هجرية الموافق ١٥ فبراير ١٨٣٤ ميلادية » (١١٢) .

وهذا الموكب للكسوة سجله بملحوظات دقيقة فقال : « اخذت مجلسى بعد شروق الشمس فى دكان كتبي الباشا ، فى شارع المدينة الرئيسى مقابل مدخل سوق خان الخليلى تقريبا ، وكان هذا الدكان وكل دكاكين الشارع تقريبا مزدحمة باشخاص جذبتهم الرغبة فى مشاهدة الموكب شيوخا وشبانا . والمصريون من كل طبقة ومركز وسن يجدون لذة كبيرة فى رؤية المشاهدات العامة . ولكن الشوارع لم تكن مزدحمة الازدحام العادى التى تكون كل منها جانبا من الكسوة قد مرت محمولة بالمكان الذى اتخذت فيه مركزى ، فوضع كل قسم من الحبال التى تربط بها على حمار . ولم تكن الحمير مزينة إطلاقا ، ولا مسرجة بإتقان . »(١١٣)

« بعد هذا قدم حوالى عشرين رجلا فى ثياب رثة يحملون على اكتافهم إطارا طويلا من الخشب امتد عليه الحزام ـ اى الشريط السابق ذكره ـ وهو قطع أربع تكون حينما تخاط معا إلى الكسوة شريطا متصلا يحيط بالكعبة جميعا إلى ثلثى ارتفاعها تقريبا ، وهو من نسيج الكسوة نفسها . وتشغل النقوش الذهبية خطوط جميلة متسعة . ويحيط بكل ربع حاشية ذهبية ، ويزين كل طرف ، حيث تتصل الحواشى العليا والسفلى ، بالحرير الاخضر والاحمر ، يخاط به ويزركش بالذهب . وكثيرا ما يتقدم احد حامل الحزام إلى المشاهدين المحترمين ليسالهم عطية »(١١٤)

وقال (إدوارد وليم لين) يصف برقع الكعبة : « وكان يحمل بعد ذلك ، مثبتا على ظهر جمل جميل ، البرقع ، وهو الستار الذى يعلق امام باب الكعبة ، ممددا على اطار مرتفع من الخشب . وهو من الديباج الاسود ، المزركش على طريقة الحزام ، بنقوش من القرآن فى حروف من الذهب ، ولكنه اكثر فخامة وزينة ، وكان

مبطنا بالحرير الأخضر . وكان وجه البرقع ممتدا على يمين الاطار ، والحرير الأخضر على اليسار.[115]

وهذا البرقع قال عنه (ادوارد وليم لين) ان كثيرا ما كان يسميه العامة باسم (برقع ستنا فاطمة) ، إذ يقال ان (فاطمة شجر الدر) زوجة السلطان (الصالح أيوب) كانت اول من أرسل برقعا من هذا النوع لتغطية باب الكعبة.[116] .

ووصف (إدوارد وليم لين) كسوة مقام سيدنا ابراهيم وكيس مفتاح الكعبة المشرفة في عصر (محمد علي) ، فقال : « وتلا المحمل غطاء أسود آخر ، مستطيل الشكل مزركش بالذهب على الطريقة نفسها ، وهو يوضع على مقام (ابراهيم) ، في مسجد مكة . وركب خلف هذا ضابط تركي يحمل علبة صغيرة من الحرير الأخضر مزركشة بالذهب ، بها مفتاح الكعبة ، فوق منديل مطرز ».[117]

ووفقا لوثيقة الاشهاد الشرعي لكسوة الكعبة المشرفة في أوائل عصر الخديو (اسماعيل) والتي حررت في شوال عام ١٢٨٠ هجرية الموافق ابريل ١٨٦٤ ميلادية نستطيع أن نقف على بعض التفاصيل لهذه الكسوة على النحو الآتي :

تضمنت كسوة الكعبة المشرفة وقتها ما يلي[118] :

١ ـ ثمانية احزمة مزركشة بالمخيش الأصفر والأبيض المطلي بالبندقي الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الأخضر مبطنة بالبفت الأبيض والنوار القطن .

٢ ـ ستارة بيت الله الحرام المزركشة بالمخيش الأصفر والأبيض المطلي بالبندقي الاحمر على الحرير الأسود والأطلس الأخضر المبطنة بالبفت الأبيض والأطلس الأخضر ، بها خمسة شراريب حرير اسود وقصب وستة ازررة مفضضة مطلية بالبندقي الأحمر ، وإثنى عشرة شمسية مزركشة بالمخيش الأصفر المطلي بالبندقي الاحمر على الأطلس الأخضر بها اثنى عشر شرابة صغيرة حريرا اخضر وقصب .

٣ ـ كسوة مقام سيدنا (ابراهيم) خليل الرحمن المزركشة بالمخيش الأصفر والأبيض المطلي بالبندقي الأحمر على الحرير الأسود والأطلس الأخضر بها اربعة شراريب حرير اسود وقصب ، وعشر شمسيات مزركشة بالمخيش الأصفر على الأطلس الأخضر وعشرة شراريب صغيرة حرير اخضر وقصب وخمسة ازررة فضة مطلية بالبندقي الأحمر المبطنة بالبفت الأبيض ، وبها سجق حرير مزهر .

٤ ـ كيس مفتاح باب بيت الله الحرام المزركش بالمخيش الاصفر والأبيض المطلي بالبندقي الأحمر على الأطلس الأخضر المبطن بالأطلس الأخضر ، به شرابتين قصب وقيطان قصب وحرير اخضر ..

٥ ـ ستارة باب سطح بيت الله الحرام المعروف بباب التوبة داخل بيت الله الحرام المزركشة بالمخيش الأصفر والأبيض المطلي بالبندقي الأحمر على الحرير الأسود المبطنة بالبفت الأبيض والأطلس الأخضر .

٦ ـ ستارة مقام سيدنا (ابراهيم) خليل الرحمن المشار إليه المزركش بالمخيش الأصفر والأبيض المطلى بالبندقى الأحمر على الحرير الأسود المبطنة بالبفت الأبيض والأطلس الأخضر بها خمسة أزررة فضة مطلية بالبندقى الأحمر على الأطلس الأخضر ، بها عشرة شراريب صغيرة حرير أخضر وقصب .

وبالاضافة إلى هذه القطع المذكورة كانت هناك الملحقات الأخرى الآتية :

١ ـ ثلاثة مجاديل قطن لتعليق الكسوة المشرفة على بيت الله الحرام .

٢ ـ واحد وأربعون عصفورة قطن مجدولة احتياج الحق .

٣ ـ غلايتان نحاس مغطلتان ملآتان ماء ورد لغسيل داخل بيت الله الحرام .

وقد قام بتحرير هذا الاشهاد الشرعى لكسوة الكعبة المشرفة قاضى مصر المحروسة السيد (مصطفى نظمى الدين) مع (حسين فخرى بك) مأمور تشغيل كسوة الكعبة المشرفة .

وبعد أن تولى الخديو (عباس حلمى الثانى) امرالحكم فى مصر عام ١٣٠٩ هجرية الموافق ١٨٩٢ ميلادية سار على سنة أسلافه فى إرسال كسوة الكعبة المشرفة . وبعد عام واحد ، كتب (عبدالله النديم) فى جريدة (الأستاذ) تحت عنوان « الكسوة الشريفة » بتاريخ ٢٢ شوال سنة ١٣١٠ هجرية الموافقة ٩ مايو ١٨٩٣ ميلادية ما يلى (١١٩)

« احتفل ليلة السبت فى ديوان محافظة مصر احتفالا جليلادعى إليه العلماء والأمراء وأرباب الطرق وكثير من الوجهاء والأعيان سرورا بإنجاز كسوة مقام سيدنا الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد بلغت مصارفها ١٧٠٠ جنيها ، وفى الصباح انتظم الموكب مركبا من فرق العساكر الخيالة والمشاة والمدفعية ، وكان الوزراء الكرام يقدمهم صاحب الدولة (رياض باشا) نائبا عن الحضرة الخديوية فاجتمعوا فى سقفية المنشية ، يصحبهم لفيف من العلماء الاعلام فى مقدمتهم صاحب السماحة والفضيلة شيخنا الأستاذ الشيخ (الأنبابى) ، وفى مقدمة رجال الطرق واصحاب الأشاير صاحب السماحة والسيادة السيد (توفيق افندى البكرى الصديقى) ، وسماحة قاضى افندى مصر ، اى ان هؤلاء الاعلام وجدوا مع النظار الكرام بالملابس الرسمية فى مقدمة من وجد معهم من العلماء والأشياخ ، ومن ساحة المنشية سار الموكب حتى دخل مسجد الامام (الحسين) رضى الله تعالى عنه ، وقد هرع الناس إلى الشوارع التى مر بها حتى لم يبق فى مصر أحد ممن يميلون لرؤية هذا الموكب المنيف إلا وقف له داعيا للحضرة الخديوية الفخيمة بطول العمر ودوام العز والاقبال متفرجا » . ولم تتوقف مصر عن إرسال كسوة الكعبة المشرفة فيما بعد سوى مرات قليلة ، كانت بسبب الحرب العالمية الأولى ومرة ثانية بسبب أزمة افتعلت بين مصر وحكومة المملكة العربية السعودية تقطعت خلالها الوشائج لفترة عشرة أعوام من علم ١٣٤٤ هجرية الموافق ١٩٢٦ ميلادية حتى ١٣٥٥ هجرية الموافق ١٩٣٦ ميلادية ، وآخرها أزمة

عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية ، في عهد الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر ، حيث توقف ارسالها تماما من مصر .

ورغم الخلافات السياسية كانت الأسواق المصرية تهفو إلى كساء بيت الله الحرام ، وكانت لا تتوانى في بذل المساعي الحميدة لعودة أواصر الأخوة قوية كما كانت بين مصر والحجاز ، وكان يكفي للتدليل على ذلك ما سطرته « ادارة دار كسوة الكعبة الشريفة » من مذكرة تسعى من خلالها إلى رأب الصدع .

قالت بتاريخ ذى القعدة عام ١٣٤٢ هجرية الموافق يونية ١٩٢٤ ميلادية ، بعد مقدمة وجيزة عن تاريخ كسوة الكعبة المشرفة ودور مصر العتيق فيها .

« وقد استمر ارسال الكسوة الشريفة الى العام الماضى ، حيث انها أرسلت مع ركب المحمل الشريف ، ونظرا لما حصل بين الدولة المصرية وحكومة الحجاز بشأن البعثة الطبية ، بحيث ترتب على ذلك عودة المحمل الشريف ، وبطبيعة الحال اعيدت الكسوة اسوة بباقى المرتبات التى كانت برفقه المحمل ، ثم اوقف ارسالها حتى يفصل في امر البعثة الطبية ، مع أن الكسوة الشريفة بعيدة كل البعد عن هذا الموضوع ، وليست لها علاقة بالمحمل ولا بالمرتبات التى تستلمها حكومة الحجاز ، وذلك للأسباب الآتية :

اولا : الكسوة الشريفة هدية ترسل من الواقف رحمه الله إلى البيت المشرف لا إلى ملك الحجاز ، أو والى بلاد العرب وذلك منذ مئات من السنين ، يستلمها وريث بيت الشيبى المكلف بحجابة البيت العتيق قبل ظهور النبى عليه السلام بـ ١٥٠٠ سنة ، والذى لا ينازعه فيها منازع ، ولا يشاركه فيها شريك ، لأنه استولى على مفاتيح هذا البيت الحرام في عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحكم إلهى ـ بحيث نزلت الآية الشريفة :

(ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وذلك لما أراد الامام على ـ كرم الله وجهه ـ أن يستولى على مفاتيح الكعبة المكرمة بعد غزو مكة ، وفعلا أخذها من وريث بيت الشيبى ، فلما نزلت تلك الآية بادر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر برد المفاتيح الى هذه العائلة ، وصارت حتى يومنا هذا صاحبة التصرف في كل ما يتعلق بالبيت من الهدايا والنذور ، وغير ذلك ، وليس لملك الحجاز ولا لغيره من أشراف مكة حق التداخل في أى شيء يتعلق بهذا البيت .

ثانيا : تشغل الكسوة الشريفة وبعد إتمام تشغيلها تحرر بها حجة شرعية بتسليمها إلى مندوب خاص يستلمها من دار التشغيل ، ثم تصير في عهدته حتى يجرى تسليمها إلى الشيخ الشيبى دون سواه ، كمنطوق الحجة الشرعية ، وذلك باحتفال شرعى بمكة ، وبعد الاستلام يحرر الشيخ الشيبى إشهادا شرعيا باستلامه الكسوة وأدواتها كاملة يقدمه المندوب إلى إدارة الكسوة بعد عودته من البلاد العربية ، وليس لملك الحجاز ولا حكومته دخل في هذا التسليم .

ثالثا : إذا ظهر للشيخ الشيبى اى ملاحظات فى تشغيل الكسوة أو نقص فى اجزائها او متعلقاتها يخاطب الدولة المصرية بشانه مباشرة بدون وساطة الحكومة العربية كما هو واضح من الأوراق والمكاتبات الرسمية . وذلك لأنه إنما يطالب بحق هو من اختصاصه دون خلافه .

رابعا : ليس من المحتم أن ترسل الكسوة مع راكب المحمل الشريف ، وإنما احتراما لها وتوقيرا على الشيخ الشيبى من استلامها بجدة ، وليتمكن مندوبها من الحج وزيارة بيت الله الحرام فضل إرسالها فى موسم الحج ومع ركب المحمل ، وقد سبق إرسالها بواسطة المندوب مباشرة بدون المحمل بعد الاحتفال بها كالمعتاد رسميا بمصر عند تسفيرها وذلك فى غضون الحرب العظمى .

مما تقدم يتضح ان ما يصرف فى تشغيل الكسوة الشريفة هو ريع وقف ، وأن الذى يستلمها هو وريث بيت الشيخ الشيبى كما مر ذكره ولا دخل مطلقا لأحد أفراد الحكومة العربية فى شان كسوة البيت ، ولا هو يتخلف منها إلا إذا أراد الشيخ الشيبى ان يهدى لملك بلاده شيئا منها على سبيل البركة أسوة بمن يهدى إليهم من ملوك الاسلام وكبرائه . ويتضح ايضا ان الكسوة ليست من المرتبات المقررة لأشراف الحجاز ، لأنها خاصة بالكعبة الشريفة .

لذلك ونحن الآن فى عهد اول ملك دستورى هو صاحب الجلالة مولانا الملك (فؤاد الأول) الذى بنى دستور مملكته على قواعد الدين الحنيف ، وليس بين ممالك الاسلام مملكة احق بالمحافظة على الدين وشرفه والبيت وكرامته من الدولة المصرية نلتمس من حضرات اعضاء البرلمان ، وحضرات أصحاب الدولة والمعالى رجال حكومة الشعب النظر فى إيجاد اقرب الطرق الموصلة لتنفيذ شروط الواقف ، والمبادرة بإرسال الكسوة الشريفة حتى يكتسبوا رضاء الأمة المصرية والعالم الاسلامى . وإنا لا نرضى بان يدون فى التاريخ أن كسوة بيت الله الحرام منعت عنه فى عهد جلالة مولانا الملك (فؤاد الأول) وحكومة حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل (سعد زغلول باشا) والله نسال ان يحفظ حياة صاحب الجلالة مولانا الملك (فؤاد الأول) وحضرة صاحب السمو الملكى ولى عهده الأمير (فاروق) وحضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل ورجال حكومته العظام . إنه سميع مجيب »[١٢٠] .

وعلى الرغم من هذه النداءات والتوسلات التى تريد الا يتعكر الماء بين الأشقاء ، فقد حدث ما حدث وتجمد إرسال كسوة الكعبة المشرفة عشرة اعوام ، فليس لكل ما الانسان يريد يجاب له ، لأن مشيئة الله فوق كل رغبات البشر ، ولأن الله وحده هو الفعال لما يريد .

□ □ □

الهوامش والمراجع

(١) سيرة الملك (سيف بن ذى يزن) ـ ص ٨ ج ١ ـ مطبعة الجمهورية العربية بالصنادقية بالأزهر ـ بدون تاريخ .

(٢) المرجع السابق ـ ص ١٠ ج ١ .

(٣) الحافظ ابى الطيب الفاسى ـ « شفاء الغرام باخبار البلد الحرام » ـ ص ١٢١ ج ١ ـ دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابى الحلبى بالقاهرة ١٩٥٦ :.محمد صالح بن زين العابدين الشيبى ـ « إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام » ـ ص ١٩٣ ، تحقيق إسماعيل أحمد إسماعيل حافظ ـ مطبوعات نادى مكة الثقافى والادبى ١٩٨٤ .

(٤) المرجعان السابقان الأول ص ١٢١ جـ١ ، والثانى ص ١٩٤ .

(٥) المرجع ص ١٨٧ ج ١ .

(٦) المرجع السابق ص ١٨٧ ج ١ ، والخصف جمع خصفة وهى الثواب الغليظ جدا ، كما وردت القصة عند (ابى العلاء المعرى) فى كتابه « رسالة الصاهل والشاحج » ـ ص ٦٦٧ ، تحقيق د. عائشة عبدالرحمن « بنت الشاطىء » ، سلسلة ذخائر العرب رقم ٥١ ـ دار المعارف طبعة ١٩٨٤ .

(٧) المعافر : فى الاصل اسم بلد سميت به الثياب المعافرية التى تصنع فيه ، والملاء : جمع ملاءة ، وهى ثوب لين رقيق نسج واحد وقطعة واحدة وتسمى الريطة ، والوصايل : جمع وصلة ، وهى ثوب احمر مخطط يمانى ، والعصب : برود يمانية مخططة اى اثواب مخططة واكسية يلتحف بها ، وهذه البرود يعصب غزلها ، اى يجمع ويشد ، ثم يصبغ بعضه وينسج مع غير المصبوغ فياتى موشى ، والمسوح : جمع مسح ، وهو ثوب من الشعر غليظ ، ويقال له البلاس . راجع ابراهيم رفعت باشا ـ « مراة الحرمين » ـ ص ٢٨١ حـ ١ دار المعرفة بيروت بلبنان ـ بدون تاريخ .

(٨) د. على حسنى الخربوطلى ـ « الكعبة على مر العصور » ـ ص ١١٠ ـ سلسلة اقرا رقم ٢٩١ ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثانية .

(٩) الاول ص ١٨٨ حـ ١ والثانى ص ٦٨ حـ ١ ، والأخير من تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ـ المكتبة الاسلامية ببيروت ـ بدون تاريخ .

(١٠) اعتمدنا فى حساب هذين التاريخين على إثبات مدة حكم الملك الساسانى فى فارس وهو (قباذ الأول) الذى ذكر اسمه فى الأبيات الشعرية ، وهذا الملك تولى الحكم فى الفترة التى حددناها وفقا للتاريخ الذى ذكره (جورجى زيدان) فى كتابه (العرب قبل الاسلام) ـ ص ٢٢٢ ـ دار الهلال ، فى حين كانت البعثة المحمدية عام ٦٠٩ ميلادية ، والأشعار المنسوبة للحادثة يمكن الرجوع إليها عند (ابراهيم رفعت باشا) فى كتاب « مرآة الحرمين » ـ ص ٢٨١ حـ ١ .

(١١) ابو الوليد الأزرقى ـ « اخبار مكة » ـ ص ٢٥١ حـ ١ ـ دار الاندلس للطباعة والنشر والتوزيع ـ بدون تاريخ .

(١٢) المرجع السابق ـ ص ٢٥٠ حـ ١ .

(١٣) يوسف احمد ـ « المحمل والحج » ـ ص ٢٣٤ حـ ١ .

(١٤) محمد صالح بن زين العابدين الشيبى ـ « إعلام الأنام ... » ـ ص ١٩٦ .

(١٥) المرجع السابق ـ ص ١٩٣ .

(١٦) مجلة الفيصل ـ العدد ١٢٦ ـ اغسطس ١٩٨٧ ـ دار الفيصل الثقافية بالسعودية .

(١٧) السيد سابق - « فقه السنة » - ص ٧٦١ ج ٢ - دار الكتاب العربي ببيروت لبنان - بدون تاريخ .

(١٨) محمد صالح بن زين العابدين الشيبي - « إعلام الأنام ... » - ص ١٩٥

(١٩) محمد لبيب البتنوني - « الرحلة الحجازية » - ص ١٣٩ - مطبعة الجمالية بمصر - الطبعة الثانية (١٣٢٩ هـ - ١٩١٢ م) .

(٢٠) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٣٥ ج ١ .

(٢١) إبراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٢٨٢ ج ١ .

(٢٢) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٣٦ ج ١ .

(٢٣) إبراهيم رفعت باشا - « مرآة الحرمين » - ص ٢٨٢ ج ١ .

(٢٤) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٨٢ ج ١ .

(٢٥) الأزرقي - « أخبار مكة » ص ٢٥٥ ج ١ .

(٢٦) جورجي زيدان - « تاريخ التمدن الاسلامي » - ص ٣٥ ج ٢ - دار الهلال بالقاهرة - بدون تاريخ .

(٢٧) المقريزي - « خطط المقريزي » - ص ٣٣٨ ج ١ - كتاب التحرير من أغسطس ١٩٦٧ حتى يوليو ١٩٦٨ .

(٢٨) النويري - « نهاية الأرب في فنون الأدب » - ص ١١٢ ج ٢٢ تحقيق د . محمد جابر عبدالعال الحيني - الهيئة المصرية العامة للكتاب والمجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٤ .

(٢٩) المقريزي - مرجع - سابق - ص ٣٣٨ ، وتنيس هي جزيرة قريبة من دمياط اشتهرت بصناعة الملابس المصرية ، وكانت تصنع بها كسوة الكعبة المشرفة ، وكذلك قريتي تونة وشطا .

(٣٠) المرجع السابق - ص ٣٣٩ ج ١ .

(٣١) المرجع السابق - ص ٤٢٢ ج ١ .

(٣٢) المرجع السابق - ص ٣٣٨ ج ١ .

(٣٣) محمد صالح الشيبي - « إعلام الأنام ... » - ص ١٩٩ .

(٣٤) المرجع السابق - ص ١٩٩ .

(٣٥) النويري - « نهاية الأرب » - ص ١٩٧ ج ٢٢ .

(٣٦) المقريزي - « خطط المقريزي » - ص ٣٣٨ ج ١ .

(٣٧) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٤٠ ج ١ .

(٣٨) ابن جبير - « رحلة ابن جبير » - ص ٧٣ - دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة - بدون تاريخ .

(٣٩) المرجع السابق - ص ٧٨ .

(٤٠) المرجع السابق - ص ١٣٣ .

(٤١) ابن إياس - « بدائع الزهور في وقائع الدهور » - ص ٢٩٠ ج ١ ق ١ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ .

(٤٢) بدأنا التاريخ لأول كسوة للكعبة للدولة الفاطمية كما هو ثابت تاريخيا في عهد الخليفة الفاطمي الثاني (العزيز بالله) ، وهناك آراء متضاربة حول قيام الخليفة الفاطمي الأول (المعز لدين الله) بكساء الكعبة ، والسبب في هذا التضارب آراء المفسرين والشرّاح لبعض حوادث التاريخ ، والتي تختص بكساء الكعبة وما يكتنف ذلك من خلط وتاويل .

فقد ذكر الدكتور (علي حسني الخربوطلي) في كتابه (الكعبة على مر العصور) في صفحة ١١٢ أن : « الخليفة الفاطمي (المعز لدين الله) أمر بعد فتحه مصر سنة ٣٦٢ هجرية (٩٧٢ ميلادية) بعمل كسوة للكعبة لينافس خلفاء بغداد العباسيين » ..

وجاء في كتاب « الفاطميون في مصر » لمؤلفه (حسن ابراهيم حسن) تحت عنوان « الكسوة التي عملها المعز للكعبة » ما نصه : « ويتبين لنا مدى ثروة مصر في ذلك الوقت من وصف الكسوة التي أمر المعز بعملها للكعبة ، كما يبين لنا هذا أيضا كيف نافست مصر بغداد ، بل كيف تفوقت عليها وعلى غيرها من المراكز الاسلامية . ففي يوم عرفة أمر المعز بنصب الكسوة التي اتخذها للكعبة على الإيوان الذي جعله لعقد الجلسات الرسمية » .

وجاء في نفس الكتاب تفسير لتلك « الشمسية » التي عملها المعز بأنها كسوة الكعبة !

ونحن نرى أن هذا التفسير غير صحيح لأنه غير مقنع . فهناك فرق كبير بين الشمسية التي عملت للكعبة وكسوة الكعبة نفسها .

ولكي ندرك هذا الفرق بين الشمسية والكسوة يجب أن نعود إلى بعض المؤرخين الذين تناولوا أحداث تلك الفترة في كتاباتهم مثل (ابن زولاق) و (المقريزي) و (الجوهري) .

فقد قال (ابن زولاق) ما ملخصه : وصل المعز لدين الله إلى قصره بمصر في رمضان من سنة ٣٦٢ هجرية وبعدما استقر وقابل الأعيان ، وقبل هداياهم ، نصب في يوم عرفة الشمسية التي عملها للكعبة على إيوان قصره ، وسعتها ١٢ شبرا في ١٢ شبرا ، وأرضها ديباج أحمر ، ودورها ١٢ هلال ذهب ، في كل هلال أترجة ذهب مشبك ، جوف كل أترجة ٥٠ درة كبار كبيض الحمام ، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وفي دورها كتابة آيات الحج بزمرد أخضر قد فسر ، وحشو الكتابة در كبير لم يُرَ مثله ، وحشو الشمسية المسك المسحوق ، فرآها الناس في القصر ، ومن خارجه لعلو موضعها ، ونصبها عدة فراشين وجرّوها لثقل وزنها » .

وقد نقل (المقريزي) عن (ابن زولاق) ، وأضاف (المقريزي) في كتابه (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا) فقرة توضح ماهية هذه الشمسية ، فقال : « وأول من عمل الشمسية للكعبة أمير المؤمنين (جعفر المتوكل على الله) ، فبعث بسلسلة من ذهب كانت تعلق مع اليالوتة التي بعثها المأمون ، وصارت تعلق كل سنة في وجه الكعبة ، وكان يؤتى بهذه السلسلة في كل موسم وفيها شمسية مكللة بالدرّ والياقوت والجوهر قيمتها شيء كثير فتقدم بها قائد يبعث به من العراق ، فتدفع إلى حجبة الكعبة ، وتشهد عليهم بقبضها ، فيعلقونها يوم سادس الثمان ، فتكون على الكعبة ، ثم تنزع يوم التروية » . (اتعاظ الحنفا ص ١٩٣ ـ دار الفكر العربي ـ ١٩٤٨) فهذه الشمسية ـ كما يقول (المقريزي) تعلق من سلسلة ذهب ، وتوضع في وجه الكعبة ، فأين كل هذا من كسوة الكعبة المشرفة ؟ !

هل تعلق كسوة الكعبة المشرفة بسلسلة ؟ .. هل توضع هذه الكسوة المشرفة في وجه الكعبة أم عليها ؟

إننا لو عدنا الى ما كتبه (المقريزي) في مكان آخر فسنجد ضمن ما كتب مؤرخا أحداث شهر رجب سنة ٧٨٥ هجرية ، حيث يقول : « وفيه دار المحمل بالقاهرة ومصر على العادة في كل سنة ، واستجد له ثوب حرير أصفر بشمسات زركش ، فيها اسم السلطان ، وعملت له رصافيات فضة ، مطلية بذهب ، فجاء أحسن ما عهد قبل ذلك . وفيه عرضت كسوة الكعبة ، وقد استجد فيها أيضا أن عمل طرازها الدائر بأعلاها من قصب .

(كتاب السلوك للمقريزي ـ ص ٣٢ جـ٣ ق٢) .

ونلاحظ أن نفس العبارات قد جاءت عند (الخطيب الجوهري) مع اختلاف بسيط في اللفظ

(شمسات) ، حيث استبدلت بلفظة (برمات) مكانها . (نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ـ ص٧٤حـ١) .

والذي يستطيع ان يدقق في تعبير (المقريزي) سيجد ان استخدامه لكلمة (شمسات) مزركشة في وصفه كسوة المحمل ذاتها ، وهي كسوة الهودج الذي يتصدر قافلة الحج ، وهي مجموعة دوائر او مربعات كان يكتب فيها اسم السلطان . اما كسوة الكعبة المشرفة فقد استخدم (المقريزي) اسمها صريحا ، وقد استجد فيها (ايضا) اشياء غير التي استجدت في زركشة كسوة المحمل ، ولعل كلمة (ايضا) عند (المقريزي) تفصح ان هناك في هذا الاحتفال شيئين مختلفين ، هما كسوة المحمل بشمساتها المزركشة ، وكسوة الكعبة بزخارفها المقصبة . هذا فضلا عن ان ابعاد ومقاسات تلك الشمسة التي تنسب للخليفة الفاطمي (المعز لدين الله) التي مقاسها ١٢ شبرا طولا وعرضا لا تتناسب على الاطلاق مع ابعاد الكعبة المشرفة !!

(٤٣) القلقشندي ـ « صبح الاعشى » ـ ص ٢٨١حـ٤ ، عبدالقادر الانصاري الجزيري ـ « درر الفوائد المنتظمة » ـ ص ٢٤٧ .

(٤٤) المقريزي ـ « خطط المقريزي » ـ ص ٣٣٨حـ١ .

(٤٥) ابن اياس ـ « بدائع الزهور » ـ ص ٢٠٥حـ١ق ١ .

(٤٦) صفحة ٢٢٤ حـ٢ .

(٤٧) ابن تغرى بردى ـ « النجوم الزاهرة » ـ ص ٢٧٦حـ٤ ـ المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٣٥ ، الحافظ ابى الطيب تقي الدين احمد الفاسي ـ « شفاء الغرام » ـ ص ٢٢٥حـ٢ .

(٤٨) يوسف احمد ـ « المحمل والحج » ـ ص ٢٤١ .

(٤٩) ابن تغرى بردى ـ « النجوم الزاهرة » ـ ص ٩٥حـ ٥ ، المقريزي ـ « الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك » ـ ص ٦٦ ـ مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٥٥ .

(٥٠) ابن تغرى بردى ـ « النجوم الزاهرة » ـ ص ٩٥حـ ٥ .

(٥١) اللواء ابراهيم رفعت باشا ـ « مرآة الحرمين » ـ ص٢٨٣حـ١ .

(٥٢) النويري ـ « نهاية الارب » ـ ص٢٨٤حـ٢٣ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ .

(٥٣) عبدالقادر الانصاري الجزيري ـ « درر الفرائد المنتظمة » ـ ص ٢٧٧ ، المقريزي ـ « الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك » ـ ص ٨٠ ـ مكتبة الخانجي ١٩٥٥ .

(٥٤) المرجع السابق ـ ص ٢٨٠ .

(٥٥) لم يذكر المؤرخون لاحد من سلاطين الدولة الايوبية ـ وهي الدولة التي تلت عصر الفاطميين ، وسبقت عصر سلاطين المماليك ـ انه قام بكساء بيت الله الحرام .

وقد يقال ان الدولة الايوبية انشغلت بامور معاركها التي كانت من اجل تطهير الاراضي الاسلامية من براثن الاسلام من غزاة الصليبيين عن هذه المهمة الجليلة ، التي تخص كساء كعبة الاسلام المقدسة . ولكننا نشك في ذلك ، وفي راينا ان الذي انصرف عن ذلك هم المؤرخون انفسهم ، حيث كانت دراميه الاحداث التاريخية المخضبة بالدماء وقتها لها ما لها من العنف ، بحيث انستهم ان يرصدوا ويدونوا شيئا في كتبهم عن إرسال كسوة الكعبة المشرفة في العصر الايوبي .

وفي التاريخ نجد ما يشبه الشواهد الظنية على قيام بعض سلاطين العصر الايوبي بكساء بيت الله الحرام .

من ذلك ما رواه (ابن اياس) عن قيام السلطان (الناصر صلاح الدين) الايوبي بإيقافه بلدتين في صعيد مصر هما (نقادة) و (قبالة) ، وذلك للانفاق من ريعهما على الحرمين

الشريفين . وكان شيخ الحرم المدنى حينما ياتى إلى أحد من سلاطين الدولة الأيوبية يقومون له ويجلسونه الى جانبهم ، احتراما وتقديرا وتوقيرا له ، بل كان هؤلاء السلاطين ـ على حد قول (ابن اياس) ـ « يتبركون به ، لقرب عهده من تلك الأماكن الشريفة ، واستمر ذلك إلى أيام السلطان الأشرف « برسباى » ـ راجع (ابن اياس) فى كتابه « بدائع الزهور » ـ ص ٢٤٣حـ١ق١ .

(٥٦) العصامى المكى ـ « سمط النجوم العوالى » ـ ص ٢٢٢حـ ٤ ـ المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٨٤هـ .

(٥٧) اللواء ابراهيم رفعت باشا ـ « مرآة الحرمين » ـ ص ٢٨٣حـ ١

(٥٨) ابن اياس ـ « بدائع الزهور » ـ ص ٥٣٧حـ ١ق ١ .

(٥٩) عبدالقادر الانصارى الجزيرى ـ « درر الفرائد المنظمة » ـ ص ٣١٢ ـ المطبعة السلفية بالقاهرة ـ بدون تاريخ .

(٦٠) المقريزى ـ « كتاب السلوك » ـ ص ١٩٠حـ ٢ق ١ ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة ١٩٧٠ .

(٦١) ابن اياس ـ « بدائع الزهور » ـ ص ٨٨حـ٣ .

(٦٢) المرجع السابق ـ ص ٩٠حـ٣ .

(٦٣) المرجع السابق ـ ص١٥٨حـ ٢ .

(٦٤) المرجع السابق ـ ص ١٥٨حـ ٢ .

(٦٥) المرجع السابق ـ ص ١٦٠حـ ٢ .

(٦٦) المرجع السابق ـ ص ٢٤٤حـ٢ .

(٦٧) المرجع السابق ـ ص ٢٤٥ حـ٢ .

(٦٨) المرجع السابق ـ ص ٢٩٦حـ٢ ، عبدالقادر الانصارى الجزيرى ـ « درر الفرائد المنظمة » ـ ص٣٣٢ .

(٦٩) عبدالقادر الانصارى الجزيرى ـ « درر الفرائد المنظمة » ـ ص ٢٨٠ .

(٧٠) المقريزى ـ « الذهب المسبوك » ـ ص ٩١ .

(٧١) الجبرتى ـ « عجائب الآثار » ـ ص ٣٠حـ ١ ـ دار الجيل ببيروت ـ بدون تاريخ .

(٧٢) عبدالقادر الانصارى الجزيرى ـ « درر الفرائد المنظمة » ـ ص ٢٨٣ .

(٧٣) ابن اياس ـ « بدائع الزهور » ـ ص٣٣٦حـ ١ ق٣

(٧٤) المقريزى ـ « كتاب السلوك » ـ ص ٧٠٦ حـ ١ق ٣

(٧٥) ابن بطوطة ـ « رحلة ابن بطوطة » ـ ص ٩٢حـ٣ ـ كتاب التحرير رقم ١٦٨ ـ دار التحرير للطباعة والنشر بالقاهرة .

(٧٦) المرجع السابق ـ ص١١٥

(٧٧) يوسف احمد ـ « المحمل والحج » ـ ص٢٤٤حـ ١

(٧٨) عبدالقادر الانصارى الجزيرى ـ « درر الفرائد المنظمة » ـ ص ٣٠٧ .

(٧٩) ابن اياس ـ « بدائع الزهور » ـ ص ٥٠٥ حـ ١ ق ١ .

(٨٠) اللواء ابراهيم رفعت باشا ـ « مرآة الحرمين » ـ ص ٢٨٤حـ ١ .

(٨١) يوسف احمد ـ « المحمل والحج » ـ ص ٢٤٥حـ ١ .

(٨٢) عبدالقادر الانصارى الجزيرى ـ « درر الفرائد المنظمة » ـ ص ٣١٨ .

(٨٣) يوسف احمد ـ « المحمل والحج » ـ ص ٢٤٧حـ ١ .

(٨٤) المقريزي - « كتاب السلوك » - ص ٦١٤جـ ٤ق ٢ .
(٨٥) عبدالقادر الأنصاري الجزيري - « درر الفرائد المنظمة » - ص ٢٣٤ .
(٨٦) المرجع السابق - ص ٢٣٤ .
(٨٧) عبدالرحمن محمود عبدالتواب - « قايتباي المحمودي » - ص ٢٠٧ .
سلسلة الأعلام رقم (٢٠) - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨ .
(٨٨) يمكن رصد تلك المواكب على النحو الآتي :
سنة ٩٠٨ هجرية من كتاب « بدائع الزهور » لابن اياس ص ٤٩خـ ٤ ، سنة ٩١٠ هجرية ص ٧٢حـ ٤ ، سنة ٩١١ هجرية ص ٨٩حـ ٤ ، سنة ٩١٥ هجرية .
ص ١٦٧حـ ٤ ، سنة ٩٢٨ هجرية من ٢٨٧ حـ ، سنة ٩١٩ هجرية من ٢٤٢حـ ٤ ، سنة ٩٢٣ هجرية ص ١١٥حـ ٥ ، وقد اوردناها هنا لمن يشاء الرجوع إليها .
(٨٩) ابن اياس - « بدائع الزهور » - ص ١١٥حـ ٥ .
(٩٠) المرجع السابق - ص٢١٢حـ ٥ ، وقد تكرر ذلك ايضا في عامي ٩٢٤و٩٢٥ هجرية - انظر (ابن اياس) في « بدائع الزهور » - ص ٢٧٨حـ ٥ ، ٣١٦حـ ٥ .
(٩١) المرجع السابق - ص٢١٣حـ ٥ .
(٩٢) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٥٣حـ ١ .
(٩٣) العصامي المكي - « سمط النجوم العوالي » - ص ٣٥٦حـ ٤ .
(٩٤) المرجع السابق - ص ٤٢٨حـ ٤ .
(٩٥) محمد صالح الشيبي - « إعلام الأنام » - ص ١٦٨ .
(٩٦) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٥١ حـ ١ .
(٩٧) المرجع السابق - ص ٢٥٢..
(٩٨) الجبرتي - « مظهر التقديس » - هامش ص ١٦٦حـ ١ - الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٦١ .
(٩٩) الجبرتي - « عجائب الآثار » - ص ٢٥٠ جـ ٢ .
(١٠٠) الجبرتي - المرجع السابق - ص ٤٠٥ حـ ٢ .
(١٠١) المرجع السابق - ص ٤٠٦ حـ ٢ .
(١٠٢) المرجع السابق - ص ٤٠٨ حـ ٢ .
(١٠٣) المرجع السابق - ص ٥٠٢ حـ ٢ .
(١٠٤) علماء الحملة الفرنسية - « وصف مصر » - ص ٢٣٦ حـ ٥ .
(١٠٥) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٦٠ حـ ١ ، نقلا عن هامش ص ١٧٢ تاريخ مكة الأزرقي .
(١٠٦) يوسف احمد - « المحمل والحج » - ص ٢٦١ حـ ١ .
(١٠٧) الجبرتي - « عجائب الآثار » - ص ٩٩ حـ ٣ .
(١٠٨) المرجع السابق - ص ٩٩ حـ ٣ .
(١٠٩) المرجع السابق - ص ١٤٠ حـ ٣ .
(١١٠) المرجع السابق - ص ٤٠٨ حـ ٣ .
(١١١) المرجع السابق - ص ٤٦٧ حـ ٣ .
(١١٢) ادوارد وليم لين - « المصريون المحدثون » - ص ٤٠٦ .
(١١٣) المرجع السابق - ص ٤٠٦ .
(١١٤) المرجع السابق - ص ٤٠٧ .

(١١٥) المرجع السابق ـ ص ٤٠٨ .

(١١٦) هذه التي ذكرها ليست معلومة غير دقيقة ، فلم تكن الملكة (شجر الدر) هي أول من ارسل ستارة باب الكعبة المشرفة والمسماه باسم (البرقع) ، وإنما كان عام ٨١٠ هجرية هو عام إدخال ستارة باب الكعبة الحقيقي ، ولا يمكن بالطبع التاريخ بما جاء على لسان العامة في عصر (محمد علي) ، ارجع الى مجلة الفيصل العدد (١٢٦) ، ذو الحجة ١٤٠٧ هجرية الموافق اغسطس ١٩٨٧ ـ ص ٦٢ .

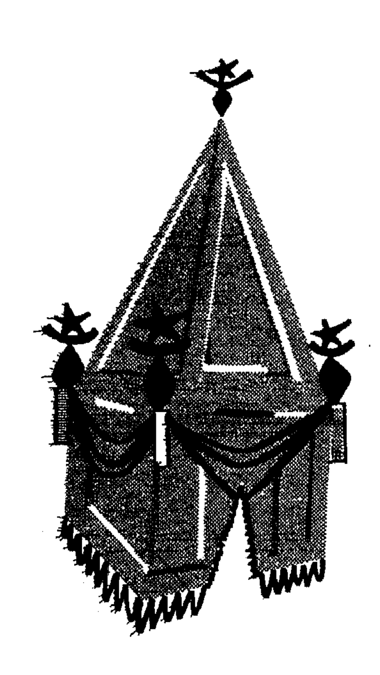
(١١٧) ادوارد وليم لين ـ « المصريون المحدثون » ـ ص ٤٠٩ .

(١١٨) من نص وثيقة الاشهاد الشرعي لكسوة عام ١٢٨٠ هجرية الموافق ١٨٦٤ ميلادية ، وهي منشورة في كتاب « اعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام » للشيخ محمد صالح الشيبي ـ ص ٢٩٨ .

(١١٩) عبدالله النديم ـ الأعداد الكاملة لمجلة الأستاذ ـ ص ٨٩٣ جـ ٢ ـ كتب خانة .

(١٢٠) من ارشيف دار كسوة الكعبة الشريفة .

□ □ □





ديار عمل كسوة الكعبة المشرَّفة وموظفـــوها

تقبع الآن (دار كسوة الكعبة الشريفة) فى حى الخرنفش بالقاهرة ، عند قرب التقاء شارع بين السورين وميدان باب الشعرية .

صحيح إن الدار الآن أصبحت هادئة الحركة والعمل إلا انها كانت ذات مجد عريق فى عمل كسوة الكعبة المشرَّفة منذ زمن بعيد .

وفى تاريخ عمل كسوة الكعبة المشرفة أماكن كثيرة صنعت بها ، مثل دمياط والقلعة ودور الأمراء ، ودار الخرنفش ودار الاسكندرية ومكة المكرمة .

فقد كانت (تنيس) بالقرب من دمياط ذات شهرة كبيرة فى عمل كسوة الكعبة المشرفة ، ومعها (شطا) و (تونه) منذ اوائل العصر العباسى كما ذكرنا من قبل ، نقلاعن (المقريزى) فى خططه .

وانتقل عمل كسوة الكعبة المشرَّفة إلى مشهد الامام (الحسين) - رضى الله عنه بالقاهرة فى العصر المملوكى ، فالقلقشندى - المتوفى سنة ٨٢١ هجرية - يقول عنها : « ... وهذه الكسوة تنسج بالقاهرة المحروسة بمشهد الحسين من الحرير الأسود ، مطرزة بكتابة بيضاء فى نفس النسج ، فيها : « إن أوَّل بيت وضع للناس - الآية »(١)

ولم يكن المشهد الحسينى هوالمكان الوحيد الذى تُنْسَج فيه وتُعْمَل كسوة الكعبة المشرفة ، بل كانت هناك (دار الطراز بثغر الاسكندرية) وعن هذه الدار قال (القلقشندى) ضمن ما سجل عن عام ٧٤١ هجرية :

« فليباشر هذه الوظيفة التى كانت فى سالف الزمان إلى الحكّام تضاف ، وللعلماء الأعلام عليها نظر وإشراف ، ومنها يسدل على اوليائنا لباس الإنعام ، وترسل أجناس الاتحاف ، وتسربل الكعبة البيت الحرام فى كل عام بجلبابها المحكم النسج المعلم الأطراف ، وليصن ذهبها عند صرفه وقبضه ، وليزن خزَّها بتقريب مشوبة وتحرير محصنة ، وليُبِن عن حسن التدبير فى إبرام حريرها ونقضه ، وليستجلب رجالها وصنّاعها ، وليجنب أحوالها ضياعها ، وليستجد أصنافها وانواعها ، وليتفقد أكنافها وبقاعها ؛ حتى يظهر فى أعمالها آثار الصلاح ، وتشكر مباشرته التى هى محمودة الانتهاء مسعودة الافتتاح ، والله يقرن رجاءه بالأرباح ، ويؤذن له حيث سلك بإصابة الصواب والفلاح ، بمنه وكرمه . »(٢)

ولقد أكد لنا وجود دار لعمل كسوة الكعبة المشرّفة في ثغر الإسكندرية ما ذكره (المقريزى) من أن السلطان المملوكي (الناصر محمد بن قلاون) إبان الفترة الثالثة لسلطنته في عام ٧١٩ هجرية عندما تجهّز للحجّ أمر ناظر الخاص (كريم الدين بن عبد الله بن السديد) بتجهيزه والسفر إلى الإسكندرية لعمل ثياب أطلس برسم الكعبة .[٣]

من هنا نستطيع أن نقف وقفة مع هذه الوظيفة المملوكية ، وهي وظيفة (ناظر الخاص) ، التي كلفت تضطلع بمهمة عمل كسوة الكعبة الشريفة إلى جوار الكساوى المملوكية الأخرى والخاصة بثياب السلطان والأمراء والمباشرين ، وأشياء أخرى كثيرة لكنها محددة .

لقد برزت هذه الوظيفة على سطح الأحداث لأول مرة في عام ٧١٤ هجرية في عهد السلطان المملوكي (الناصر محمد بن قلاون) ، إبان سلطنته الثالثة .

قال (ابن إياس) في ذلك : « ... أخلع السلطان على كاتبه القاضي (كريم الدين عبدالكريم بن عبد الله بن السديد) ، واستقرّ به ناظر الخاص : وهو أول من تلقب بناظر الخاص ، وأول من ولى هذه الوظيفة ، وهي محدثة ، فرع من الوزارة ؛ وموضوع هذه الوظيفة ، أن يكون مباشرها متحدّثًا فيما هو خاص من أمور المملكة وعام ، وأفردت إليه النفقات ، والكساوى ، وخُلع الأمراء والجند ، والأضحية ، وخلع عيد الفطر ، وكساوى حرم السلطان ، وما يجرى مجرى ذلك . »[٤]

فلما تولى هذه الوظيفة القاضي (كريم الدين بن السديد) ، عظم أمره ، فكان ـ كما ذكر (ابن إياس) ـــ يركب في خدمته الأمراء وأعيان الناس عندما كان ينزل من القلعة إلى بيته ، وصار له من الشأن ما أباح له حرية التصرف في خزائن بيت المال بعد أن فوضه السلطان بذلك ، وقال فيه الشعراء شعراً ذا مديح . وقد حجّ القاضي (كريم الدين بن السديد) مرتين : أولهما مع السلطان نفسه علم ٧١٨ هجرية ، وثانيتهما عام ٧٢١ هجرية مع محمل السلطانة (خوند طغاى) زوجة السلطان (الناصر محمد بن قلاون) .[٥]

ظل ناظر الخاص القاضي (كريم الدين بن السديد) يشغل وظيفته ، وعمل كسوةالكعبة المشرّفة في الإسكندرية علم ٧١٩ هجرية كما سبق ذكر ذلك (المقريزى) ، إلى أن عزله السلطان في عام ٧٢٢ هجرية ، وعيّن القاضي (تاج الدين بن عبدالوهاب) بدلا منه .[٦]

وفي عهد السلطان (الظاهر برقوق) خوّل السلطان لمن يشغل وظيفة الاستادار المشاركة في تجهيز كسوة الكعبة ، فكان اختصاص الاستادار كاختصاص الوزير وناظر الخاص جميعا[٧]

ولذلك ضرب السلطان (الظاهر برقوق) استاداره (جمال الدين محمود) « علقة صعبة » ـ كتعبير (ابن إياس) ـ بسبب تأخر الكسوة في علم ٧٩٧ هجرية عن عادتها .[٨]

قد يتبادر إلى ذهن احد أن هذه (العلقة الصعبة) كانت بسبب تأخر (الكسوة) أى كسوة السلطان أو الأمراء والاتباع ، إذ أن المعنى يشمل ذلك ، لكننا نلمح في الأحداث في شهر صفر من السنة التى تليها وبعد ثلاثة شهور فقط تغييراً جديداً ، وتعيين (علاء الدين على بن الطبلاوى) استادار خاص الخاص ، وناظر كسوة الكعبة ، عوضا عن (نجم الدين محمد الطنبدى) وكيل بيت المال .[9]

وفى عام ٨٢٤ هجرية عيّن السلطان المملوكي (الظاهر ططر) في وظيفة « نظر الخزانة والكسوة الشريفة » المملوك (شرف الدين بن تاج الدين بن نصر الله)[10]

وقد مدح (المقريزى) هذا الناظر لما بذله في عمل كسوة الكعبة المشرّفة في عام ٨٢٥ هجرية . قال يصف دوران المحمل المصرى وقتها : « أدير محمل الحاج بالقاهرة ومصر على ما جرت به العادة . وقد كثر الاعتناء بأمره ، وعملت كسوة الكعبة في غاية الحسن ، بحيث لم يعمل مثلها فيما أدركناه . وولى عملها (شرف الدين أبو الطيب محمد بن تاج الدين عبدالوهاب بن نصر الله) ناظر الكسوة ، لحسن مباشرته وعفته . »[11]

اما في عصر السلطان المملوكي (الأشرف إينال) فقد أصبح لمنصب ناظر الخاص أهمية كبيرة يقدرها ولاة الأمر وسائر الناس من العامة .

ففى شوال سنة ٨٥٩ أمر السلطان المملوكي (الأشرف إينال) بعمل كسوة للحجرة الشريفة ، فلما انتهى العمل منها عرضها ناظر الخاص (الجمالى يوسف) على السلطان ، فما كان من السلطان إلا أن أهداه خُلعة هى « كاملية حافلة »[12]

لم يكن ظفر ناظر الخاص (الجمالى يوسف) بكسوة من السلطان أو بخلعة منه يرتديها في مناسبة من المناسبات بذات قيمة تذكر بجوار حب الناس له بسبب براعته في عمله . وليس أدل على ذلك من يوم أن مرض (الجمالى يوسف) فخفقت له مشاعر الناس .

قال (ابن إياس) في حوادث شهر شوال سنة ٨٦٠ هجرية : « وفيه حصل للقاضى ناظر الخاص (يوسف) توعك في جسده ، فانقطع عن طلوع القلعة أياما ، ثم شفى بعد ذلك وطلع إلى القلعة ، فاخلع عليه السلطان كاملية حافلة ، ونزل من القلعة في موكب حافل وقدّامه أرباب الدولة وأعيان الناس ، وزينت له القاهرة من داره إلى القلعة ، وقعدت له جوق المغانى على الدكاكين ، وتخلّقت الناس بالزعفران ، ووقدوا له الشموع على الدكاكين ، وكان له يوم مشهود ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :[13]

يا جوهر الفرد الذى عن جسمه زال العرض
أجفان من أحببته تحمّلت عنك المرض

وفى عام ٩٠٨ هجرية أيام سلطنة (الغورى) عين السلطان ناظراً للكسوة

الشريفة هو القاضي (محيي الدين عبد القادر القصروى) . وكان يشغل قبل ذلك وظيفة ناظر الجيش .[١٤]

واحتفى السلطان (الغورى) بناظر الكسوة هذا في كل مناسبة خاصة بعمل الكسوة الشريفة . ففي يوم الاثنين تاسع عشر من شهر رمضان سنة ٩١٢ هجرية ذكر (ابن إياس) أنه : « عرضت كسوة الكعبة على السلطان ، وهى مزفوفة على رءوس الحمالين ، وشقوا بها القاهرة . وكان يوماً مشهوداً . وفي يوم الخميس تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان وهى مزفوفة ، فالبسه السلطان خلعة لكونه ثار في هذه السنة بالسداد »[١٥]

وبالطبع شمل هذا السداد ما ناطه به السلطان وكلفه من عمل كسوة الكعبة المشرفة ولوازمها .

كان يعد هذا الاحتفال يوم عيد يفرح به الخاصة والعامة ، وكان من أبرز الشخصيات فرحا بذلك ناظر الكسوة الشريفة ، الذى كان هذا اليوم بالنسبة له كيوم عرسه .

ففي يوم الخميس ثامن شوال : « عرضت كسوة الكعبة على السلطان ومقام (إبراهيم) ـ عليه السلام ـ وقد شقوا من القاهرة وهى على رءوس الحمالين مزفوفة ، فلبس القاضى ناظر الجيش (عبدالقادر القصروى) في ذلك اليوم خلعة كونه كان ناظر الكسوة أيضا . »[١٦]

وفي يوم رابع عشر شوال سنة ٩١٩ هجرية ذكر (ابن إياس) خبر وفاة أحد نظّار الكسوة الشريفة ، والذى شغل هذا المنصب أيام السلطان المملوكي (الأشرف قايتباى) ، والذى يعنينا هنا في هذا الخبر وصف ما كان يتمتع به هذا الناظر من مميزات وما كان له من مكانة طيبة بين علية الناس .

قال عنه : « كان أصله من الصعيد ، وخدم الأشرف (قايتباى) حين كان خاصكيا إلى أن بقى سلطانا ، ورأى في أيامه من العز والعظمة ما لا رآه غيره ممن سبقه ، وكان بيده مهترة الطشتخانة الشريفة ونظر الكسوة الشريفة والتحدث على جهات السلطان ، وكان غالب السعى لأرباب الدولة من بابه . ويقال كان متحصله في كل يوم نحواً من أربعين ديناراً . »[١٧]

وحينما جاء العصر العثمانى وغزت الدولة العثمانية مصر اختار السلطان العثمانى (سليم الأول) أبرز رجل في مصر في ذلك الوقت ليكون مشرفاً على شئون الدولة وهو ملك الأمراء (خاير بك) ، وأبقى (خاير بك) هذا القاضى (علاى الدين بن الإمام) في نظارة الخاص ، مضافاً لما بيده من وظائف عديدة ، وقيل إنه قرر في نظر الكسوة الشريفة أيضا وجعله أمير ركب المحمل أيضا ، وصار بيده خمس وظائف .[١٨]

كل هذا الاهتمام بعمل كسوة الكعبة المشرَّفة في العصرين المملوكي والعثمانى ، من ناحية الاهتمام بصنّاعها والقائمين عليها يثير لدينا تساؤلا . وهو أين كانت

تصنع كسوة الكعبة المشرّفة خلال هذين العصرين ؟

في الحقيقة لقد تأكد لدينا أن دار صناعة وعمل كسوة الكعبة المشرفة كانت في العصر المملوكي بالقلعة .

وقيل إنها عملت بداخل القلعة في (القصر الأبلق) الذى أنشاه السلطان المملوكي (الناصر محمد بن قلاون) سنة ٧١٣ هجرية .[١٩]

لقد ذكر (المقريزى) عن هذا القصر في خططه أنه كان به رسوم وعوايد ، تغير كثير منها وبطل معظمها ، وبقيت إلى الآن بقايا من شعار المملكة ، ورسوم السلطنة . »

وربما كانت حياكة وتطريز كسوة الكعبة المشرّفة من العوايد التى أشار إليها (المقريزى) بالبقاء في القلعة في داخل هذا القصر .

لقد كان هذا القصر مكان جلوس السلطان (الناصر محمد بن قلاون) لشئون الحكم ، وبه عدة قصور داخلية سماها (المقريزى) في خططه « قصور جوانية » - أى داخلية - ويعبر إليها خاصته من أرباب الوظائف في الأشغال المتعلقة به على ما تدعو الحاجة إليه ، ويقال لها خدمة القصر .

لقد وصف (المقريزى) هذا القصر الأبلق وصفا دقيقا ، من حيث مكوناته وأقسامه وزخارفه ، فقال : « وفي هذا القصر تجاه بابه رحبة يسلك إليها من الرحبة التى تجاه الأيوان . فيجلس بالرحبة التى على باب القصر خواص الأمراء قبل دخولهم إلى خدمة القصر . ويمشى من باب القصر في دهاليز مفروشة بالرخام ، قد فرش فوقه أنواع البسط ، إلى قصر عظيم البناء شاهق في الهواء بايوانين : أعظمهما الشمالى ، يطل منه على الاسطبلات السلطانية ، ويمتد النظر إلى سوق الخيل والقاهرة وظواهرها إلى نحو النيل ، وما يليه من بلاد الجيزة وقراها . وفي الإيوان الثانى القبلى باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه إلى الإيوان الكبير أيام الموكب ، ويدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوانية : منها واحد مسامت لأرض هذا القصر ، واثنان يصعد إليهما بدرج ، في جميعها شبابيك حديد تشرف على مثل منظرة القصر الكبير . وفي هذه القصور كلها مجارى الماء مرفوعا من النيل بدواليب تديرها الأبقار من مقره إلى موضع ثم إلى آخر ، حتى ينتهى الماء إلى القلعة ، ويدخل إلى القصور السلطانية وإلى دور الأمراء الخواص المجاورين للسلطان ، فيجرى الماء في دورهم ، وتدور به حماماتهم . وهو من عجائب الأعمال لرفعته من الأرض إلى السماء . وهذه القصور جميعها من ظاهرها مبنية بالحجر الأسود والحجر الأصفر ، موزّرة من داخلها بالرخام والفصوص المذهبة المشجرة بالصدف والمعجون وأنواع الملونات ، وسقوفها كلها مذهبة قد موهت باللازورد ، والنور يخرق في جدرانها بطاقات من الزجاجات القبرسى الملون كقطع الجوهر المؤلفة في العقود . وجميع الأراضى قد فرشت بالرخام المنقول إليها من أقطار الأرض ، مما لا يوجد مثله . »[٢٠]

ولقد عثرنا على مكان عمل وزركشة . كسوة الكعبة المشرّفة في العصر العثماني أثناء ولاية (على باشا) على مصر من خلال كتابة أحد الرحّالة الشوام خلال زيارته لها في عام ١١٠٥ هجرية الموافقة ١٥٩٦ ميلادية .

هذا الرحّالة هو العالم الفاضل (عبدالغني بن إسماعيل النابلسي ، المولود في عام ١٠٥٠ هجرية والمتوفى عام ١١٤٣ هجرية

لقد ذهب في يوم سادس عشر من جمادى الأولى سنة ١١٠٥ هجرية للتفرج على قلعة الجبل ، وبعد أن شاهد أبراجها قال : « ثم دخلنا إلى محل قصر يوسف عليه السلام ورأينا المكان الذى يعملون فيه ثوب الكعبة هناك ، فيحيكونه بسداوات من الحرير ، بعضها فوق بعض ، وناس قاعدون فوق ذلك على دفوف مرتفعة ، وناس قاعدون تحت على كراسى ، فإذا حاكوا حصة من ذلك ظهرت الكتابة فيه ، ورأينا هناك قالبا من الأخشاب المنحوتة كبيرا بمقدار الكعبة ، يفككونه ويشبكونه ببعضه بعضا ، يقيسون عليه كسوة الكعبة على مقدار الكعبة ، دايما يشتغلون في ذلك من السنة إلى السنة . ورأيناهم يحيكون أيضا ثوبا للقبر الذى في داخل حجر إبراهيم - عليه السلام - بقرب الكعبة . ودخلنا إلى مكان آخر ، فرأينا أناسا يحيكون البسط المستطيلة التى تشبه السجادات المتصل بعضها ببعض ، ذات المحاريب الملونة لبسطها في مسجد المدينة وغيره ، فلما وجدنا ذلك تفائلنا بحصول الحج الشريف لنا إن شاء الله تعالى . »[٢١]

ويقول (كازانوفا) : إن بيت (قصر) يوسف ليس شيئا آخر سوى القصر الأبلق الذى أنشأه السلطان (الناصر محمد بن قلاون) في شعبان سنة ٧١٣ هجرية .[٢٢]

وخلال الفترة التى عاشها (الجبرتى) شهد بنفسه نزول كسوة الكعبة من القلعة والاحتفال بها أمام الناس ، ففى حوادث شهر شوال سنة ١٢٠٠ هجرية ، قال : « وفي يوم السبت ، نزلت الكسوة من القلعة على العادة إلى المشهد الحسينى ، وركب (إبراهيم بك) الكبير و (إبراهيم بك) أمير الحاج إلى قراميدان ، ونزل الباشا كذلك ، وأكد على أمير الحاج في التشهيل ، فاعتذر إليه بتعطيل الأسباب ، فوعده بالمساعدة . »[٢٣]

كما ذكر ذلك في حوادث شهر شوال سنة ١٢٠٢ هجرية ، حيث قال : « وفي يوم السبت ثامنه نزلوا بكسوة الكعبة من القلعة إلى المشهد الحسينى على العادة . »[٢٤]

وفي عام ١٢١٣ هجرية ابتدأ عمل كسوة الكعبة المشرّفة يأخذ له مكانا آخر غير قلعة الجبل ، قلب ومركز نظام الحكم في مصر ، وانتقل إلى ديار بعض كبار رجال مصر المبرزين ، وكان أولى بذلك أكبر اسم في القاهرة ، وهو الذى يشغل منصب يعادل حاكم القاهرة أو محافظها ، أو ما يسمى باسم الكتخدا .

قال (الجبرتى) في حوادث شهر شوال من هذا العام : « ... وكان نسج

الكسوة بدار (مصطفى كتخدا) المذكورة ، وهو على خلاف العادة من نسجها بالقلعة . »[٢٥]

وبخروج عمل وزركشة كسوة الكعبة المشرفة من القلعة إلى ديار كبار رجال مصر أعطى هذا اتباعهم الحق فى ان يكونوا هم نظار الكسوة الشريفة بالطبع ، لانهم كانوا المشرفين على تنفيذها وزركشتها ، وكان يحق لهم الظهور فى احتفال الكسوة الشريفة وهم تحفهم كل مظاهر الابهة والفخامة ، بزفة موسيقية وحفل استعراضى كبير كالمعتاد ، وهذا ما حدث فى احتفال عام ١٢١٣ هجرية .

ولان هذا العام كان عام الغزو الفرنسى بقيادة (نابليون بونابرت) على مصر ، ولان (مصطفى كتخدا) هذا قد عُيّن اميراً للمحمل المصرى ، وفرّ من وجه جنود الحملة الفرنسية ، فقد ذكر (الجبرتى) انه فى يوم الاحد الرابع والعشرين من شوال ارسل جنود الحملة إلى داره عسكراً قبضوا على رب بيته الذى كان ناظراً على الكسوة ومعه اتباعه فى الدار ، وارسلوهم من الدار إلى النار ، اى إلى سجن الجيزة .[٢٦]

وعلى ما يبدو إن كسوة الكعبة المشرفة هذه لم تكن كاملة او جاهزة للسفر إلى الاراضى الحجازية مع قافلة حجّاج سنتها ، لذا رُؤى تعيين السيد (إسماعيل الوهبى) المعروف باسم (الخشاب) للنظر فى اتمامها ، فانتقلت إلى بيت (ايوب جاويش) بجوار مشهد السيدة زينب ، وتمموها هناك كما ذكر الجبرتى .[٢٧]

وبيت (ايوب جاويش) هذا هو حوش (ايوب بك) الذى كان موجوداً بعد المسجد الزينبى فى اتجاه شارع زين العابدين بالسيدة زينب ، وظل موجوداً حتى اوائل الستينات من هذا القرن ، ثم هدم ، وكان ذو فناء واسع نصفه مسقف والنصف الآخر مكشوف ، ومدخله معقود بالحجر ويحتوى على قاعات فسيحة ذات دورين شاهدناها بانفسنا وقتها ، وكان يشغله تجار الروبابيكيا والادوات القديمة المهملة .

ويذكر لنا (الجبرتى) فى حوادث شهر رجب سنة ١٢١٩ هجرية ان عمل وزركشة كسوة الكعبة المشرفة انتقل إلى بيت آخر .

قال : « وفى هذا الشهر ، شرعوا فى عمل كسوة الكعبة بيد السيد (احمد المحروقى) فقيد بها وكيله بذلك ، وشرعوا فى عملها فى بيت الملا بحارة المقاصيص »[٢٨]

وهذا البيت وصفه كل من (على باشا مبارك) و (المقريزى) ، فقال الاول : إنها دار دخلت فى وقف الملا ، وعرفت فى وقت (على باشا مبارك) باسم (دار الملا) ، وهذه الدار باقية على اصلها تجاه من يسلك من ناحية باب سر المارستان المنصورى طالبا سوق الصياغة او المقاصيص ، لانها فاصلة بين السوقين ، فالخارج منها يصير بين ثلاثة مسالك : واحد عن يمينه يتوصل منه إلى المقاصيص والخردجية ، والثانى عن يساره يسلك منه إلى ما بين دكاكين الصياغ وإلى حارة

اليهود والثالث امامه يسلك منه إلى المارستان المنصورى ، ويوجد بهذه الدار إلى اليوم مقعد عظيم جدا ، وقاعة أرضية كبيرة ذات إيوانين بينهما درقاعة ، ولها مدخل كبير ، وسقفها مرتفع إلى الغاية ، ويوجد بها أيضا جملة مداخل ومخازن .(٢٩)

اما (المقريزى) فقد ذكرها فى خططه فى موضعين : الأول تحت عنوان (رحبة بيبرس الحاجب) ، والثانى تحت عنوان (دار بيبرس الحاجب) .

فقال عن (رحبة بيبرس الحاجب) : هذه الرحبة بخط حارة العدوية عند باب سر الصاغة . عُرفت بالأمير بيبرس الحاجب لأن داره بها . وبيبرس هذا هو الذى ينسب إليه غيط الحاجب بجوار قنطرة الحاجب . وبهذه الرحبة الآن فندق الأمير الطواشى ، زمام الدور السلطانية ، (زين الدين مقبل) . وبه صار الآن هذا الخط يعرف بخط فندق الزمام بعد ما كنا نعرفه يعرف بخط رحبة بيبرس الحاجب .(٣٠)

ثم قال عن (دار بيبرس الحاجب) : هذه الدار بخط حارة العدوية ، وهى الآن من خط باب سر المارستان : عرفت بالأمير بيبرس الحاجب صاحب غيط الحاجب فيما بين جسر بركة الرطلى والجرف .(٣١)

وقال : إن هذه الدار كانت من ابهج دور القاهرة واعظمها ، وانتقلت ملكيتها من اولاد (فضل الله) إلى الأمير (تغرى بردى) الذى صادرها لحسابه ، ولم تستطع ابنة صاحب الدار أن ترجعها إلى ملكيتها بسبب مخاصمات بينها وبين ورثة الأمير (تغرى بردى) هذا .

دار كسوة الكعبة الشريفة بالخرنفش :

بعدما تولى (محمد على) الحكم فى مصر عام ١٢٢٠ هجرية الموافق ١٨٠٥ ميلادية انتقل عمل وزركشة كسوة الكعبة المشرَّفة إلى القلعة مرة اخرى بحكم رجوع مركز الحكم إلى هناك ، وظل الأمر مستمراً كذلك إلى أن انشا دار الخرنفش فى عام ١٢٣٣ هجرية .

ولقد ذكر (الجبرتى) فى احداث شهر ذى الحجة من هذه السنة احداثا كثيرة ، « ومنها ، العمارة التى امر بإنشائها الباشا المشار إليه بين السورين وحارة النصارى المعروفة بخميس العدس ، المتوصل منها إلى جهة الخرنفش ، وذلك بإشارة اكابر نصارى الافرنج وغيرهم ، وهى عمارة عظيمة ابتدؤا فيها من العام الماضى ، واستمروا مدة فى صناعة الآلات الاصولية ، التى يصطنع بها اللوازم ، مثل السندالات ، والمخارط للحديد ، والقواديم ، والمناشير ، والتزجات ، ونحو ذلك ، وافردوا لكل حرفة وصناعة مكانا وصنّاعا يحتوى المكان على الأنوال والدواليب والآلات الغريبة الوضع والتركيب ، لصناعة القطن وانواع الحرير والاقمشة المقصبات . »

وبعد أن تمّ تجهيز هذه الورشة بالآلات والمعدات بقى تدريب الأيدى العاملة

على تشغيلها . وفى هذا الغرض قال (الجبرتى) ايضا : « وفى أواخر هذاالعام ، جمعوا مشايخ الحارات والزموهم بجمع أربعة آلاف غلام من أولاد البلد ؛ ليشتغلوا تحت أيدى الصنّاع ، ويتعلموا ، ويأخذوا أجرة يومية ، ويرجعوا لأهاليهم أواخر النهار ، فمنهم من يكون له القرش والقرشان والثلاثة بحسب الصناعة وما يناسبها ، وربما احتيج إلى نحو العشرة آلاف غلام بعد اتمامها والمحتاج إليه فى هذا الوقت القدر المذكور ، وهى كرخانة عظيمة صرف عليها مقادير عظيمة من الأموال . »(٣٢)

ومما أشار (الجبرتى) نرى أن تشغيل هذه الدار كان بغرض صناعة الأقمشة المختلفة ، وضمن هذا عمل كسوة الكعبة المشرفة بها ، إذ أنها من المقصبات التى اشار إليها .

ودار كسوة الكعبة المشرّفة ذكرها (على باشا مبارك) فى خططه تحت عنوان (ورشة الخرنفش) ، ويفهم من كلامه عنها أنها كانت داراً لأحد الأمراء المصريين - وإن لم يذكر لنا من هو - ثم جعلها (محمد على) ورشة للأغراض السابق ذكرها ، ثم يقول : « ... وهذه الورشة موجودة إلى الآن على ذمة الميرى ، لكنها بطلت كما بطل غيرها من الورش ، وهى اليوم معدة لتشغيل كسوة الكعبة الشريفة ، ادام الله تعظيمها . »(٣٣)

وقد سمى (كلوت بك) هذه الدار باسم (فاوريقة) وهو ما نعرفه الآن باسم فابريكا أو مصنع ، وقال عن محتوياتها أنها كانت مائتى عجلة ، عشر منها للغزل الغليظ والباقى للغزل الدقيق . وتحمل المائة الأولى مائة مغزل وثمانية مغازل على خط واحد والمائة الثانية مائتين وستة عشر . »(٣٤)

ويضيف (عبد الرحمن الرافعى) نقلا عن (مانجان) واصفا المحتويات : « وفى الفابريقة سبعون ماكينة ، وعدد يوازيها من العدد الأخرى لتجهيز القطن قبل غزله ، وعدا دواليب الغزل ومغازله كان يوجد بالفابريقة قسم للنسيج به ثلثمائة نول تنسج من خيوط القطن أقمشة مختلفة أنواعها كالبافتة والموسلين والبصمة والشاش والباتست . والأقمشة التى تنسج فى هذه الفابريقة كانت ترسل لتبيضها فى المبيضة التى انشئت لهذه الغاية على شاطىء النيل بين بولاق وشبرا ، ثم تعاد إلى مخازن الخرنفش لتباع لمن يطلبها ، ويوجد بالفابريقة ورش للحدادين والسباكين والخراطين والنجارين لإصلاح الآلات التى يصيبها العطب »(٣٥)

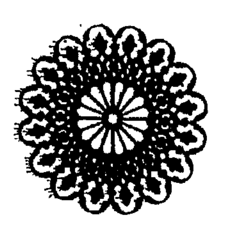
إذا فدار كسوة الكعبة الشريفة الموجودة الآن هى وريثة تراث عريق ، وهذا التراث تنقل هنا وهناك ، عبر بعض المدن والقرى المصرية التى اشتهرت بها إلى أن استقر فى دار كسوة الكعبة الشريفة بالخرنفش .

كان صنّاع الكسوة المشرّفة وعمال زركشتها من تقاليدهم المرعية أن لا يقوموا بالعمل فيها إلا إذا كانوا جميعا فى تمام الوضوء .

، وفى بداية عملهم اليومى يقومون بترديد جماعى لفاتحة القرآن الكريم - على غرار طريقة إلقاء طلاب الكتاتيب - بصوت جهورى يرج ، ليس فقط أرجاء دار الكسوة الشريفة وحدها بل أرجاء شارع الخرنفش كله من أوله إلى آخره ، ثم يطلقون من حولهم البخور ، وبعد ذلك يرددون الآية القرآنية الكريمة : « بسم الله الرحمن الرحيم . إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما »(٣٦)

ولقد كانت دار الكسوة الشريفة عامرة بعمالها وزاخرة بفنييها ممن كانوا يقومون بالزركشة ، ومن واقع كشف بأسماء أسطوات هذه الحرفة نستطيع أن نحددهم على النحو الآتى :





بيان تواريخ اشتغال عمال الزركشة وتعهدهم مع مصلحة الكسوة الشريفة منذ عام ١٨٨٣ ميلادية الموافق ١٣٠١ هجرية ، وهو أقدم كشف أمكن العثور عليه

مسلسل	الاسم	تاريخ تعهده	تاريخ انقطاعه	ملاحظات
١	محمد سالم	سنة ١٨٨٣	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٣٦
٢	أحمد حافظ	سنة ١٨٨٣	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٣٦
٣	مصطفى الليثي	سنة ١٨٨٣	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٣٦
٤	حسن أحمد	سنة ١٨٨٣	سنة ١٩١١ـ١٩١٢	عاد الى المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٣٦
٥	مصطفى درويش	سنة ١٨٨٣	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٣٦
٦	محمد صالح	سنة ١٨٨٣	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٣٦
٧	محمد السنباطي	سنة ١٨٨٤	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٣٦
٨	محمد حسن السباك	سنة ١٨٨٤	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٣٦
٩	علي حسين	سنة ١٨٨٤	سنة ١٩١١	عين رئيسا لعمال الزركشة
١٠	حافظ محرم		سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٣٦
١١	محمد أحمد العطار	سنة ١٨٩٠	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	لم يعد لمرضه
١٢	أحمد أحمد الحلو	سنة ١٨٩٠	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة
١٣	حسين محمد الليثي	سنة ١٨٩٠	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	لم يعد لاشتغاله بعمل الرسم والتخريم بالمصلحة بالماهية
١٤	محمد محمد الفيجوي	سنة ١٨٩٠	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٣٦
١٥	محمد مرزوق	سنة ١٨٩٠	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٣٦
١٦	محمد مصطفى ربيع	سنة ١٨٩٢	سنة ١٩١٢ـ١٩١٣	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٤ـ١٩٢٥ ومع المصلحة في ١٩٢٥ـ١٩٣٦
١٧	ابراهيم الحجراني	سنة ١٨٩٢	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٤ـ١٩٢٥ ومع المصلحة في ١٩٢٥ـ١٩٣٦
١٨	يوسف حسن	سنة ١٨٩٢	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة في ١٩٢٥ـ١٩٣٦
١٩	محمد حلمي المويلحي	سنة ١٨٩٧	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عين ملاحظا باليومية بالمصلحة في ١٩٢٥
٢٠	أحمد علي	سنة ١٨٩٨	سنة ١٩٢٣ ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة في ١٩٢٥ـ١٩٣٦

مسلسل	الاسم	تاريخ تعهده	تاريخ انقطاعه	ملاحظات
٢١	حسن عزت	سنة ١٨٩٨	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٢٢	محمد ربيع	سنة ١٨٩٨	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٢٣	محمد فتوح	سنة ١٨٩٨	سنة ١٩١٩ـ١٩٢٠	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٤ـ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٢٤	محمد محمد حسن السباك	سنة ١٩٠٦	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٢٥	محمد حسن ندا	سنة ١٩٠٦		عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٤ـ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٢٦	محمد زكي الجابي	سنة ١٩٠٦	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٢٧	أحمد ندا	سنة ١٩٠٧	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة في ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٢٨	حسن مصطفى	سنة ١٩٠٨	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٢٩	محمد محمد خلف	سنة ١٩٠٩	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٣٠	محمد محمد حسن ندا	سنة ١٩٠٩	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٣١	محمد ماهر	سنة ١٩١١	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٣٢	حسن محمد العطار	سنة ١٩١٢	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٣٣	مصطفى سامي	سنة ١٩١٢	سنة ١٩١١ـ١٩١٢	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٣٤	عبد الحليم محمد	سنة ١٩١٢	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٣٥	على محرم	سنة ١٩١٢	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٣٦	محمد حسين الليثى	سنة ١٩١٤	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٣٧	على درويش	سنة ١٩١٤	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٣٨	محمود حسن محرم	سنة ١٩١٥	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٣٩	عبد السلام أحمد الحلو	سنة ١٩١٦	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٤٠	محمود على	سنة ١٩١٧	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٤١	عبد السلام محرم	سنة ١٩١٧	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٤٢	على مرزوق	سنة ١٩١٨	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٤٣	عبد المجيد حافظ	سنة ١٩١٨	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦

مسلسل	الاسم	تاريخ تعهده	تاريخ انقطاعه	ملاحظات
٤٤	اسماعيل أحمد	سنة ١٩٢٠	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد في ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦
٤٥	حسن عيسى	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٤٦	على مختار المرعشلى	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٤٧	أحمد عبد الغنى	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٤٨	عبد الرازق محمد	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٤٩	سعيد أحمد أمين	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٥٠	يوسف اسماعيل أصيل	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٥١	عبد الحميد محمد الجمركشى	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٥٣	سعيد أحمد عبد الوهاب	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٥٣	عثمان عبد الحميد	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٥٤	بدوى محمود	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٥٥	محمد أحمد عابدين	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٥٦	ابراهيم سلامة	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٥٧	سيد عاشور	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٥٨	محمد رفاعى	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٥٩	محمد فؤاد	١٩٢٤ـ١٩٢٥	سنة ١٩٢٥ـ١٩٢٦	السنة الأولى مع المتعهد والثانية مع المصلحة
٦٠	اسماعيل أحمد	١٩٢٠	سنة ١٩٢٣ـ١٩٢٤	عاد الى العمل مع المتعهد فى ١٩٢٥ ومع المصلحة ١٩٢٥ـ١٩٢٦

تحريرا فى يناير سنة ١٩٢٨

ولقد برز في عهد الخديو (إسماعيل) من موظفي تشغيل وزركشة كسوة الكعبة الشريفة في عام ١٢٨٠ هجرية الموافق ١٨٦٤ ميلادية كل من :

١ ـ حسين فخرى جعفر : وكان يشغل منصب مأمور تشغيل الكسوة الشريفة ، وحصل على رتبة البكوية ، وهو ابن رئيس مجلس مدينة طندتا ـ أى طنطا ـ وهو الحاصل على رتبة الباشوية .

٢ ـ حسن محمد الهجين : متعهد تشغيل الكسوة الشريفة .

٣ ـ محمد محمد الشيّخه : رئيس تشغيل الكسوة الشريفة .

٤ ـ على محمد الهجين : فني زركشة .

٥ ـ مصطفى عبد اللطيف : فنى زركشة .

٦ ـ سيد أحمد الخيمى : عامل .

وقد حضروا جميعا وقائع تسليم كسوة الكعبة المشرّفة في هذا العام إلى المحملى الحاج (أحمد مصطفى) كما هو ثابت بإشهاد الكسوة الشريفة .[٣٧]

وعمرت دار كسوة الكعبة الشريفة بعمّالها وفنييها في الزركشة ، وكان يكتب لها الخطوط كبار ائمة الخط في مصر ، وقد عُرف من هؤلاء :

١ ـ عبد الله زهدى : اشتهر بكتابة كساوى عديدة للكعبة المشرّفة إلى جوار كتابة الحرمين وسبيل أم عباس بالصليبة بالقاهرة وتوفى عام ١٨٨٠ ميلادية الموافقة ١٢٩٦ هجرية .[٣٨]

٢ ـ مصطفى الحريرى : وتتلمذ على يد (عبد الله زهدى) وكتب عدة كساوى للكعبة المشرفة .[٣٩]

٣ ـ مصطفى غزلان : كان رئيس قسم التوقيع بديوان الملك (فؤاد الأول) وكتب عدة كساوى منها كسوة عام ١٣٥٥ هجرية .[٤٠]

٤ ـ حسين أفندى محمد الليثى : عمل رساما بدار الكسوة الشريفة ، وقام بعمل بعض الزخارف لها .[٤١]

ومع مطلع القرن العشرين وحتى اواخره ظهرت أسماء عدة في إدارة دار كسوة الكعبة الشريفة بالخرنفش ، منها :

١ ـ عبد الله فائق إسماعيل إبراهيم : وكان يسكن في منطقة المحجر بالقلعة وظهر في احتفال الكسوة الشريفة في عام ١٩٠١ ميلادية الموافق ١٣١٨ هجرية ببدلة تشريفة كاملة ، وهي الزى الرسمي ، وامتطى جواداً وعلى يديه المبسوطتين كان كيس مفتاح الكعبة المعظمة .[٤٢]

وقام في هذا الحفل بقيادة جمل المحمل وقدم مقوده إلى الخديو ثم قاضى القضاة وبعض الحضور ليقبلوه جميعا .[٤٣]

ثم قام بتسليم زمام المحمل إلى الخديو الذى سلمه هو الآخر لأمير الحجّ .[٤٤]

وبقى (عبد الله فائق) مديراً للكسوة حتى ١٣٢٧ هجرية الموافق ١٩١٠ ميلادية . وقد وفد على دار الكسوة الشريفة مديرون عديدون أمثال (عبد الله بك)

قبل عام ١٩٤٨ ، و (محمد شلبى طوبار) سنة ١٩٤٨ ، و (محمد إبراهيم صالح) سنة ١٩٥٤ ، و (محمد مصطفى ناجى) سنة ١٩٦٥ ، و (سيد مصيلحى) سنة ١٩٨٥ .والذى مازال مديرها حتى وقت صدور هذا الكتاب فى مايو ١٩٩١ ميلادية .

وبدار كسوة الكعبة المشرّفة بالخرنفش نلمح على جدران حجرة مدير إدارتها الأستاذ (سيد مصيلحى) بعض شهادات تقديرية حصلت عليها الدار فى عدة مهرجانات محلية وعالمية شهدت لها بالتفوق والاتقان والإبداع فى أيام عزها الغابر .. !

ففى مارس سنة ١٩٢٦ حصلت دار الكسوة الشريفة من الجمعية الزراعية الملكية على شهادة تقدير والميدالية الذهبية للمعرض الزراعى والصناعى . وفى عام ١٩٣٠ حصلت على دبلوم التفوق من بلجيكا ، كما حصلت فى عام ١٩٣١ على الجائزة الأولى من الجمعية الزراعية الملكية للمرة الثانية ، وفى عام ١٩٣٧ حصلت دار الكسوة الشريفة على شهادة تقديرية من فرنسا لاشتراكها فى معرضها هناك . كل هذه الشهادات التقديرية ما هى إلا أصابع تشير إلى عظمة مجد دار الكسوة الشريفة الغابر ، والتى لو شاء لها القدر أن تشير مرة أخرى إلى حالها اليوم لارتفعت صوب السماء قائلة : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .. !!

فلم يعد بالدار احد ممن نسج مجدها ، وهجرها من أراد أن يتعلم هذه الحرفة ، وساءت وسائل الحفظ بها ، وبقيت الكسوة الوحيدة الأخيرة بها صريعة أنياب ومخالب الفئران التى ترعى فيها منذ عام ١٩٦١ كما يقول بذلك عم (محمد عودة) امين مخزن الدار .

ولم يبق بدار الكسوة الشريفة سوى (كامل يوسف أصيل) ، البالغ من العمر ٥٣ سنة ، ينحنى فوق المنسج ، وبيديه يمسك بخيوط المخيش فوق اقمشة كساوى بعض أضرحة الأولياء ، وبالطبع شتان ما بين عمل كسوة ضريح لولى وكسوة للكعبة المشرَّفة .. !!

فى عام ١٩٨٨ كان بدار الكسوة الشريفة من عمّال زركشتها كل من :

١ ـ أحمد سعيد عرق ـ ٦٣ سنة
٢ ـ محمد سعيد عرق ـ ٦٥ سنة
٣ ـ عبد المنعم يوسف اصيل ـ ٥٩ سنة
٤ ـ كامل يوسف أصيل ـ ٥٠ سنة

وكان قد سبقهم إلى المعاش (أحمد سعيد عبدالوهاب) ، ورحل (عبدالعزيز ندا) عن عالمنا إلى ربه ، كما رحل فى عام ١٩٨٧ شيخ وأستاذ فن زركشة كسوة الكعبة المشرَّفة (محمد محمد سليمان خلف) ، والذى وصل به العمر إلى سن المائة ، أعطى خلال حياته كل خبرته للفن الذى عشقه وتعلمه من والده وجده وهو فن زركشة كسوة الكعبة المشرَّفة ، وعلى الرغم من أنه لم يعلم أحداً من أولاده هذه المهنة ، إذ أنه لم يرزق سوى بابنة وحيدة إلا أن الجيل الأخير من

عمّال زركشة كسوة الكعبة المشرّفة يدينون له بالفضل لتعلمهم أصول فنهم على يديه ، كما علّم أجيالا سابقة لهم أيضا ، وظل حتى النفس الأخير محتفظا بالإبرة والكستبان والمقص وخيوط المخيش الفضية والمذهبة في منزله بمدينة نصر .

وكان من الطبيعي ونحن نلم شتات هذا الفن العريق من افواه من عاصروه أن نجلس إلى بعضهم ، ومنهم الحاج (محمد محمد سليمان خلف) ونستمع إليه عدة ساعات ، ولكن لأن مشيئة الله سبقت كل مشيئة فقد رحل هذا الأستاذ الفنان دون أن نأخذ منه ما يروى الظمأ إلا القليل النادر .

وعلى الرغم من تكرار زيارتنا لدار كسوة الكعبة الشريفة بالخرنفش على مدار سنوات عديدة للبحث والتنقيب بين آثارها وفنييها ، فلم نجد من الجيل الذى كان يقوم بعمل وزركشة كسوة الكعبة المشرّفة سوى فرد واحد حو آخر الرجال المحترفين لزركشتها .. !

آخر الرجال المحترفين :

يعد الحاج (كامل محمد حسن أمين ندا) آخر الرجال المحترفين في عمل وزركشة كسوة الكعبة المشرّفة . ويبلغ من العمر ٦٢ سنة ، وهو الآن بالمعاش ، غير انه لم يترك خيوط المخيش حتى هذه اللحظة من يده ، حيث مازالت أصول الحرفة تلازمه ، وينصب في بيته بالإمام الشافعي منسجا ، يزركش عليه اللوحات القرآنية ، التى لازال يطلبها منه عشّاق هذا الفن والأثر الإسلامي العريق .

كان والده يعمل بنفس الحرفة ، عامل زركشة بدار الكسوة الشريفة بالخرنفش ، وهذا الوالد ورث المهنة عن أبيه كذلك ، حيث كانت عائلة (ندا) من العائلات المشهورة في عمل وزركشة كسوة الكعبة الشريفة منذ أجيال وأجيال .

وللحقيقة ، لم يكن الحاج (كامل) عندما كان صبيا في علم ١٩٤٧ يريد أن يعمل في مهنة أبيه التي ورثها عن الجدود ، فقد بهرته الوظيفة (الميرى) في سلاح المهمات مثل باقي أصحابه ممن كانوا في مثل سنه ، غير أن الحاج والده ونصحه له جعلاه يمتثل في النهاية ويرضخ ، ويقبل العمل بدار الكسوة الشريفة على مضض ، لأن والده كان يعتقد أن العمل في زركشة كسوة الكعبة المشرّفة يعد بركة لاتعدلها بركة ، وقد كان .

دخل الصبي الصغير (كامل) دار الكسوة الشريفة بالخرنفش في عام ١٩٤٧ ، فوجدها عامرة بالأسطوات من كبار السن الذين برعوا في عمل الزركشة ، وكان بها نحو ستين من الفنيين وعمّال الزركشة لقد وجد وقتها منهم : ـ

١ ـ الحاج / محمد محمد سليمان خلف ـ ٦٠ سنة

٢ ـ على محرم ـ ٥٥ سنة

٣ ـ زكى الجابى ـ ٦٠ سنة

٤ ـ يوسف أصيل ـ ٤٠ سنة

٥ ـ أحمد ندا (عمه) ـ ٦٠ سنة



■ الحاج كامل محمد حسن أمين ندا آخر الرجال المحترفين حينما كان يعمل بدار الكسوة فى السعودية عام ١٩٧٥ ميلادية ■

٦ ـ عبدالعزيز احمد ندا (ابن عمه) ـ ٣٥ سنة
٧ ـ عثمان القصبجي ـ ٥٠ سنة
٨ ـ الأسطى باشا / محمد على الملحى ـ ٦٠ سنة.[٤٥]
٩ ـ محمد مرزوق ـ ٦٥ سنة
١٠ ـ مصطفى سامى ـ ٤٠ سنة
١١ ـ ماهر على حسن ـ ٦٠ سنة
١٢ ـ عبد السلام محرم ـ ٤٠ سنة
١٣ ـ عبد الحليم احمد على ـ ٥٠ سنة
١٤ ـ عبدالرازق محمود الجمركشى ـ ٦٠ سنة
١٥ ـ عبدالحميد الجمركشى ـ ٧٠ سنة
١٦ ـ سعيد عبدالوهاب ـ ٤٠ سنة
١٧ ـ احمد على ـ ٦٠ سنة
١٨ ـ سعيد امين ـ ٤٢ سنة
١٩ ـ الحاج / حسن امين ندا (والده) ـ ٥٠ سنة
٢٠ ـ امين ندا ـ ٦٠ سنة
٢١ ـ محمد الدجوى ـ ٦٠ سنة
٢٢ ـ عبد السلام الحلو ـ ٥٠ سنة
٢٣ ـ إسماعيل الحلو ـ ٦٠ سنة
٢٤ ـ عبد المجيد حافظ ـ ٤٠ سنة
٢٥ ـ فؤاد عبد المجيد ـ ٤٠ سنة
٢٦ ـ إبراهيم سلامة ـ ٥٠ سنة

اكتسب الحاج (كامل) أصول الصنعة بالصبر والمثابرة إلى ان اصبح ممن يتميزون بالدقة والمهارة فى عمل كساوى الكعبة الشريفة التى عملت وزُرْكِشَتْ بالدار مع قدوم كل عام .

ذات يوم من ايام عام ١٩٧٤ ، اراد أن يؤدى فريضة الحجّ ، فذهب إلى الأراضى الحجازية لتادية الفريضة على نفقة رئاسة الجمهورية ، واثناء طوافه ببيت الله الحرام لم ينس مهنته فى عمل زركشة كسوة الكعبة الشريفة ، فقد لاحظ ان الكسوة الشريفة التى قامت بصنعها المملكة العربية السعودية بها اخطاء فنية لا ترضيه كاسطى متمرس فى مهنة زركشة الكسوة المشرّفة ، فعلى حد تعبيره لاحظ ان (الشغل راكب فوق بعضه) ، بحيث تبدو الآيات غير مصفوفة كماكانت اصول الحرفة تقتضيها ، ولم يملك من الامر شيئا وقتها سوى ان يعود إلى مصر بعد ان ادى فريضة الحج ، ويلوذ بالصمت .. !

فى مصر اخذ الحاج (كامل) يفكر فى كيفية تصحيح هذا الخطا الفنى ، فتقدم لاداء العمرة على نفقته الخاصة ، وسافر إلى الأراضى الحجازية ، وهناك قابل المسئولين عن دار الكسوة السعودية ، وشرح لهم وجهة نظره ، ولم يقف الامر

عند حدود النقد للكشف والتبصير بالعيوب فى الكسوة التى رآها ، بل اراهم بعض نماذج من غشل الكسوة التى كان قد اصطحبها معه ويحتفظ بها ، واراهم كذلك بعض نماذج من لوحاته الفنية التى كان قد اشتغلها بخيوط المخيش الذهبية والفضية ، وجلس الحاج (كامل) قبال كبار الفنيين السعوديين ، يسألونه وهو يجيب ، مراراً وتكراراً ، ثم قرروا فى النهاية التعاقد معه نظير مبلغ ٢٥٠٠ ريالا سعوديا شهريا ، وتسلم الحاج (كامل) العمل هناك ليعلم ٤٠ فرداً سعوديا اصول المهنة بيديه ، ثم شارك بيديه فى عمل كسوتين للكعبة المشرفة فى دار الكسوة الشريفة بالسعودية فى عامى ١٩٧٥ و ١٩٧٦ ميلادية ، وهما العامان اللذان عمل فيهما هناك .

عمل الحاج (كامل) وهو فى السعودية لوحات « ياحى يا قيوم » و « يارحمن يارحيم » التى توضع فى اركان كسوة الكعبة المشرفة ، وكذلك لفظ الجلالة ، وكان يبيع للتجار ولعمال دار الكسوة السعودية انفسهم نتاج عمل يديه .

وكان ربحه من هذا النتاج وفيراً ، وصدق معه نصح والده الذى اسداه إليه فى بداية حياته ، فى أن العمل فى زركشة الكسوة الشريفة بركة لا تعدلها بركة لأى شىء آخر .

لم يتعلم احد من اولاد الحاج (كامل) مهنته لصعوبتها ، وحدث ان عين فى معهد طرة الصناعى سنة ١٩٧٠ ميلادية لتدريب مجموعة من الصبية على عمل زركشة الكسوة الشريفة ، واستمر أربع سنوات قام خلالها بتدريب احد عشر صبيا ، ولكن ــ للأسف ــ لم يستمروا فى هذه المهنة لعدم امكانية تعيينهم عمّال زركشة بوزارة الأوقاف .. !

وعلى الرغم من ذلك ، وبرغم ضياع حملة هذا التراث الإسلامى العريق ، فإن الحاج (كامل محمد حسن امين ندا) لم يفقد كل الأمل ، ويبث حاليا اسرار هذه المهنة المباركة لحفيده الصغير (كامل حسن كامل محمد حسن امين ندا) ذى السنوات الأربع عشرة ، وهو الطالب المتفوق الآن فى مدرسته الإعدادية ، لعل هذا الفن الإسلامى العريق والأصيل تظل جذوته متقدة ، ولا ينطفىء له مشعل مضىء ابداً .. !

دار كسوة الكعبة المشرفة بأجياد بالسعودية :

حينما اشتدت الخلافات السياسية بين مصر والمملكة العربية السعودية ، وتكررت مراراً وتكراراً عمدت الحكومة السعودية إلى إنشاء دار لكسوة الكعبة المشرفة بها . ولقد وصل امر هذه الخلافات إلى حد كبير ، حتى عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦١ ميلادية ، فكان هذا العام شاهداً على آخر كسوة للكعبة المشرفة ارسلتها مصر ، وقد عادت إلى القاهرة دون ان تقوم مصر بكساء بيت الله الحرام .

ولأن الخلافات بين مصر وحكومة المملكة العربية السعودية تكررت فيما قبل كثيرا فقد فكر المسئولون السعوديون فى عمل دار لكسوة الكعبة الشريفة



الحاج محمد حسن أمين ندا يعمل الزركشة بدار كسوة الكعبة الشريفة بالخرنفش بالقاهرة عام ١٩٤٧



■ فنيو زركشة كسوة الكعبة المشرفة من السعوديين بمصنع الكسوة بمكة المكرَّمة ■

بالسعودية ، حتى لا يتعرض بيت الله الحرام لأهواء الساسة ، ويكون حينئذ مصير كسوته رهين بالوفاق أو الخلاف فيما بينهم .

قام الملك (عبدالعزيز آل سعود) بإصدار أوامره فى أوائل المحرم سنة ١٣٤٦ هجرية الموافقة ١٩٢٧ ميلادية إلى الشيخ (عبدالله السليمان) وزير المالية ، وأمر ابنه (فيصلا) أن يشرف هو بنفسه مع وزير المالية على إنشاء مصنع لعمل وزركشة كسوة الكعبة المشرَّفة ، فاختارا مكاناً له يقع أمام مبنى وزارة المالية بحى جياد مساحته ١٥٠٠ مترا ، وجهزاه بالأدوات اللازمة ، والعمال الهنود ، وجعلا (عبدالرحمن مظهر) رئيس مطوفى حجّاج الهند يشغل منصب مدير مصنع الكسوة المشرَّفة ، وأضيف إليهم بضعة عشر من العمال السعوديين .[٤٦]

بعد أن قام الشيخ (عبدالرحمن مظهر) بإدارة المصنع استقال سنة ١٣٤٧ هجرية ، فاسندت الإدارة إلى الحاج (محمد خان) حتى سنة ١٣٥٢ هجرية ، حيث غادر المصنع الهنود وتولى السعوديون أمر المصنع تحت إدارة الشيخ (أحمد سالم الجوهرى) ، وفى هذه السنة كسيت الكعبة المشرفة بأول كسوة صنعتها الأيدى السعودية فى مكة المكرّمة .

كان يكتب خطوط الكسوة فى السعودية الأستاذ (محمد أديب) ، وبعد وفاته صار الشيخ السعودى (عبدالرحيم بخارى) هو الذى يتولى أمور الخط والزخرفة والفنون الأخرى .

دار كسوة الكعبة المشرفة بأم الجود بمكة :

أنشأت حكومة المملكة العربية السعودية بمنطقة (أم الجود) بمكة مصنعا جديداً فى يوم السبت السابع من ربيع الآخر سنة ١٣٩٧ هجرية الموافق ٢٦ مارس سنة ١٩٧٧ ، رغبة فى التطوير ومسايرة التقدم فى الوسائل والأدوات الحديثة .[٤٧]

وعلى الرغم من أسلوب الميكنة الحديث رؤى عدم الاستغناء عن أسلوب الانتاج اليدوى لما له من قيمة فنية عالية .

ويضم هذا المصنع قسما للنسيج اليدوى وآخر للنسيج الآلى ، وقسم للتصميم لدراسة الزخارف والخطوط فى الفن الاسلامى والاستفادة منها فى وضع تصميمات مدروسة . ويوجد قسم للطباعة مزود بالمناسج والشبلونات أو الشاشات الحريرية ، وبالمصنع قسم للصباغة ، حيث تصبغ الأقمشة فيه باللون الأسود لكسوة الكعبة الخارجية وباللون الأخضر للداخلية ، والأحمر الداكن بالنسبة لحزام الغرفة النبوية الشريفة ، كما تصبغ الخيوط القطنية المستخدمة كحشو أو كتطريز مبدئى باللون الأصفر .[٤٨]

وبالمصنع قسم كبير للزركشة اليدوية وبه مجموعة كبيرة من العمال السعوديين .

□ □ □

الهوامش والمراجـــع

(١) القلقشندى ـ « صبح الأعشى » ـ ص ٥٧ حـ ٤
(٢) المرجع السابق ـ ص ٤٢٥ جـ ١١
(٣) المقريزى ـ كتاب السلوك » ـ ص ١٩٥ حـ ٢ ق ١
(٤) ابن إياس ـ « بدائع الزهور » ـ ص ٤٤٤ حـ ١ ق ١
(٥) المرجع السابق ـ ص ٤٥٠ جـ ١ ق ١ ، ص ٤٥٢ حـ ١ ق ١
(٦)المرجع السابق ـ ص ٤٥٣ جـ ١ ق ١
(٧) د. احمد السعيد سليمان ـ « تاصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل » ـ ص ١٥
(٨) ابن إياس ـ « بدائع الزهور » ـ ص ٤٧٤ جـ ١ ق ٢
(٩) المرجع السابق ـ ص ٤٤٧ جـ ١ ق ٢
(١٠) المرجع السابق ـ ص ٧٤ جـ ٢
(١١) المقريزى ـ « كتاب السلوك » ـ ص ٦١٤ جـ ٤ ق ٢
(١٢) ابن إياس ـ « بدائع الزهور » ـ ص ٣٣٠ جـ ٢
(١٣) المرجع السابق ـ ص ٣٣٥ جـ ٢
(١٤) المرجع السابق ـ ص ٣٥ جـ ٤
(١٥) المرجع السابق ـ ص ١٠٤ جـ ٤
(١٦) المرجع السابق ـ ص ١٢٧ جـ ٤
(١٧) المرجع السابق ـ ص ٣٤٣ جـ ٤
(١٨)المرجع السابق ـ ص ٢٠٩ جـ ٥
(١٩) يوسف احمد ـ « المحمل والحج » ـ ص ٢٧٧ جـ ١
(٢٠) المقريزى ـ « خطط المقريزى » ـ ص ٤٢ جـ ٣
(٢١) عبد الغنى النابلسى ـ « الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز » ـ ص ٢٤٩ ـ الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٦
(٢٢) ايمن فؤاد سيد ـ « وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل » لجومار ـ هامش ص ٢٣١ ـ مكتبة الخانجى بـ القاهرة ١٩٨٨
(٢٣) الجبرتى ـ « عجائب الآثار » ـ ص ٦٢٤ جـ ١
(٢٤) المرجع السابق ـ ص ٥٦ جـ ٢
(٢٥) المرجع السابق ـ ص ٢٥٩ جـ ٢
(٢٦) المرجع السابق ـ ص ٢٦٦ جـ ٢
(٢٧) المرجع السابق ـ ص ٢٦٨ جـ ٢
(٢٨) المرجع السابق ـ ص ٣٣ جـ ٣
(٢٩) على باشا مبارك ـ « الخطط التوفيقية » ـ ص ١٠٦ جـ ٢ ـ الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢
(٣٠) المقريزى ـ « خطط المقريزى » ـ ص ٣٧٥ جـ ٢
(٣١) المرجع السابق ـ ص ٣٨٧ جـ ٢
(٣٢) الجبرتى ـ « عجائب الآثار » , ص ٥٨٣ جـ ٣

(٣٣) على باشا مبارك ـ « الخطط التوفيقية » ـ ص ١٣٨ جـ ٣

(٣٤) كلوت بك ـ « لمحة عامة إلى مصر » ـ ص ٣٤ جـ ٤ ـ ترجمة محمود مسعود ـ « دار الموقف العربى » ـ بدون تاريخ .

(٣٥) عبدالرحمن الرافعى ـ « عصر محمد على » ـ ص ٤٩٩ ـ دار المعارف ١٩٨٢

(٣٦) روى لنا ذلك الحاج (كامل حسن ندا) ، احد عمّال زركشة كسوة الكعبة المشرّفة بمنزله بالإمام الشافعى بالقاهرة فى يوم الثلاثاء ١٢ / ١٩٨٨/٧ .

(٣٧) محمد صالح الشيبى ـ « إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام » ـ ص ٢٩٨

(٣٨) يوسف أحمد ـ « المحمل والحج » ـ ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٥٧ جـ ١

(٣٩) المرجع السابق ـ ص ٨٠ ، ٢٦٩ جـ ١

(٤٠) المرجع السابق ـ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ جـ ١

(٤١) المرجع السابق ـ هامش ص ٢٦٥ جـ ١

(٤٢) اللواء / إبراهيم رفعت باشا ـ « مرآة الحرمين » ـ ص ١٠ جـ ١

(٤٣) المرجع السابق ـ ص ١١ جـ ١

(٤٤) المرجع السابق ـ ص ١٢ جـ ١

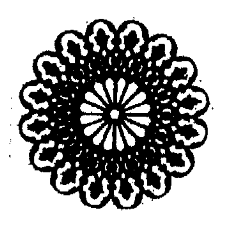
(٤٥) الأسطى باشا : هو رئيس عمّال زركشة كسوة الكعبة المشرّفة ، وكان يمثل شيخ الصنعة بالنسبة لهم ، ومن هؤلاء الذين شغلوا هذا المنصب فى الزمن القديم كان (على حسن) فى عام ١٨٨٤ ميلادية ، ومن قبله كان (محمد محمد الشيخة) فى عام ١٨٦٤ ميلادية .

(٤٦) أحمد عبد الغفور عطار ـ « الكعبة والكسوة منذ اربعة الاف سنة حتى اليوم » ـ ص ١٧١ ـ مطابع مكة المكرمة ١٩٧٧ ، يوسف احمد ـ « المحمل والحج » ـ ص ٢٦٣ جـ ١

(٤٧) المرجع السابق ـ ص ١٨٧

(٤٨) مجلة الفيصل ـ بدون اسم ـ ص ٦٤ ـ العدد ١٢٦ ـ ذو الحجة ١٤٠٧ هجرية (اغسطس ١٩٨٧) ـ دار الفيصل الثقافية بالرياض .

□ □ □



كسوة الكعبة المشرَّفة

بين بركتها وسرقتها !

التعلق بأستار الكعبة المشرَّفة :

منذ وضع اللبنة الأولى لبناء الكعبة المشرفة ، وهى تحظى بقداسة خاصة داخل قلوب خاشعة تهاب عندها الحضرة الالهية ، وتنهل من معين نورها الوضّاء قبسا يضىء جنبات طريق الحياة ، بنفحة علوية طاهرة زكية ، يتلهفها الطائفون حولها والعاكفون والركع السجود فى رحابها النورانية ، وكذلك من بعدت بهم عنها المسافات .

وعبر الأزمان ، كان من اسلموا زمام امورهم الى الله تهوى قلوبهم الى استار الكعبة المشرفة يدعون ويتمنون ، ويطلبون ، ويرتجون مغفرة ورحمة واثابة وفضلا من عند من عنده حسن الثواب .

قيل : ان (لقمان بن عاد) تعلق بأستار الكعبة المشرفة وتمنى . وكانت امنيته صعبة المنال وابتهالاته بالغة الحرارة . قال : « اللهم يا رب البحار الخضر والأرض ذات النبت بعد القطر امنحنى عمرا فوق كل العمر »[1] .

وعاش (لقمان) حياة سبعة نسور ، والنسر يعيش عادة حوالى الثمانين عاما ، فيصبح عمر (لقمان)٥٦٠ عاما ، وقيل خمسمائة عام ، وقيل الف عام ، وقيل ثلاثة آلاف عام .[2]

ورغم الاختلاف فى تحديد عدد السنين التى عاشها (لقمان) الحكيم إلا ان هناك اتفاقا عاما بأن دعاء (لقمان) الحكيم عند تعلقه بأستار الكعبة كان من نتاجه فوزه بالعمر المديد .

وعندما اشرق نور الاسلام على الانسانية ، وجاء (محمد بن عبدالله) الرسول المصطفى بخاتم الرسالات السماوية وجاهد فى سبيلها ، وهاجر ، وعاد فاتحا ام القرى (مكة) كان من شروط الصلح بينه واهل مكة ان من تعلق باستار الكعبة فهو آمن .[3]

وفى العصر الأموى شاعت قصة مجنون ليلى (قيس بن الملوّح) وتشبيبه وهيامه بليلى ، وعندما زوّجها ابوها باخر جنّ وزال عقله جملة ، فقيل لابيه : احجُج به الى مكة وادع الله عز وجل له ، ومُره ان يتعلق باستار الكعبة ، فحج به ابوه ، ثم قال له : تعلق باستار الكعبة واسال الله ان يعافيك من حب ليلى ، فتعلق باستار الكعبة وقال : اللهم زدنى لليلى حبا وبها كلفا ولا تنسنى ذكرها أبدا . فهام حينئذ واختلط عقله فلم يشف من حبها .[4]

وفى سنة ١٠٨ هجرية ، أيام خلافه الخليفة العباسى (أبى جعفر المنصور) ارسل طائفة من جنوده يقال لهم الخشابة لصلب (سفيان الثورى) وتعليقه على الأخشاب التى ينصبونها لذلك بالمسجد الحرام ، قبل دخول الخليفة العباسى الى مكة ليمر من تحته وهو مصلوب ، فى طريقه بالركب للحج ، فلما جاءوا ، ونصبوا الخشب لتعليقه نودى يا سفيان ان امير المؤمنين أمر بقتلك وتعليقك ، فإذا راسه فى حجر (الفضيل بن عياض) ورجلاه فى حجر (سفيان ابن عينيه) ، فقالوا له : يا أبا عبدالله ، اتق الله فينا ولا تشمت بنا الأعداء ، فقام رضى الله عنه ، وتقدم الى استار الكعبة وتعلق بها ، وقال : برئت منك ، ان دخلك ابو جعفر ، فاستجاب الله تعالى دعاه ، ولم يدخلها ، ومات (ابو جعفر المنصور) قبل دخوله مكة بمكان يقال له بئر (ميمون) ، حيث كبابه فرسة فوقع ومات لساعته وحمل ميتا إلى مكة ودفن بالمعلاة .(٥)

ومن الرحّالة العرب الجوالين الذين قاموا بالتعلق بأستار الكعبة عند قيامهم بتادية فريضة الحج (ابن جبير) و(ابن بطوطة) وذلك فى موضع محدد وقف فيه كليهما ، على الرغم من الفاصل الزمنى الكبير الذى فصل بينهما ، إذ ادى الأول فريضة الحج فى عام ٥٧٩ هجرية ، فى حين اداها الآخر فى عام ٧٢٤ هجرية .

قال (ابن جبير) يصف ذلك : « .. فطفنا طواف القدوم ، ثم صلينا بالمقام الكريم ، وتعلقنا باستار الكعبة عند الملتزم ـ وهو بين الحجر الأسود والباب ، وهو موضع استجابة الدعوة »(٦)

ونفس الفعل فعله (ابن بطوطة) حيث قال : « وطفنا بها طواف القدوم ، واستلمنا الحجر الكريم ، وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم ، وتعلقنا باستار الكعبة عند الملتزم ، بين الباب والحجر الأسود ، حيث يستجاب الدعاء »(٧) وفى العصر الحديث روى اللواء / ابراهيم رفعت باشا فى اثناء تاديته لفريضة الحج عام ١٣١٨ هجرية الموافق ١٩٠١ ميلادية انه قال بعد طوافه : « اتينا الملتزم ، وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود فى الجهة الشرقية ، ووضعنا عليه صدورنا وتعلقنا بأستار الكعبة وابتهلنا الى الله ان يعافينا فى ديننا ودنيانا ، وقلنا ما خطر بنفوسنا من الرغبات الصالحة والأمانى المشروعة »(٨)

ومن خلال جملة ما استعرضناه من حوادث تاريخية يتضح لنا اهمية التعلق بأستار الكعبة المشرفة عند المسلمين ، بل خُصِصَ مكان محدد عند استار الكعبة ، وهو عند الملتزم ، على حد قول (ابن جبير) و(ابن بطوطة) فى حجيهما لاستجابة دعاء الداعين .

وعلى النقيض من ذلك سلَّ البعض سيوفه ليحصد رقاب المتعلقين باستار الكعبة المشرفة فى الهجمة البربرية للقرامطة على بيت الله الحرام وعلى حجّاجه فعن (أبى بكر عمر بن على بن القاسم الذهبى) ، عن (عبيد البكرى) فى كتابه « المسالك والممالك » انه قال : ان (أبا طاهر القرمطى) وافى مكة يوم الاثنين

لسبع خلون من ذى الحجة سنة ٧١٠ هجرية رجل من اصحابه فقتل فى المسجد الحرام نحو ١٧٠٠ من الرجال والنساء وهم متعلقون بأستار الكعبة .(٩)

وأعاد القرامطة فعلتهم مرة ثانية فى عام ٣١٧ هجرية بقيادة كبيرهم (ابى طاهر القرمطى) وقتلوا ممن تعلقوا بأستار الكعبة نحو ألف وسبعمائة آخرين ، وقيل ثلاثة عشر ألفا من الرجال والنساء وهم متعلقون بأستار الكعبة .(١٠)

سرقة كسوة الكعبة المشرَّفة :

تعرضت كسوة الكعبة المشرفة الى سرقات عديدة على مدار الزمن ، وطمع فيها الطامعون فاستباحوا حرمتها وسرقوها .

من ذلك ما حدث فى عام ٢٠٠ هجرية ايام الدولة العباسية فى خلافة الخليفة (المامون بن هارون الرشيد) حيث قطع (العقيلى) وجنده بتحريض من والى اليمن الطريق على قافلة الحجيج ومعهم كسوة الكعبة المشرفة وطيبها ، فأخذوا اموال التجار والكسوة والطيب . وقدم الحجاج مكة عراة منهوبين ، غير ان أمير الحج سيّر خلفهم من يطاردهم ويرد ما سلبوه منهم ليعودوا مكللين بالخزى الى اليمن .(١١)

ولقد كان من نتاج الهجمة البربرية للقرامطة فى عام ٣١٧ هجرية أن سرقوا الحجر الأسود وكسوة الكعبة المشرفة وباب البيت الحرام وقد اعيد الحجر الاسود بعد ثمانى عشرة سنة ولم تعد كسوة الكعبة المشرفة بعد أن فرقها (أبو طاهر القرمطى) بين أصحابه قطعا من قطع الغنائم ..!!

وفى عام ٣٨٧ هجرية أيام خلافة (الحاكم بأمر الله) الفاطمى نهب جماعة من العربان كسوة الكعبة المشرفة وهى فى الطريق اليها ، ويقول (ابن اياس) معقبا على ذلك : « فكسيت الكعبة فى تلك السنة الشنفاص الأبيض ، وهذا من الغرائب ، فإن الكعبة ما كُسيت شنفاص قط إلا فى زمن الحاكم »(١٢)

ومما رواه (عبدالقادر الأنصارى الجزيرى) أثناء رحلته الى الأراضى الحجازية عام ٩٦٠ هجرية لتادية فريضة الحج أن حدث ازدحام شديد عند نقب عقبة ايلة بسيناء نتج عنه ضياع جمل بحمله من كسوة الكعبة المشرفة ، وأخذته عربان بنى عطية سرقة واختلاسا ولم يشعر به أحد من ركب قافلة الحجيج ، قال وهو يروى هذه الواقعة : « .. وشرعنا فى الفحص عنه بين عربان الدرك ، الى أن يسَّر الله تعالى بوجوده بعد أن ظنه عربان بنى عطية انه من جنس الخيام فدفنوه فى الرمل ، ولما أحضروه وجدنا ضمنه شقتين بطرازهما المذهب المخاييش ، ولم يحصل فيهما ادنى ضرر ، فحمدنا الله على وجوده »(١٣)

ونلاحظ أن هذه النماذج البشرية التى تطاولت وسطت بالزور والبهتان على كساء بيت الله الحرام ، عبر تاريخه الحافل ، ما هى إلا أنماط من مخالب وأنياب

حاقدة أو موتورة أو زمرة جهلاء عاشوا على هامش الزمن وخارج دائرة الادراك والوعى ، يدبون على رمال الصحراء كما تدب بعيرهم سواء بسواء بلا أدنى تفرقة .

التبرك بكسوة الكعبة المشرّفة :

يتبرك العديد من المسلمين فى جميع مشارق الأرض ومغاربها بكسوة الكعبة المشرفة ، وبعضهم يحتفظ بقطع منها كاملة أو بعض جزازات صغيرة ، فى منازلهم كاعز ما يملكون من مقتنيات مقدسة ومحببة الى نفوسهم . ومسالة التبرك بقطع من كسوة الكعبة المشرفة ليس وليدة العصور الحديثة أو القريبة العهد منا ، بل هى قديمة منذ عهد الفاروق (عمر بن الخطاب) ـ رضى الله عنه ـ فكان ينزع كسوة الكعبة المشرفة كل سنة ، ويستبدل بها اخرى جديدة ، ويقّسم الأولى بين الحجاج .[١٤]

وقد قام (شيبة بن عثمان) سادن الكعبة ايام خلافة (معاوية بن ابى سفيان) بتقسيم كسوات الكعبة المشرفة القديمة بين أهل مكة ، بعد الباسها ما جهزه لها الخليفة الأموى الأول من كساء جديد .

ومن ثم اصبحت عادة ان يتم تفريق كساء الكعبة المشرفة القديم بين الحجاج .

وقيل أن ام المؤمنين (عائشة بنت أبى بكر) ـ رضى الله عنها ـ أفتت ببيعها والتصرف فيها وجواز لبسها للحائض والجنب ، حيث قالت : « دخل علىّ شيبة الحجبى فقال : يا أم المؤمنين . إن ثياب الكعبة تجتمع عندنا فتكثر ، فننزعها ونحفر بئرا فنعمقها ، وندفنها لكى لا تلبسها الحائض والجنب ، قالت : « بئس ما صنعت ، ولكن بعها ، فاجعل ثمنها فى سبيل الله وفى المساكين ، فإنها إذا نزعت عنها لم يضر من لبسها من حائض او جنب » فكان (شيبة) يبعث بها الى اليمن فتباع له فيضعها حيث امرته » .[١٥]

واجاز (ابن عباس) ـ رضى الله عنهما ـ بيع كسوة الكعبة المشرفة .[١٦] وقد اختلف العلماء فى الحكم على ذلك ، فاجاز بعضهم لولاة الأمر بيع ما خلّف من الكسوة ليستعينوا به فى أمر الكعبة المشرفة .

وقال البعض الآخر : « إن كان شىء له ثمن لا يجوز اخذه ، وانّ لم يكن فلا باس »

وقال (نجم الدين الطرسوسى) شعرا فى ذلك :

وما على الكعبة من لباس   إن رثّ جاز بيعه للناس
ولا يجوز اخذه بلا شرا   للاغنيا لا ولا للفقراء

وقال (ابن فضل الله) فى كتابه « مسالك الابصار » : وفى سنة ٧٣٨ توليت خلع الكسوة العتيقة ، وحملت الى السلطان بمصر ، لتجهّز الى السلطان (ابى الحسن المرينى) ملك الغرب ، مع ما يجهّز عوض هدية بعثها فى هذه السنة صحبة

« مريم » زوجة أبيه ، وجماعة من اكابر دولته ، وعوّض بنو شيبة والأشراف عنها من بيت المال بمصر .[17]

وذكر لنا (جيرار دى نرفال) الرحالة الفرنسى فى عهد (محمد على) ان الباشا - محمد على - تلقي واسرته كسوة الكعبة المشرفة ، وماء بئر زمزم وبعض أشياء تتعلق بالحج عند عودة المحمل المصرى من الأراضى الحجازية ، وقد عرض هذه الكسوة على الشعب على باب مسجد صغير يقع خلف القصر الخاص به فى القلعة .[18]

أما الرحالة الانجليزى (ادوارد وليم لين) فقد لاحظ فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، أيام حكم (محمد على) ان الحجاج المصريين العائدين كان بعضهم حريصا على اجتلاب قطع من كسوة الكعبة المشرفة للتبرك بها مع اشياء اخرى جلبت معها .

وذهب (لين) الى مسجد سيدنا الحسين لفحص كسوة الكعبة المشرفة التى جلبها المحمل المصرى ، وسُمِحَ له بمسكها بيده حسب رغبته ، وقال : « وقد أعطيت هدية صغيرة لهذا الامتياز ، ومقابل قطعة زائدة من الكسوة طولها شبر وعرضها كذلك تقريبا ، كنت قد طلبتها » .[19]

ولم تكن هذه القطعة هى الوحيدة التى اقتناها (لين) بل حصل على قطعة اخرى ، قال عنها : « وقد أمكننى فيما بعد أن أزيد ما عندى من تحف عن مكة ، ومن ذلك قطعة من ستار الكعبة أحضرها الشيخ (ابراهيم بوركهارت) من مكة واعطانى اياها وريثه عثمان » .[20]

وفى اوائل هذا القرن العشرين سجّل اللواء (ابراهيم رفعت باشا) مقدار شغف المصريين بتبركهم بكسوة الكعبة المشرفة ، وذلك عام ١٣٢٥ هجرية الموافق ١٩٠٨ ميلادية ، وكانت هذه الكسوة جديدة ، وفى انتظار ارسالها مع قافلة الحجاج الى بيت الله الحرام ، قال تحت عنوان (الكسوة بالمسجد الحسينى) اثناء تجهيزها : « تبقى الكسوة بالمسجد حوالى نصف شهر فى خلاله يخاط بعض قطعها ببعض ، لأنها تصنع قطعا كثيرة ، ويحضر كثير من سكان القاهرة ليتبركوا بها ، ويرى نفسه سعيدا من يخيط جزءا منها ، ويتسابق الناس فى تقديم النذور والعطايا الى المنوطين بخياطتها ، وقد سمعت انه لا يسمح لبعض المتبركين بمسّ الكسوة إلا نظير جُعل يدفعونه ».[21]

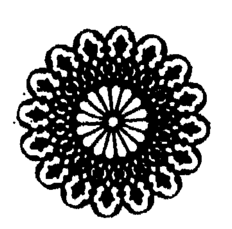
أما التبرك بمقام الخليل (ابراهيم) - عليه السلام - والذى يحوى أثر القدمين ، فإن اللواء(ابراهيم رفعت باشا) قومندان حرس المحمل المصرى فى عام ١٣١٨ هجرية الموافق ١٩٠١ ميلادية ، وأمير الحج ثلاث مرات فى سنوات أخرى يروى عن نفسه حادثة التبرك فيقول : « .. ودخلت الى المقصورة مع المطوف ، فوضع من ماء زمزم على أثر القدمين ، وشربنا منه فى حجتنا هذه سنة ١٣١٨ هجرية . وكان خليقا بى وبالمطوف أن نتجنب التبرك بالآثار ، والشرب من

مواطىء الأقدام ، وأن ندع هذه البدعة جانبا ولا نفعل عند هذا الأثر سوى ما فعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الصلاة عنده امتثالا لأمر الله تعالى (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) ، ولكنى كنت فى هذا الوقت لم تنضج معلوماتى الدينية فى الحج ومشاعره ، ولم اكن وقفت تماما على تاثير البدع السيىء فى الدين ، وقد دعانى الانصاف الى ذكر الواقع ، ودعانى البصر بالدين الى انكار ما حصل ».[٢٢]

ولم تكن هذه البدعة وليدة العصور الحديثة فقط ، وإنما كانت موروثة من الموروثات الشعبية ، جاءت إلينا عبر مئات السنين ، فقبل ذلك الوقت فعل نفس الفعل الرحَّالة الاندلسى (ابن جبير) فى عام ٥٧٩ هجرية .

وبالطبع لم يكن (ابن جبير) هو أول من فعل ذلك . فقد ذكر فى حوادث عام ١٦٠ هجرية ايام خلافة (المهدى بن عبدالله بن ابى جعفر المنصور) واثناء تاديته فريضة الحج ، فقيل ان (المهدى) نزل بدار الندوة ، وجاء (عبدالله ابن عثمان بن ابراهيم) الحاجب بالمقام ـ مقام سيدنا ابراهيم ـ فى ساعة خالية نصف النهار مشتمل عليه ، فقال للحاجب : ائذن لى على أمير المؤمنين فإن معى ما لم ادخل به على احد قبله ، وهو يسر أمير المؤمنين ، فادخله اليه ، فكشف عن المقام ، فسر بذلك ، وتمسح به ، وسكب فيه ماء ، ثم شربه ، وقال له : اخرج ، وارسل الى بعض اهله ، فشربوا منه ، وتمسحوا به ، ثم ادخل واحتمله ورده مكانه وأمر له بجوائز عظيمة ».[٢٣]





الهوامش والمراجع

(١) د . محمد المنسى قنديل « المغرور ببقاء النسور » - مقالة بمجلة العربى - ص ٩٣ - العدد ٣٠٢ يناير ١٩٨٤ - وزارة الاعلام بالكويت .

(٢) فاروق خورشيد « عالم الأدب الشعبى العجيب » ص ٢٠١ - كتاب الهلال - العدد ٤٤٧ - مارس ١٩٨٨ - دار الهلال .

(٣) عبدالغنى بن اسماعيل النابلسى « الحقيقة والمجاز » ص ٤٤٦ .

(٤) ابو الفرج الأصفهانى « الاغانى » - ص ٢٠ ، ٢١ ، حـ ٢ - اشراف محمد ابو الفضل ابراهيم - الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ١٩٧٠ .

(٥) الشيخ احمد الرشيدى « حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج » - ص ٩٧ - تحقيق د . ليلى عبداللطيف احمد - مكتبة الخانجى بمصر ١٩٨٠ .

(٦) ابن جبير « رحلة ابن جبير » - ص ٧١ .

(٧) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » - ص ٨٩ حـ ٣ .

(٨) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مراة الحرمين » ص ٣٤ حـ ١ .

(٩) الحافظ ابو الطيب الفاسى « شفاءالغرام » ص ٢١٨ حـ ٢ .

(١٠) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ٢٣٥ .

(١١) النويرى « نهاية الارب » - ص ١٩٦ حـ ٢٢ .

(١٢) ابن اياس « بدائع الزهور » ص ٢٠٥ حـ ١ ق ١ .

(١٣) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ١٣٨ .

(١٤) يوسف احمد « المحمل والحج » ص ٢٨٢ حـ ١ .

(١٥) محمد صالح الشيبى « إعلام الانام » ٢٠٩ .

(١٦) يوسف احمد « المحمل والحج » ص ٢٨٣ حـ ١ .

(١٧) المرجع السابق - ص ٢٨٥ حـ ١ .

(١٨) جيرار دى نرفال « رحلة الى الشرق » - ص ٢٢٧ حـ ١ .

(١٩) ادوارد وليم لين - ص ٤٠٩ فى الهامش .

(٢٠) المرجع السابق - ص ٢٢٤ .

(٢١) اللواء ابراهيم رفعت باشا « مراة الحرمين » - ص ١٥٢ حـ ٢ .

(٢٢) المرجع السابق - ص ٢٤٦ ص ١ .

(٢٣) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « الفرائد المنظمة » - ص ٢١٥ .

□ □ □



فنون المحامل العربية
وقوافل الحج من البلاد الإسلامية

في سرعة مذهلة خاطفة ، وعلى مقعد وثير في طائرة او في باخرة او في سيارة ، اصبح الحاج الآن يعبر حدود وطنه إلى الأراضي الحجازية المقدسة دونما عناء او مشقة تذكر .

اما فيما مضى من زمن ، فقد كانت رحلة الحج - بالرغم من جهدها الجهيد - لها مذاقها الخاص ، والذى يستشعر فيه الإنسان المقبل على اداء فريضة الحجّ لذة التطهر ، منذ اللحظة الأولى التى يطا فيها بقدميه تراب الطريق ، ذلك الطريق الذى يغذّ فيه السير ، ويشقّ فيه صعوباته مع الرفاق الناشدين للغفران ، وتضمهم رحلة المحمل للحجّ ، في شهور عدة ، سواء اكان ذلك من فوق ظهر جمل - إن كن الحاج ثريا وميسور الحال ، او بالسير على الأقدام ، إن كان ذا عسرة وخاوى الوفاض .. !

كانت المحامل العربية وقوافل الحجّ من البلاد الإسلامية تاتى إلى البيت العتيق من كل فجّ عميق ومن كل انحاء طريق ، وكانت ام القرى مكة - في فترة من الفترات التاريخية التى بها الإنسانية - كانما تمثل على الأرض قرص الشمس المتوهج الوضاء ، في حين كانت تلك المحامل العربية والقادمة من البلاد الإسلامية تمثل مسار الأشعة التى تخرج منها وإليها تعود .. !

وبصرف النظر عن مدى صحة هذه الظاهرة التاريخية الخاصة بالمحامل العربية وموافقتها او مخالفتها للشرع والدين ، فهى اصبحت الآن تمثل جزءاً هاماً من تاريخنا في عصور السلف الرابضة في اوراق صفراء ، بل ومسّت من قريب تاريخاً ربما مازال يحيا في داخل البعض منا ، ولو بنبضة واحدة لعرق واحد مازال يختلج في الذاكرة إلى الآن .. !

ولأن التاريخ دائما ليس فيه انتقاء او اختيار ، بحيث نحتفظ ونزهو باوراق منه ، وننزع عنه صفحات لا ناتلف معها ، فحتما علينا ان ندرس ظاهرة المحامل العربية بوعى حقيقي ، دونما الوقوع في دائرة سحرها ، بحيث لا يكون الهدف من ذلك هو ان نصفق لها ونحن وقوف معها نباركها ، او ياخذنا الشنان فنقف ضدها لرجمها بقطع من الحجارة ، ونهيل عليهاالتراب ، ثم يظل من بعد ذلك وجهنا مسوّداً وهو كظيم .. !

وقد جاء في كتاب الكنز المدفون (للسيوطى) : « إن أول من أحدث المحامل في طريق مكة - شرّفها الله - (الحجّاج بن يوسف الثقفى) »[1]

ونحن نشكّ في صحة ما قرره (السيوطى) في كنزه المدفون لأسباب عدة ، منها :

١ - إن المحمل قديم جدًا وربما كان من قبل الإسلام ، وكان يطلق على الجمل الذى يحمل الهدايا إلى البيت المعظم ، وقد سيّر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - محملا إلى مكة بهداياه إلى الكعبة المشرفة .[٢]

٢ - إن شخصية (الحجّاج بن يوسف الثقفى) لا يستقيم معها ان تكون ذات نوازع دينية تدفعه إلى تسيير محمل إلى بيت الله الحرام ، وإن كان احد من المؤرخين قد ذكر انه حجّ ثلاث مرات خلال اعوام ٧٢ ، و ٧٣ ، و ٧٤ هجرية فإذا صحّ ذلك ولم يكن من ادعاء اتباعه ، فإن هذه الحجات الثلاث كانت بغرض دخول مكة ومحاربة المنشقين على مُلك بنى امية .

وليس من المعقول ان يكون اول من فعل الحرام فى الشهر الحرام يرمى الكعبة المشرّفة بالمنجنيق عام ٧٢ هجرية ، فى حربه ضد (الزبير بن العوام) ، وهو ابن ذات النطاقين (اسماء بنت ابى بكر الصدّيق) ، هو اول من سيّر المحامل إلى بيت الله الحرام .

ولا يدخل فى عقل إنسان ان يكون اول من سبّ اهل المدينة المنورة ، وعاملهم معاملة كلها الذُل هو اول من سيّر المحامل إلى بيت الله الحرام .

وهل يستوى ان يجتمع فى رجل واحد تسييره المحامل إلى بيت الله الحرام وسبُّ الصحابى الجليل (انس بن مالك) عيانا بيانا ؟!

إن فى سيرة (الحجّاج بن يوسف الثقفى) مثالب كثيرة تنقص من قدر شخصيته إذا وزنت بميزان دقيق ، حتى لقد وصفه (عمر بن عبدالعزيز) قائلا : « لو جاءت كل امة بخبثها وجئنا بالحجّاج لغلبناهم !

. ووصفه (الحسن بن على بن ابى طالب) بانه « يحكم بحُكم الجاهلية »[٣]

ومن العبث ان نبحث عمن هو اول من سيّر المحمل فى تاريخ العرب ، لأن ذلك كان شيئا مالوفا لديهم منذ عهود سحيقة ، فالجمل العربى ملازم لهم دائما فى حلهم وترحالهم ، وقديما قال (القزوينى) يصف الإبل بانها : « من الحيوانات العجيبة ، وإن كان عجبها سقط من اعين الناس لكثرة رؤيتهم إياها ، وهو انه حيوان عظيم الجسم شديد الانقياد ، ينهض بالحمل الثقيل ويبرك به ، وتاخذ بزمامه فارة تقوده إلى حيث شاءت ، ويتخذ على ظهره بيت يقعد الإنسان فيه مع ماكوله ومشروبه وملبوسه وظروفها والوسادة والملحفة والنمرقة كما فى بيته ، ويتخذ للبيت سقف . وهو يمشى بكل هذا . »[٤]

خلاصة الأمر إن الجمل كان موجوداً فى البادية العربية قبل الإسلام بمئات السنين ، والحجّ كذلك على الرغم من إنه اصبح فريضة إسلامية فى السنة التاسعة من الهجرة ، وهى السنة التى اصبح فيها (ابو بكر الصديق) اول امير للحجّ فى الإسلام ، واول وآخر من حجّ فى الإسلام فى شهر ذى القعدة كما جرت بذلك سُنّة العرب القدماء ان يكون الحجّ فى اى شهر من شهور شوال وذى القعدة والعشر الأوائل من ذى الحجة ، إذ ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حجّ بعد ذلك

بعام فى السنة العاشرة من الهجرة حجة الوداع فى ذى الحجة ، ومن ثم أصبحت سُنَّة إسلامية من بعده فى هذا الميقات على طول السنين . وعلى طول السنين كذلك المسلمون من كل بقاع الأرض حجّوا ، ولفرض الله أدوا ـ من استطاع إلى ذلك سبيلا ، مشيا على الأقدام ، وامتطاء للجمال فى الركبان ، واتخاذا للمحامل عند إظهار الفرحة بالحجّ والإعلان .. !

وكان من أشهر تلك المحامل العربية وقوافل الحجّ من البلاد الإسلامية : المحامل الآتية : ـ

١ ـ المحمل الشامى .
٢ ـ المحمل العراقى .
٣ ـ المحمل اليمنى .
٤ ـ المحمل المغربى .
٥ ـ المحمل التكرورى .
٦ ـ المحمل الرومى أو التركى .
٧ ـ المحمل المصرى .

ولم تكن تلك المحمل هى كل ما كان يفد إلى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحجّ ، بل كان هناك أيضا محمل ابن الرشيد ، ومحمل ابن سعود ، ومحمل ابن دينار ، ومحمل النظام ملك حيدر أباد بالهند .(٥)

ولكن هذه المحامل كانت ثانوية إلى جوار المحامل السبعة التى سبقتها ، وربما جاء هذا الدور الثانوى لها تبعا لمركز ثقل بلادها فى توجيه وتسيار الأحداث فوق رمال شبه جزيرة العرب من أجل صناعة التاريخ .. !

أولا : المحمل الشامى :

على الرغم من إن بلاد الشام جميعها ـ وهى سورية ولبنان وفلسطين والأردن ـ ذات طبيعة ثقافية متقاربة ـ إن لم تكن متشابهة ـ إلا أنها كانت لها أربعة محامل مختلفة ، ولكل من هذه المحامل الأربعة اسم يختلف عن الآخر .

كانت هذه المحامل هى : المحمل الشامى ، والمحمل الحلبى ، والمحمل الكركى ـ نسبة إلى منطقة الكرك بشرق الأردن ـ والمحمل القدسى .

وكانت المحامل الثلاثة الأخيرة من النادر تجهيزها وقيامها بالحجّ سوى فى الأزمنة الأخيرة من العصر المملوكى . أما المحمل الشامى فكان أسبقها من ناحية النشأة والبداية ، والتى من المرجّح أن تكون فى عصر دولة بنى أمية بالشام ، حيث كانت تفد منها قوافل الحجّ تباعا منذ استقرارها هناك .

واقدم اثر يدل على وجود المحمل الشامى ـ وهذا بالطبع غير مادونته الكتب عن الركب الشامى ـ لم يكن فى كتب التاريخ ، بل كان فى كتب الأدب العربى القديم ، وما نعنيه بذلك واستطعنا العثور عليه هو مقامات الحريرى ، والتى كتبت

فيما بين عامى ٤٩٥ و ٥٠٤ هجرية ايام خلافة (الآمر باحكام الله) الفاطمى ، وهو سابع ملوك الدولة الفاطمية . قال (الحريرى) فى المقامة الحادية والثلاثين المسماة بالمقامة (الرملية) مايلى :

« ... واصعدت إلى ساحل الشام للتجارة ، فلما خيَّمت بالرملة [بلد بالشام قرب الساحل] ، والقيت بها عصا الرّحلة ، صادفت بها ركابا تُعدُّ للسُّرى [المسير بالليل] ، ورحالا تشدُّ إلى ام القرى ، فعصفت بى ريح الغرام ، واهتاج لى شوق إلى البيت الحرام ، فزمت ناقتى [وضعت زمامها فيها] ، ونبذت عُلقى وعلاقتى [مايتعلق بى] »(٦)

وفى هذه المقامة نلمح من (الحريرى) تهكما على شكل المحمل الشامى ، إذ يقول على لسان (الحرث بن همَّام) بطل المقامة : « اتخالون ان الحجّ هو اختيار الرواحل ، وقطع المراحل ، واتخاذ المحامل ، وإيقار الزوامل [تثقيل حمل الإبل بالأحمال ؟] .

ولقد صوّر الفنان (الواسطى) منمنمتين تعبران عن هذه المقامة ضمن اخريات فى عام ٦٣٤ هجرية ، تحمل بصمات مدرسة بغداد فى الفن التشكيلى باسلوبها المتميز .

والمنمنمة الأولى للمحمل الشامى فى منطقة (الجُحْفَة) ، وهى ميقات أهل الشام بين مكة والمدينة ، وفيها يسخر (الحريرى) من الضجيج والعجيج الذى يثيره المحمل الشامى دون معنى أو هدف احيانا .

ويصف الدكتور (ثروت عكاشة) هذه المنمنمة قائلا : « وعلى عادة الواسطى فى إدراكه العميق لمغزى النص وماعناه (الحريرى) منه رسم منمنمته وقد غلّب عليها طابع النزق والتهريج ، فالحركة فيها صخب واهتزاز ، والقوم مدّعون هازلون ، والنوق متبخترة تكاد تشى وجوهها بالسخرية ، وقائد القافلة ـ وهو على ما يبدو الفارس لراكب الجواد ـ تكسو وجهه علامات الغباء . وصوّر ذيل الجمل الأسود حامل هودج النساء ـ كما نعتقد ـ ملتويا كالأفعى منفوش الوبر . وبمعنى اشمل عمد المصور إلى تجريد رجال القافلة ودوابها من سمات القداسة والجدية المفروضة فى مثل هذا الموكب الدينى الوقور . وهو إلى ذلك قد اختار الوانا متناسقة وخطوطا انسيابية عذبة ، واطلق من مركز الصورة متوازيات تتمثل فى عصى البيارق الطويلة الرشيقة تتدلى منها رايات مثلثة الشكل مهدّبة ، وفى الابواق القصيرة يطلقها الزامرون فى حماس ، ولم ينس النباتات الزخرفية فى ادنى اللوحة . »(٧)

اما المنمنمة الثانية للمحمل الشامى فهى بعد الوصول إلى مكة وإناخة الركائب ويصفها الدكتور (ثروت عكاشة) بقوله : « وتعبِّر اللوحة اصدق تعبير عن القوم الذين اناخوا رواحلهم وحطّوا هوادجهم وحقائبهم ، واعتلى (ابو زيد السروجى) ـ وهو احد ابطال المقامة وسائر مقامات (الحريرى) ـ الاكمة

ليخطب فيهم وبدت على وجوههم تعبيرات متباينة ، فهم بين مشدوه ومعجب ومنصت ومنزو بوجهه عنه ومشغول بالحديث مع آخر عنه . »

ويثور سؤال هام هنا . هل قصد (الحريرى) أن يوجه انتقادات مباشرة إلى المحمل الشامى او انه عمد بأسلوب غير مباشر إلى نقد المحمل العراقى فى صورة المحمل الشامى خوفا من بطش احد ممن يهمه أن تظل المثالب المنتقدة باقية ؟

وعلى الرغم من ان هذا الأمر ماخوذ فى الاعتبار ووارد إلا اننا مضطرون إلى التسليم بأن هذه الانتقادات موجهة إلى المحمل الشامى ، وفقا للأماكن التى حددها (الحريرى) للمحمل فى مقامته ، برغم ان هذه المثالب منتشرة جميعها بين كافة المحامل العربية ولا يخلو واحد منها .

كان المحمل الشامى كثير التعرض للمشاق فى رحلته إلى الأراضى الحجازية ففى أخبار سنة ٦٩٢ هجرية قال (ابن الجوزى) صاحب (مرآة الزمان) يصف هذا الموكب : « إن الذى حج فى هذه السنة من الشام (بدر الدين بكتاش) المعروف بالطيار ، وسافر المحمل من دمشق فى الحادى عشر من شهر شوال ، وحصل للركب الشامى مشقة كبيرة ، فكان فى العشرة الأخيرة من المحرم اتتهم رياح عظيمة وبرد ومطر ، وهلك الناس ، وتطايرت العمائم ، وحملت الريح بعض الجمال الواقفة ، واشتغل كل امرىء بنفسه ، وهلكت الأمتعة والثياب وحصلت لهم مشقة عظيمة . »[٨]

وفى سنة ٦٩٤ كان ركب المحمل الشامى ركباً كبيراً ، وضم محملا آخر لعمة صاحب ماردين ، وكما يقول (الفاسى) : « وكان لها محمل كبير وسبيل كثير ، وتصدقت بمال كثير وانتفع بها الحاج وأهل الحرمين وأمراء مكة والمدينة . »[٩]

وكان لكثرة الاعداد التى تصاحب المحمل الشامى أن بلغ هذا المحمل أربعة محامل كما حدث فى عام ٧١١ هجرية ، فقد « حج الشاميون وأميرهم (علاء الدين طنبغا) ومعهم أربعة محامل : المحمل السلطانى ، ومحمل لأمير الحاج ، ومحمل لبيت الأمير (سيف الدين كحكى ، ومحمل للأمير (عدرى الدين امير عقلة . »[١٠]

ولم ينصب الاهتمام بالمحمل الشامى على عدده فقط ، بل اهتم هذا المحمل بكسوته ، من ناحية العناية بها وبزخرفتها على مدى سنين عديدة .

فحينما كان الأمير (شيخ المحمودى) نائبا للسلطان المملوكى على الشام ـ قبل ان يصبح سلطانا على مصر والشام ـ أدار المحمل الشامى سنة ٨٠٦ هجرية بعد انقطاعه منذ سنة ٨٠٣ هجرية ، وعمل كسوة للمحمل الشامى ، وهى من الحرير الأصفر المذهب بلغت تكاليفها نحو خمسة وثلاثين الف درهم فضة .[١١]

وكان من الطبيعى ان يهتم الولاة فى العصر العثمانى بكسوة المحمل الشامى مثلما كان الاهتمام به فى عصر المماليك . ففى عام ١١٤٤ هجرية عمل (عبد الله باشا الايدينلى) كسوة جديدة للمحمل الشامى ، كما جددت أخرى فى عهد (عبدى باشا الجيته جى) بعد ان حج سنة ١١٧٢ هجرية ، وفى عام ١١٨٣ هجرية عمل

(عثمان باشا) والى دمشق كسوة جديدة للمحمل الشامي غير التي عملها (عبدى باشا الجيته جي) ، ويقال إن هذه الكسوة كانت أفضل وأكبر من كسوة عام ١١٧٢ هجرية .(١٢)

وقد ارتبطت ولاية دمشق بإمارة محمل الحاج الشامي ، فكان والى دمشق دائما هو أمير المحمل الشامي لسنوات عديدة خاصة في العصر العثماني حتى انفصلت الوظيفتان عن بعضهما في عهد (عبداللطيف صبحي باشا) والى دمشق عام ١٢٨٨ هجرية .(١٣)

وكان للمحمل الشامي قاض مثلما كان في المحمل المصرى ، وقد وقفنا على اسم قاض المحمل الشامي في عام ١٠٠٣ هجرية وهو (احمد افندى الشاهينى) ، ويبدو من اسمه انه لم يكن من ارباب العمائم بعكس ما كان يحدث في المحمل المصرى .(١٤)

أما محمل حلب فكان في بعض السنين يحل محل المحمل الشامي عندما كانت تحدث بعض القلاقل او المناواشات بين الشوام وبعض الجيران الطامعين في ملك دمشق ، وكانت بدايته في أواخر القرن الثامن الهجرى .

قال صاحب (درر الفرائد) في حوادث سنة ٧٨٧ هجرية : « وحج الحلبيون بمحمل على صفة المحامل لم يعهد ذلك قبلها . »(١٥)

غير أن المحمل الحلبى لم يستمر كثيرا بديلا عن المحمل الشامي في الأوقات الحرجة ، إذ تلازم المحمل الحلبى مع المحمل الشامي البادىء رحلته من دمشق ، بحيث يمتزجا معا في ركب واحد بمحمليهما كما حدث في عام ٨٩٢ هجرية .(١٦)

ويبدو أن عام ٧٨٧ هجرية وعام ٨٩٢ هجرية لم يكونا هما العامين الذين برز فيهما المحمل الحلبى إلى الوجود . فبعد البداية بعشر سنوات وفي عام ٧٩٧ هـ في عهد السلطان المملوكي (برقوق) قدم إلى مكة مع الحجّاج الشامين محمل من حلب كما ذكر ذلك صاحب كتاب « شفاء الغرام » واكده .(١٧)

وغير المحمل الحلبى كان يوجد محمل أهل الكرك ، ذلك المحمل الذى وصفوه في عام ٨٦٩ هجرية بانه « محمل لطيف »(١٨)

ولكن واصفوه لم يقفوا على تفاصيله ، وربما كان في غير الأبهة التى كانت معهودة في المحمل الشامي من حيث العدد والعدة .

ولم يقف احد على بداية تسيار محمل اهل الكرك ، وإن كنا نظن ان بدايته كانت في عام ٧١٢ هجرية ، وهي السنة التي حجّ فيها السلطان المملوكي (الناصر محمد بن قلاون) من الكرك ذاتها ، إذ لم نقف على ذكر لهذا المحمل - فيما بين ايدينا من المصادر - سوى في هذه السنة المذكورة ومابعدها ، اما ما قبلها فلا .

كانت حجّة السلطان المملوكي (الناصر محمد بن قلاون) من هناك ومعه نحو اربعين اميراً وستة آلاف مملوك على الهجن ومائة فارس .(١٩)

بعد أن كان ينوى رد كيد اعتداء التتار على الشام ، فلما حاربهم نائب حلب

(سودون الناصرى) وانتصر عليهم قبل مجيء السلطان إليه بجنده ، توجه السلطان من غزة إلى حلب بعدما ارجع الجند إلى القاهرة ، وقصد زيارة بيت الله الحرام فى موكب من الكرك .

ولم نقف على ذكر لمحمل الكرك مرة اخرى سوى فى عام ٨٨٤ هجرية بإشارة عابرة دونما تفاصيل له ، وهى السنة التى حجّ فيها السلطان المملوكى (الأشرف قايتباى) فى المحمل المصرى .[٢٠]

العادات والمعتقدات فى طريق المحمل الشامى :

حمل حجّاج المحمل الشامى فى طريق رحلتهم إلى الأراضى الحجازية العديد من عاداتهم ومعتقداتهم الشعبية ، وهذه العادات والمعتقدات لعبت دوراً كبيراً فى سلوكهم وتصرفاتهم على مدار سنين كثيرة ذهب وعاد فيها ركب المحمل الشامى .

وطريق المحمل الشامى كان يبدأ من دمشق ، ويتجه جنوبا إلى المدينة المنورة أولا ، ثم من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة .

وبين دمشق والمدينة والمنورة كانت هناك محطات وقوف بلغت ٣٤ محطة وكان القدماء يسمونها « منازل الحاج » ، وهذه المنازل هى :[٢١]

١ ـ الكسوة ٢ ـ دنون ٣ ـ غباغب ٤ ـ صمنين ٥ ـ الشيخ مسكين ٦ ـ الميزريب ٧ ـ درعا ٨ ـ المفرق ٩ ـ الزرقا ١٠ ـ خان الزبيب ١١ ـ البلقاء ١٢ ـ قطرانه ١٣ ـ الحسا ١٤ ـ عنيزة ١٥ ـ معان ١٦ ـ بطن الغول ١٧ ـ المدورة ١٨ ـ حالة عمار ١٩ ـ ذات حج ٢٠ ـ بئر ابن هرماس ٢١ ـ تبوك ٢٢ ـ وادى الأخضر ٢٣ ـ المعظّم ٢٤ ـ الدار الحمراء ٢٥ ـ مبرك الناقة ٢٦ ـ الحجر ٢٧ ـ العلا ٢٨ ـ سهل المطران ٢٩ ـ البئر الجديد ٣٠ ـ هدية ٣١ ـ اصطبل عنتر ٣٢ ـ البوير ٣٣ ـ بئر نصيف ٣٤ بواط .

والمسافة بين دمشق والمدينة المنورة تبلغ حوالى ١٣٠٢ كيلومتر ، ومع طول هذه المسافة تولدت لدى حجّاج المحمل الشامى عدة معتقدات وعادات توارثها الشوّام من طرّاق درب الحجيج . وقد امتزجت فى هذه المعتقدات والعادت غرائب وعجائب رسمتها لهم وحشة الطريق الممدود فى الصحراء الواسعة بكل مخاوفها الحقيقية وغير الحقيقية .

نظر حجّاج المحمل الشامى إلى طول الطريق وما يصيبهم فيه من تعب ونصب واخطار فكانت حيطتهم اللازمة تجاه ذلك أن تخففوا من امتعتهم عند (المدّورة) أو (جعيمان) وهى عند نهاية بلاد الشام وقبل الولوج فى أرض الحجاز .[٢٢]

ثم عند العودة يأخذون امتعتهم ويقفلون عائدين إلى بلادهم بالشام ويتزودوا من أزوادهم التى احتفظوا بها هناك .

واما من كان ينفذ منه زاده فقد كان أهل الشام يرسلون (الجردة) ، وهى نوع من البقسماط او الكعك إلى (معان) للحجّاج العائدين .[٢٣]

كان هذا نوعا من التحوط ، خوفا من الاحتياج او العوز ، غير أن الخوف من وعثاء الطريق رسم في مخيلة العديد من حجاج المحمل الشامى تصورات خرافية رسخت في أذهانهم وتقوقعت وتدثرت بغلالات اصطبغت بصبغة دينية مما ساعدها على النفاذ إلى عمق كبير في دواخلهم .

من ذلك أن أطلق على جزء من طريق صحراوى قفر « داخلها مفقود وخارجها مولود » وهو الجزء الذى يقع بين عقبة (الصوان) و (ذات حج) ، وعقبة (الصوان) هذه كانت تلى (معان) عند نهاية حدود الشام وبداية حدود أرض الحجاز في زمن (ابن بطوطة) سنة ٧٢٤ هجرية .[٢٤]

وعلى الرغم من بشاعة هذا الاسم الذى يرتجف لذكره القلب ، إذ يعنى مجرد الخوض فيه أنه هلاك محض ، فقد كان المحمل الشامى يعبره ، إذا لم يكن هناك خيار غيره .

وبين (تبوك) و (العلا) كانت هناك منطقة تسمى (المغارة العظمى) ، وفى هذه المنطقة حرّك العطش فى داخل حجّاج المحمل الشامى مشاعراً ملتهبة أرقه .

وفى إحدى الرحلات وصفت المشاعر بعد ترك (عين تبوك) ، قائلة : « ثم إنا فارقنا نخلها الطوال ، وسرنا عن شماريخها العوال ، بعدما استعددنا للمغارة العظمى التى ذكرها يهول ، وخبرها يجوب الآفاق ويجول ، فملأنا القرب والروايا ، والخبايا التى فى حنايا الزوايا . وسرنا على اسم الله والبركة ، وقلنا : اللهم أنزل السكون على هذه الحركة . ونزلنا دون رأس الوادى ، وحططنا بمنزلة لم يبدلنا مثلها فى تلك البوادى ، وقيل إنها تعرف بالمغارة ، والمسافرون يخصونها بهذه الإشارة . ويزعمون انه دخلها سبعة من القلندرية]الدراويش] وعجزوا عن اللحاق بالركب ، فماتوا بها صبرا ، فكانت لهم إلى يوم القيامة قبراً ، لأنهم هلكوا من الظمأ ، ووجدوا من عدم الماء الما . »[٢٥]

وقد قال فيها الشاعر :

مغارم الركب أضحت مغانما فى المغارة
والناس من قبل كانوا وقودها والحجارة

فكأنما كانت هى قطعة من جهنم التى وقودها الناس والحجارة ، معاذ الله .. !

ولأن رفيق الإنسان فى رحلة المحمل الشامى إلى الأراضى الحجازية كان هو الجمل ، فلم يخلو الأمر من وجود بعض المعتقدات الشعبية دارت حول الجمل ، سواء كان ذلك الجمل من جمال المحمل الشامى نفسه أو من غيره .

ففى طريق المحمل الشامى ، وعند منطقة تسمى (مضمن الغزالة) فى الطريق من المدينة إلى مكة حكى (عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى) فى رحلته عام ١١٠٥ هجرية فقال عنها : « وفى هذه الليلة تجفل الجمال ، بحيث يضطرب الحاج ، فيسقط بعض الأحمال ، وتذهب لهم أمتعة فى الأرض ، وبعضهم يسقط فيصاب بالشج والرّض ، فيقال إن الإبل تترأى لها هناك ملائكة أو شياطين او اقوام من الجان فتفزعهم فى ذلك الحين . »[٢٦]

وعند منطقة (الحِجْر) او ما يسمى باسم (آبار ثمود) او (مداين صالح) لم ينس حجّاج المحمل الشامي قصة ناقة صالح النبي التى وردت فى القرآن .وعلى الرغم من البعد الزمني الكبير بين ما حدث من عمر ناقة هذا النبى الكريم ـ هذا إذا صح القول بأن ذلك حدث فى منطقة (الحجر) السابقة ـ إلا أن كراهية الشرب من هذا المكان بحكم إنه كان مغضوبا على اهله فى أزمنة سحيقة يعد لغوا كبيرا فى تشكيل عقول حجّاج المحمل الشامي .[٢٧]

وعند مكان كان يسمى (شق العجوز) زعمت العامة ان ناقة ثمود خرجت من إحدى قطعتى جبل هناك ، « ويقال إنها القطعة اليمنى للمار ذاهبا بذلك الطريق ، وربما يرفع الناس اصواتهم إذا مروا فى ذلك المكان ، فيزعمون ان ولد الناقة المعقورة باقى هناك (!) وله صوت ، فإذا مسّ شىء من الجمال ربما سمع صوته فيهلك ، فترفع الناس اصواتهم دفعا لسماع ذلك الصوت . »[٢٨]

إن معظم المعتقدات الشعبية التى رسخت فى اذهان حجّاج المحمل الشامي على مدار السنين تدثرت بثياب الدين ، وعلى الرغم من البعد الزماني الآخر بين غزوة (تبوك) ايام عهد الرسول الكريم ـ ص ـ إلا أن حجّاج المحمل الشامي اقاموا لهم عادة فى منطقة تبوك كما حكى لنا ذلك (ابن بطوطة) فى رحلته عام ٧٢٤ هجرية .

قال (ابن بطوطة) : « ومن عادة حجّاج الشام انهم إذا وصلوا منزل تبوك ، أخذوا اسلحتهم ، وجردوا سيوفهم ، وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم ، ويقولون : هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم . »[٢٩]

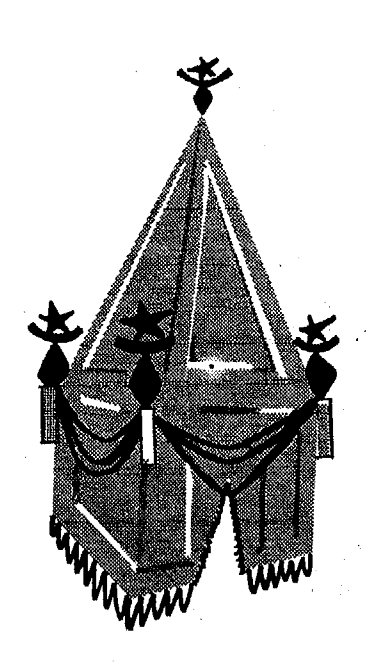
واشهر مااشتهر عن المحمل الشامي مسالة التبرك به ، وهو امر لا ينفرد به وحده ، إذ ان محامل العرب كلها وكذلك محامل الدول الإسلامية لم تخلو من هذه الظاهرة من ذلك ما ذكره الرحالة الأندلسى (ابن جبير) اثناء حجّه فى عام ٥٨٠ هجرية فى عهد السلطان (الناصر صلاح الدين الأيوبى) . قال (ابن جبير) والدهشة تعلو وجهه من المعتقدات الشعبية التى صاحبت المحمل الشامي وحجّاجه ومستقبليه : « ومن عجيب امرهم تعظيمهم للحاج ، على قرب مسافة الحجّ منهم ، وتيسير ذلك لهم ، واستطاعتهم لسبيله ؛ فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ، ويتهافتون عليهم تبركا بهم . ومن اغرب ماحدثناه من ذلك أن الحاج الدمشقى ، مع من انضاف إليهم من المغاربة ، عند صدورهم إلى دمشق فى هذا العام الذى هو عام ثمانين ، خرج الناس لتلقيهم ، الجم الغفير نساء ورجالا ، يصافحونهم ويتمسحون بهم ، واخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها ، واخرجوا إليهم الأطعمة . فاخبرنى من أبصر كثيرا من النساء يتلقين الحاج ، ويناولنهم الخبز ، فإذا عضّ الحاج فيه اختطفته من ايديهم ، وتبادرن لأكله تبركا باكل الحاج له ، ودفعن له عوضا منه دراهم ، إلى غير ذلك من الأمور العجيبة . »[٣٠]

وكان من عادة ولاة دمشق عند عودة المحمل الشامي جالبا معه بعض قطع من

كسوة الكعبة المشرّفة أن يكسو بها أضرحة الأولياء هناك ، مثلما حدث من والى دمشق (عبد الله باشا الايدينلى) وغيره ، والذى كانت ولايته بين عامى ١١٤٤ و ١١٤٦ هجرية ، فقيل أنه : « جاب زنار الكعبة ، وحطّ بعضه على تابوت سيدنا (يحيى) ، وبعضه على تابوت سيدنا الشيخ (رسلان الدمشقى) ، وبعضه على تابوت سيدتنا (رقية) و (زينب) قدسّ الله روح الجميع . »(٣١)

لقد استمر المحمل الشامى بالعديد من معتقداته الشعبية وعاداته ، يتوارثها حجّاج الشام ، من جيل إلى جيل حتى بعد استيلاء الأتراك على الشام ، ولم يتوقف إلا بقيام الحرب العالمية الأولى .(٣٢)





ثانيا : المحمل العراقى :

يعد عام ١٣٢ هجرية هو أول عام حج فيه بنو العباس بعدما آل أمر الخلافة الاسلامية اليها وأفل نجم دولة بنى أمية . وكان أمير الحج وقتها هو (أبو سليمان داود بن على) وهو عم (أبى العباس السفاح) أول خليفة للدولة العباسية الفتية .

ولم يقف قلم التاريخ كثيرا عند حوادث تاريخ الركب العراقى قبل عام ٣١٨ هجرية ، اللهم إلا وقفات عابرة سريعة وخاطفة .

أما فى عام ٣١٨ هجرية فقد حدثت مأساة مروعة بفعل القرامطة الخوارج صبغت بالدم المراق أشلاء أجساد آلاف من حجاج بيت الله الحرام ، فى عهد الخليفة العباسى (القاهر بالله أبى منصور) ، وفى هذه الحادثة قال (ابن اياس) : « لما تغلبت على الخلافاء طائفة من العربان يقال لهم (القرامطة) وكان اميرهم شخصا يسمى (أبو ظاهر القرمطى)خارجيا سفاكا للدماء جاهلا ، وكانت قبيلة هذه (القرامطة) يسكنون (بهجر) فلما خرج ركب الحاج من بغداد وكان أمير الركب يسمى (منصور الديلمى) فلما وصل بالحاج الى مكة وأقام بها الى يوم الصعود هجم عليهم (ابو ظاهر القرمطى) بمن معه من العربان ، فقتل (محارب) أمير مكة ، وقتل (منصور الديلمى) أمير الركب ، ونهب جميع الأموال التى بمكة ، وقتل الحجاج عن آخرهم ، وأسر النساء والصبيان الصغار ، فكان عدة من قتل فى هذه الحركة نحوا من خمسة وثلاثين ألف انسان ، وطرح غالب القتلاء ببئر زمزم حتى امتلأت بالقتلاء ، ثم دخل الى البيت الشريف ، وأخذ ما كان فيه من القناديل الذهب والفضة ، وقلع باب الكعبة الشريفة وقلع الحجر الأسود وعرى الكعبة ونزع الكسوة عنها ، وكانت هذه الحادثة من أجل المصائب وأعظمها ، ثم ان (أبا طاهر القرمطى) نقل ما نهبه من الأموال وغيرها الى (هجر) واستمر الحج منقطعا من بغداد وغيرها من البلاد نحوا من عشرين سنة لم يحج فيها الى البيت أحدا »[٣٣]

وحينما خمدت الفتنة القرمطية استأنف المحمل العراقى رحلاته الى الأراضى الحجازية ، وكان المحمل يضم أعدادا كبيرة من الحجاج ، من العرب ومن العجم ، حتى وصل بالأمر الى أن يضم المحمل العراقى محملين فى آن واحد مثلما روى الرواة عن محمل سنة ٧٥٨ هجرية : واحد يأتى من (بغداد) فى حين يأتى الآخر من (شيراز) ويسيران معا .[٣٤]

ولقد اهتم العراقيون بكسوة محملهم ، وبلغ هذا الإعتناء مداه فى عهود كثيرة ، مثل ما فعل (أبو سعيد خرابندة) فيقال انه غشى المحمل العراقى بثوب من المخمل الحرير ورصعه بالذهب واللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر ، وقد قدّر ما على المحمل فبلغ مائتا وخمسين ألف دينار من الذهب المصرى فى عهده سنة عشرين وسبعمائة .[٣٥]

ولم يكن هذا المحمل هو المحمل العراقى الوحيد الذى كان مترفا وبذخا فى تكاليفه ، فمن قبل كان محمل الأميرة (جميلة بنت ناصر الدولة أبى محمد الحسن ابن حمدان) سنة ٣٦٦ هجرية مضرب الأمثال فى زينته وتجمله . قيل كان معها أربعمائة محمل لها لون واحد ، فلم يعلم أحد ممن رأى الموكب فى ايها كانت ، وانفقت فى هذه الحجة ألف ألف دينار ومائة وخمسين ألف دينار ، ويقال انها لما رجعت الى بغداد صادرها (عضد الدولة بن بويه) واستصفى أموالها .[٣٦]

وفى عام ٥٧٩ هجرية وقف الرحّالة (ابن جبير) فاغرا فاه أمام بذخ المحمل العراقى ، خاصة ذلك المكان الذى كان يقيم به أمير المحمل ، فلقد رأى حوله سرادق كالسور من كتّان ، كأنه حديقة ، وفى داخله القباب المضروبة بسوادها وبياضها والوانها ورقشها الذى يبعث على المهابة . وقد لاحظ (ابن جبير) أن ابواب هذا السرادق مرتفعة ارتفاعا غير عادى ، بحيث يدخل منها الفارس برايته دون أن يطأطىء الرأس أو يحنى القامة . ولم تكون الحفاوة تحف أمير المحمل فقط ، بل سائر الأتباع .

ويصف (ابن جبير) الموكب قائلا : « ولهم أيضا فى مراكبهم على الابل قباب تظلهم بديعة المنظر ، عجيبة الشكل ، قد نصبت على محامل من الأعواد يسمونها (القشاوات) وهى كالتوابيت المجوفة ، هى لركابها من الرجال والنساء كالأمهدة للأطفال ، تملأ بالفرش الوثيرة ، ويقعد الراكب فيها مستريحا كأنه فى مهاد لين فسيح ، وبازائه معادلة أو معادلته فى مثل ذلك من الشقة الأخرى ، والقبة مضروبة عليهما ، فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران أو كيف ما أحبا . فعندما يصلان الى المرحلة التى يحطان بها ضرب سرادقهما للحين ان كانا من أهل الترفة والتنعيم ، يدخل بهما الى السرادق وهما راكبان ، وينصب لهما كرسى ينزلان عليه ، فينتقلان من ظل قبة المحمل الى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما ، ولا خطفة شمس تصيبهما . وناهيك من هذا الترفيه ، فهؤلاء لا يلقون لسفرهم وان بعدت شقته نصبا ، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعبا ».[٣٧]

وسجّل (ابن جبير) استقبال هذا المحمل العراقى فى مدينة (الموصل) وسط حفاوة أهلها به ، فكان ـ على حد قوله ـ « من أحفل المشاهد الدينيوية » حيث « خرج الناس عن بكرة أبيهم ركبانا ومشاة ، وخرج النساء كذلك ـ واكثرهن راكبات قد اجتمع منهن عسكر جرار ـ وخرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته ، فدخل الحاج المواصلة صحبة (خاتونهم) على احتفال وأبهة ، قد جللوا أعناق ابلهم بالحرير الملون ، وقلّدوها القلائد المزوقة ».[٣٨]

ولقد أخذ بذخ المحمل العراقى بلب (ابن جبير) فواصل وصفه قائلا : « ودخلت (خاتون المسعودية) تقود عسكر جواريها ، وامامها عسكر جواريها ، وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها ، وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الأكف ، وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات ، فلا تكاد تبين من

القبة مؤضعا ، ومطيتاها تزحفان بها زحفا ، وصخب ذلك الحلى يسد المسامع ، ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب ، ومراكب جواريها كذلك ، مجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره . وكان مشهد أبهت الأبصار ، وأحدث الاعتبار ، وكل مُلك يفنى إلا مُلك الواحد القهار لا شريك له ».[٣٩]

كان بذخ المحمل العراقى فى أوجّه وقت أن كانت بغداد عاصمة للخلافة الاسلامية ، وكان هذا الاهتمام به لأنه كان يمثل عنوان الدولة ووسيلة للتعرف على مدى قوتها وقت اجتماع الخلق لتأدية مناسك الحج ، ولم نسمع أو نقف على ذكر لهذا البذخ عند ضعف الدولة العباسية وبزوغ نجم ممالك أخرى نافستها فى هذا المضمار .

عجائب المحمل العراقى :

فى عام ٥٧٩ هجرية اخذ العجب بلب الرحالة الأندلسى (ابن جبير) من أمر المحمل العراقى ، وقال واصفا احساسه هذا : « فمن لم يشاهد هذا السفر العراقى ، لم يشاهد من أعاجيب الزمان ما يحدِّث به ، ويتحف السامع بغرابته ».[٤٠]

ومن تلك الأعاجيب طريقة الاستدلال على من يضل من الحجاج بالركب وذلك بالطواف به والمناداةعلى اتباعه من فوق جمل وسط الجموع الهائلة من الحجيج ، فضلا عن دقة نظام الحل والترحال وفق نقرات محددة على كوسات معدنية .

وقد يكون هذان الأمران غريبين فى ذاك الزمان ، أو على الأقل لم يكن (ابن جبير) يعهد ذلك فيما رأى من محامل وسط أعداد غفيرة مختلطة ببعضها ، لكن التاريخ يحمل فى أوراقه بعض الأعاجيب للمحمل العراقى ، سواء كانت قبل (ابن جبير) أو بعده .

ومن تلك الأعاجيب ما حدث فى عام ٤٨٩ هجرية بشأن استطلاع رأى المنجمين فى أمور غيبية ، معاذ الله .

قال (سبط بن الجوزى) صاحب (المرآة) عن هذه الحادثة : « فيها حكم المنجمون أن يكون طوفان كطوفان نوح عليه السلام ، وكان ببغداد (ابن عيشون) المنجِّم ، فقال : أخطأ المنجمون ، طوفان نوح قد اجتمع فى برج الحوت الكواكب السبعة ، والآن قد اجتمع ستة وزحل لم يكن معها ، ولكنى أقول ان بقعة من البقاع يجتمع فيها عالم من بلاد كثيرة فيغرقون ، فقيل : ما أكثر من بغداد فيجتمع فيها ما لا يجتمع فى غيرها ، وربما كانت هى ، فقال (ابن عيشون) : لا أدرى غير ما قلت ، فامر الخليفة بإحكام المسنيات وسد الفروج ، وكان الناس يتوقعون الغرق ، فوصل الخبر بأن الحاج قد نزلوا فى واد عند (نخلة) فأتاهم سيل عظيم ، فاجتاح الجمال وأخذ الرجال والنساء ، وما نجا إلا من تعلق برءوس الجبال ، فخلع الخليفة على (ابن عيشون) وأجرى له جراية ».[٤١]

وهذه الحادثة تتعلق بعقائد أهل بغداد انفسهم ، الذين ظنوا انهم لم يحتاطوا الاحتياط الواجب لمحملهم ، ولم يلتفتوا الى الطبيعة الجغرافية لأم القرى المحاطة بالجبال وتعرضها للسيول فى مرات غير قليلة .

وان يذهب الحاج الى بيت الله الحرام على ظهر جمل فهذا شيء عادى ، وأن يكون المحمل من فوق جمل فهذا شيء طبيعى ، لكن أن يكون فى المحمل العراقى فيل فهذا شيء غير مألوف البتة ..!

وهذا هو ما حدث من المجمل العراقى عام ٧٣٠ هجرية ، « فتطايرت أهل مكة من ذلك » ـ على حد قول (ابن اياس) ـ وأدى أمير المحمل به المناسك كلها ، « وسار به الى المدينة النبوية ، فلما وصل الى العريش الصغير قبيل البيداء الذى ينزل منه الى ذى الحليفةوقف وتقهقر ، وصار كلما يقدم رجلاً يؤخر اخرى ، فضربوه ليسير وهو يأبى ويرجع القهقرى ، فصار كلما اكره أن يتقدم الى المدينة تأخر الى ورائه . هذا وهم يضربونه ويتأخر ، الى ان سقط ميتا فى يوم الأحد الرابع عشر من ذى الحجة . ويقال ان المصروف عليه من حين خروجه من العراق الى أن هلك زيادة على ثلاثين الف درهم ، ولم يعرف مقصد (أبى سعيد خربندة) ـ ملك العراقيين ـ فى بعثة الفيل الى مكة المشرفة ».[٤٢]

موضع الغرابة فى هذه الحادثة يكمن فى أمرين :ـ أولهما : ان الفيل كحيوان ليس من الشائع ركوبه فى بلاد العرب ، فالبلاد العربية ليست بلادا تركب الأفيال ، بل مطيتها الجمال لما لها من مقدرة على تحمل وعثاء الطريق القفر ومشاقه وندرة الماء فيه . وثانيهما : ان الفيل مرتبط فى الأذهان بحادثة عام الفيل ، قبل بعث المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذا كان (ابن اياس) صادقا فى عبارته « فتطايرت أهل مكة من ذلك » لأنه لم يدخل مكة ـ على امتداد تاريخها الطويل ـ فيل من قبل سوى فيل (أبرهة) الذى رام هدم بيت الله الحرام .

خلافاته مع المحامل الأخرى العربية :

فى تاريخ المحامل العربية كلها مشاحنات لا حصر لها ، فلم يستطع أى منها أن يلقى خلف ظهره بخلافاته السياسية ، فاشتجرت بينهما الشواجر والخلافات وفرّقت أمورها الأهواء والمطامع منذ آماد بعيدة وحتى عهد قريب ..!

والمحمل العراقى كغيره من المحامل العربية حمل أدران تلك الخلافات ، بل كان هو أكثر المحامل العربية جمعاء نزاعا وشجارا مع غيره بحكم انتقال مركز السلطة من بغداد الى مراكز أخرى ، مثل القاهرة ودمشق .

وكان أول خلافات المحمل العراقى مع المصريين عام ٣٤٠ هجرية ، وقت أن كان يحكم مصر بنو الأخشيد بعد أن استقل بحكمها الطولونيون بعيدا عن حكم بنى العباس .

وعلى الرغم من نشوب القتال بين الطرفين ـ العراقى والمصرى ـ فى مكة ، فقد

تمت مناسك الحج ، وخطب الخطيب بعرفة وهو واقف فوق صناديق العامة من المصريين عوضا عن المنبر الذى سرق .. ![43]

وفى أواخر العصر المملوكى كثرت خلافات المحمل العراقى مع المحمل المصرى ، وكانت لهذه الخلافات عدة أسباب جوهرية هامة ، كما كان لبعضها دوافع واهية وتافهة ..!

ومن تلك الدوافع الواهية والتافهة أن يسبق المحمل المصرى والمحمل الشامى فى أحد المرات المحمل العراقى ، فيحس الأخير بالاهانة ..! وهذا تمام ما حدث فى عام ٨٧٦ هجرية فى عصر السلطان (الأشرف قايتباى) المملوكى .[44] وفى العام التالى وقعت مشاحنات بين المحمل العراقى والمحمل المصرى ، يقول (عبدالقادر الجزيرى الأنصارى) واصفا تلك الواقعة : « كان أمير المحمل المصرى (برسباى الأشرفى المعلم) وحج العراقيون بمحمل على العادة ، فصدهم أمير الحاج المصرى عن دخول مكة ، وامر أمير الحاج الشامى أن ينزل بجميع الشاميين بين الحجرتين ، لئلا يدخل الحاج العراقى ، فأقام الى السادس من ذى الحجة ، فلما كانت ليلة السابع امروا جميع حجاج العراق بالدخول الى مكة ، وتركوا المحمل بقبر أم المؤمنين (ميمونة) - رضى الله عنها - (بسرف) ، واحتاطوا على أمير الحاج العراقى فمسكوه مع دواداره واعتقلوهما ، ودخلوا بهما مكة على راحلتين بهيئتهما ، ثم ذهب بهما أمير الحاج المصرى بصحبته الى القاهرة مع محملهما ».[45]

نفس الوقعة يصفها (ابن اياس) بطريقة أكثر تفصيلا وأكثر اقناعا مما سبق ذكره ، إذ لم يذكر فيما سبق الدوافع وراء هذا الشجار . يقول (ابن اياس) : « وصل مبشر الحاج وأخبر بأن لما وصل المحمل العراقى ، ودخل الى المدينة الشريفة ، كان أميرركبهم شخصا يقال له (رستم) ، وصحبته قاض يقال له (أحمد بن دحية) ، فضيقوا على قضاة المدينة وأمروهم بأن يخطبوا فى المدينة باسم الملك العادل (حسن الطويل) خادم الحرمين الشريفين - ملك العراق - ، فلما خرجوا من المدينة وقصدوا التوجه الى مكة ، فكاتبوا أهل المدينة أمير مكة بما وقع ، فخرج اليهم الشريف (محمد بن بركات) ولاقاهم من بطن مرو ، قبل أن يدخلوا الى مكة ، وقبض على (رستم) أمير ركب المحمل العراقى ، وقبض على القاضى الذى صحبته ، وعلى جماعة من أعيانهم ، وأودعهم فى الحديد ليبعث بهم الى السلطان ، ثم أطلق بقية من كان فى ركبهم من الحجاج ، ولم يتعرض لهم ».[46]

ويذكر (ابن اياس) عند عودة المحمل المصرى هذا الى القاهرة أن كان معه من الغنائم كسوة للكعبة المشرفة أمر بعملها ملك العراق ..!

هنا يتضح لنا سبب هذا الشجار بين المحمل العراقى والمحمل المصرى . فقد كان العراقيون يريدون أن يُخْطَب باسم ملكهم فى المدينة المنورة واعلان هيمنتهم على الأمور ، كما أرادوا أن يعلقوا كسوة للكعبة المشرفة صنعوها ، فى حين ان

مصر قد اختصت وانفردت وحدها بذلك الشرف الرفيع !

وانتهى هذا الخلاف بعد أن قدّم ملك العراق اعتذارا عما حدث للسلطان (الأشرف قايتباى) فى رسالة مكتوبة بعثها اليه فى شهر المحرم سنة ٨٧٩ هجرية ، بعد أن أفرج السلطان المملوكى عن المقبوض عليهم من العراقيين فى شهر ربيع الآخر سنة ٨٧٨ هجرية .

وكما كانت تحدث خلافات للمحمل العراقى مع الحجاج المصريين ومحملهم كانت تحدث أيضا مع حجاج الشام .

وكان أبرز تلك الخلافات ما حدث فى عهد الدولة الأيوبية عام ٥٨٢ هجرية . ففى هذا العام ضرب أمير الحج الشامى كوساته وقت النفر من جبل عرفات ، ورفع راية السلطان (صلاح الدين الأيوبى) ، وهمّ بالافاضة من عرفات ، غير ان هذا الموقف لم يرق لأمير الحج العراقى ، ودارت معركة طاحنة بين الركبين سقط بسببها عدد كبير من القتلى ..!

وكانت هناك خلافات بين المحمل العراقى وأهل الحجاز فى مرات عدة . فقد حدث فى عام ٧٢٨ هجرية أن أحضر العراقيون جثمان نائب ملك العراق ليدفن عند باب الرحمة بالمدينة المنورة ، غير أن أمير المدينة لم يمكنه من ذلك إلا بعد استئذان السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) ، ووقفوا بالجثمان فى تابوته على جبل عرفات ، ودخلوا به مكة ليلا ، وطافوا به حول البيت الحرام ، ولم يعرف فى التاريخ ان كان قد تمكن العراقيون من دفنه فى أرض الحجاز أم عادوا به أرض العراق !![٤٧]

وكما دخل العراقيون بتابوت نائب ملكهم سرا الى الأراضى الحجازية ، فقد عمدوا سرا الى قياس الكعبة المشرفة طولا وعرضا ، وعدوا عدد أعمدة وأبواب المسجد الحرام بعد رحيل المحمل المصرى سنة ٨٠٧ هجرية .[٤٨]

كان هذا الفعل غريبا أمام أهل مكة ، ولما سأل أمير مكة (حسن بن عجلان) عن سبب ذلك عرف ان ملك العراق كان ينوى ارسال جيش عدده عشرة آلاف فارس صحبة المحمل العراقى ومعهم كسوة عراقية للكعبة المشرفة ، ويبدو أن هذا العدد الكبير من الجيش كان لاجبار أمير مكة على قبول الكسوة العراقية ومنع الكسوة المصرية ، ولكن الفكرة ماتت فى مهدها ، ولم تخرج الى حيز التنفيذ ، ويبدو أن مكاتبة الشريف المكى لاخبار السلطان المملوكى (الناصر فرج ابن برقوق) بما حدث كان الباعث الأساسى على قتل هذه الفكرة .

ثالثا : المحمل اليمنى :

تضاربت الاقوال فى تحديد فترة البداية الزمنية لنشأة المحمل اليمنى . قال (قطب الدين محمد بن النهروانى) انه نشأ فى عام ٩٦٣ هجرية بعد أن تولى (مصطفى النشار) ولاية اليمن ، والذى كان أمير الحاج المصرى عام ٩٦٢ هجرية ، وجاءه الأمر بترك عودة المحمل المصرى للأمير (مراد بك) وذهابه من مكة الى اليمن عن طريق البر فورا .

وقال عن (مصطفى النشار) هذا عدة ماثر منها : « انه احدث لحجاج اليمن محملا مثل محمل الحاج المصرى والشامي ، ورتّب لهم امير الحاج وقاضي المحمل وعرضة مثل عرضة امير الحاج المصرى والشامي ، فيبرز السيد الشريف صاحب مكة لملاقاة امير الحاج اليماني بعسكره الى خارج مكة ، في بركة الماجن ، ويلبس الخلعة الشريفة السلطانية من يد أمير الحاج اليماني ، ويدخل معه الى مكة كما يفعل ذلك مع امير الحاج المصرى والشامي ، ويفارقه مولانا السيد الشريف عند المرور على دار السعادة ، ويتوجه امير الحاج اليماني بمحمله الى ان يصل الى المعلاة ، فينزل عن يمين النازل الى المعلاة في سفح جبل عند البستان المعروف الآن ببستان المدني بقي منه شجيرات سدر ، ويطلع المحمل مع جماعة المحامل يوم الصعود الى عرفات ، فينزل قبل الوصول الى محطة اهل مكة على يمين الصاعد الى عرفات ، ويحمل وقت الوقفة بعلمه وطبله وزمره ، ويسير الى نحو جبل الرحمة ، فيقف بجبل عرفات بين يدى من يخطب خطبة عرفة ثلاث محامل : المصرى واليماني ثم الشامي ، وافرد لذلك مالا يصرف عليه من الخزائن السلطانية التي تحصّل في اليمن ، واستمر ذلك قانونا جاريا الى الآن ، وكان من قبل ذلك ياتون للحج من بلاد اليمن بدون امير الحاج وبدون المحمل ، بل تاتى قافلة يكون لها شيخ من بني مزروق السادة والمشايخ نفّع الله تعالى ببركتهم ».(٤٩)

وحدد اللواء (ابراهيم رفعت باشا) في كتابه « مراة الحرمين » نفس التاريخ وهو عام ٩٦٣ هجرية ، كبداية للمحمل اليمني ، واضاف انه استمر مجيئه الى مكة حتى سنة ١٠٤٩ هجرية ثم انقطع لما جدّ من الفتن .(٥٠)

وورد في كتاب (درر الفرائد) ان (مصطفى باشا) المعروف باسم (النشار) اعاد تجهيز المحمل اليماني بعد انقطاعه في عام ٩٤٩ هجرية.(٥١) إذن فالمحمل اليمني كان موجودا قبل ذلك التاريخ ، ولم تكن بدايته الحقيقية على يد (مصطفى النشار) هذا المذكور .

وقد ذكر (الفاسى) في كتابه « شفاء الغرام » في حوادث سنة ٨٠٠ هجرية ان « حج محمل لصاحب اليمن الملك الأشرف مع طواشي من جهته ، وفي خدمته الشريف (محمد بن عجلان) وحج معه جماعة من اعيان التجار والفقهاء المكيين وغيرهم ، وحصل للحجاج الذين كانوا مع المحمل اليمني عطش بقرب مكة مات فيه جماعة منهم رحمهم الله تعالى ، ووقف بعرفة مع المحامل ».(٥٢)

بل وقبل ذلك التاريخ ، وفي حوادث عام ٧٨٠ هجرية ذكر صاحب كتاب « درر الفرائد » انه : « لما وصل الحاج الى مكة بلغهم قدوم محمل اليمن وكسوة الكعبة ، جهز ذلك صاحب اليمن (اسماعيل بن الأفضل عباس بن المجاهد) وكان قد انقطع المحمل اليماني من دهر طويل يكون مقدار ثمانين سنة ، فمنع الأمير (قرة دمرداش الأحمدى) المحمل من الدخول وحجاج اليمن ، فلم يزل السيد (أحمد بن عجلان) امير مكة يتوسط بين المصرى واليماني حتى دخل اهل اليمن بمحملهم ووقفوا بعرفات ، ولم تكن فتنة ».(٥٣)

وإذا قرنا دقة التاريخ الذى حدده صاحب الدرر في كتابه يكون انقطاع المحمل اليماني في عام ٧٠٠ هجرية ، واستمر ذلك حتى عام ٧٨٠ هجرية ، واقدم تاريخ استطعنا الوصول اليهْ ـ فيما بين ايدينا من المصادر ـ للمحمل اليماني هو عام ٦٩٦ هجرية ، حيث ذكر ذلك صاحب كتاب « درر الفرائد » في اشارة سريعة اليه بغير تفاصيل ، فقد قال في حوادث هذه

السنة : « كان امير الحاج الشامي (عز الدين كرجي) ، وحج المحمل اليماني ، وعلم الملك المنصور صحبة القائد ابن زنكي ».(٥٤)

وكان من السهل على حجاج اليمن ان يحجّوا بالبحر - على الرغم من مخاطره - حتى لا يتعرضوا لمخاطر العربان قطّاع الطريق البرى . وكان هذا الطريق البرى ينقسم الى مراحل ، حيث يبدا من مدينة (تعز) ، ثم (البئر) ، ثم (وادى الحناء ، ثم (وادى الموزّ) الذى يكثر فيه الموز والشراب المسكر ، ثم (زبيد) ، وهى دار الملك ، وبها يجتمع الحجاج اليمنيون ويتكاملون ، ثم (حديدة زبيد) ، ثم (المعازبة) ، ثم (نشال) ، ثم تتوالى المراحل : القحمة - جازان - بياضة - حرض - المحالب - حلى بنى يعقوب - ترعة بنى حازم - ملتقى الواديين - الحسنة - يلملم ، وهى ميقات اهل اليمن حيث يحرمون فى هذا المكان ويهلون بالتلبية ، ثم يتجهون الى (بئر على) ثم الى مكة المكرمة .(٥٥)

خلافات المحمل اليمنى :

ورث المحمل اليمنى خلافات عديدة نشبت على ارض الحجاز ، فقد راى اليمنيون أن الدولة العباسية اصبحت ضعيفة ، وان الدولة الأيوبية فى مصر انشغلت بحروبها الصليبية ، فتكرر من ملك اليمن منع اعلام الخليفة العباسى من طلوع جبل عرفات ، ومنع حجاج العراق من دخول مكة ، تحت تهديد السلاح ، وقيل انه فى علم ٦١٩ هجرية لبس الملك اليمنى (اقسيس ابن الكامل) الملقب بالمسعود خلعة الخليفة وهو فى مكة !(٥٦)

ويذكر التاريخ أن الملك (المجاهد) صاحب اليمن تحارب مع المحمل المصرى فوق جبل عرفات فى عام ٧٥١ هجرية ، ولما انهزم اقتادوه الى القاهرة مكبلا فى القيود ، وعندما تصالح والسلطان (الناصر حسن بن قلاوون) وافرج عنه ، ارسل معه زمرة من الجند لتوصيله الى مكة ، غير انه غدر بهم عند ينبع بالاراضى الحجازية ، فما كان منهم إلا ان قبضوا عليه ، واعادوه فى الأغلال مرة اخرى الى القاهرة ، ومنها ارسل الى سجن الاسكندرية .(٥٧)

ورغم انقطاع المحمل اليمانى ثمانين عاما عن الذهاب الى الأراضى الحجازية ، إلا ان الخلافات لم تنقطع ولم تزل ، فحينما وصل حجاج المحمل المصرى الى مكة علم ٧٨٠ هجرية « بلغهم قدوم عسكر من اليمن ، وصحبتهم محمل وكسوة للكعبة ، فمنعهم من الدخول الى مكة امير الحاج الأمير (قرا دمرداش) فلم يزل الشريف (احمد ابن عجلان) يتلطف بالأمير (قرا دمرداش) ، حتى اذن لهم فى الدخول الى مكة بمحملهم ، فدخلوا ووقفوا بعرفة ، ثم ان امير الحاج كسى الكعبة ، وخرج من مكة فى يوم عيد النحر ، وخشى من وقوع فتنة بينه وبين صاحب اليمن ».(٥٨)

كانت المسالة مسالة كرامة حكم ووجاهته وسيادته ، ولأن قلب الحكم المملوكى وثقله الذى يؤثر مركزه فى توجيه دفة الأحداث كان فى القاهرة ، فكان من الصعب نفسيا أن تمر استفزازات المحمل اليمنى مرور الكرام امام اعين ولاة الامور فى القاهرة . وكان يزيد ذلك الأمر المرير مرارة أن يتخلف فى سنة من السنين لسبب او لآخر المحمل المصرى عن الحج . قال (ابن ایاس) فى احداث علم ٩١٢ هجرية : « جاءت الأخبار من مكة بأن حضر الى مكة بسبب الحج جماعة كثيرة من اليمن والعراق ، وغير ذلك من البلاد ، ووقفوا بالجبل ، فتنكد السلطان - الغورى - بسبب ذلك لعدم خروج المحمل من القاهرة ، ورأى ذلك فى حقه

نقصا بين ملوك اليمن وغيرها .»[٥٩] وكثرت التقلبات السياسية والنزاعات باليمن في العصر العثماني ، ووجد المحمل اليماني كسيرا قد القوه بالقبة المبنية في محل سقاية العباس بالمسجد الحرام سنة ١٠٦٧ هجرية الموافق ١٦٥٦ ميلادية .[٦٠]

رابعا : المحمل المغربي :

كان المحمل المغربي ينقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية وفق اماكن تجمعها ، وهي : محمل سلجماسة وتافيلات ومحمل مراكش وفاس ومحمل تطوان وسلا . وكان المحملان الأولان من النوع البري ، بينما المحمل الثالث من النمط البحري .[٦١]

كانت قوافل الحج المغربية تصب في القاهرة قبلما تصل الى الأراضي الحجازية حتى تأنس بصحبة المحمل المصري في الطريق ، في الذهاب وفي الاياب .

وقد تميزت ظاهرة المحامل المغربية بعدة ظواهر ، كان اهمها :

١ ـ ان التقاء المحامل المغربية في الحواضر المشرقية في مسيرات تختلف بين الذهاب شرقا والاياب غربا ـ برا وبحرا ـ وبما يفيد بانتظام السفر بين المغرب والمشرق ذهابا وايابا على مدار السنة تنقل المراسلات بل والزاد ، فكان هذا الالتقاء فرصة للرحّالة المغاربة للوقوف على اخبار بلدهم في قطاعاته المختلفة ، فضلا عن نقل اخبارهم الى ذويهم بشكل منتظم ومن غير قلق من طول الرحلة في السفر او الاقامة . والملاحظ من الرحلة ان الاقامة بالشرق قد تنوعت بين هدف المجاورة في مكة وهدف التجارة في طرابلس ومصر .

٢ ـ ان تقابل المحامل المغربية مع غيرها من محامل الحج الجزائرية والتونسية والطرابلسية والمصرية ، بل ومصاحبة بعضها احيانا ، ومثل هذا التقابل كان يعطي كل محمل الفرصة للوقوف على معالم الحياة في المحامل الأخرى والأخذ منها او انتقاده او الدخول في جدل حولها .

٣ ـ ان تنوع الجدل في هذه المحامل بين المعتقدات المحلية والعادات الشعبية ومظاهر الحكم وحياة الحواضر والبوادي يبرز نظرة المغرب العربي للشرق العثماني وما يدور من حوله .[٦٢]

ولم يكن هؤلاء الحجاج المغاربة بمعزل عما يدور في مصر أو في غيرها ، ويكفي لابراز وحدة الشعور القومي بين المغاربة والمصريين الذين تضافروا في ركب واحد على مدار السنين ان نذكر ما حدث في عام ١٢١٣ هجرية بعدما نزل بمصر وباء الحملة الفرنسية التي راحت تقتلع منها كل اخضر ويابس .

قال (الجبرتي) في أحداث شهر ذي القعدة من تلك السنة : « وفيه حضرت مغاربة حجاج الى بر الجيزة فتحدث الناس وكثر لغطهم وتقولوا بانهم عشرون الفا حضروا لينقذوا مصر من الفرنسيس ، فارسل الفرنسيس للكشف عليهم فوجدهم طائفة من خلايا وقرى فاس مثل الفلاحين ، فاذنوا لهم في تعدية بعض انفار منهم لقضاء اشغالهم ، فحضر شخص منهم الى الفرنسيس ووشى اليهم انهم قدموا لمحاربتهم والجهاد فيهم ، وانهم اشتروا خيلا وسلاحا وقصدهم اثارة فتنة .

فأرسل الفرنسيس اليهم جماعة ينظرون في امرهم ، فذهبوا اليهم وتكلموا معهم ومع كبيرهم وعن الذي نقل عنهم ، فقالوا : انما جئنا بقصد الحج لا لغيره . ثم رجعوا وصحبتهم كبير المغاربة فعملوا الديون في صبحها وأحضروه ، وكذلك احضروا الرجل

الذى وشى عليهم فتكلموا مع كبير المغاربة ، وسالوه ، وناقشوه ، فقال : إنا لم نات إلا بقصد الحج . فقيل له ولأى شيء تشترون الاسلحة والخيول ، فقال : نعم لازم لنا ذلك ضرورة ، فقيل له : انه نقل عنكم انكم تريدون محاربة الفرنساوية وتقولون الجهاد افضل من الحج ، فقال هذا كلام لا اصل له ، فقيل له : ان الناقل لذلك رجل منكم ، فقال : ان هذا رجل حرامى امسكناه بالسرقة وضربناه ، فحمله الحقد على ذلك ، وان هذه البلاد ليست لنا ولا لسلطاننا حتى نقاتل عليها ، ولا يصح أن نقاتلكم بهذه الشرذمة القليلة وليس معنا إلا نصف قنطار بارود . ثم اتفقوا معه على ان يجمعوا سلاحهم ويقيم كبيرهم عندهم رهينة حتى يعدى جماعته ويسافروا ويلحقهم بعد يومين بالسلاح ، فاجابهم الى ذلك ، فشكروه واهدوا له هدية . فلما كان يوم السبت خرجت عدة من العسكر الى بولاق ومعهم مدفعان ليقفوا للمغاربة حتى يعدوا البحر ويمشوا معهم الى العادلية ، فلما راى الناس خروج العسكر والمدافع فزعوا فى المدينة وبولاق ورمحوا كعادتهم فى كرشاتهم وصياحهم ، واشاعوا ان الفرنسيس خرجت لقتال المغاربة ، واغلقوا غالب الأسواق والدكاكين وامثال ذلك من تخيلاتهم ، فلم يعد المغاربة ذلك اليوم وعادوا فى ثانى يوم ، ومشى معهم عسكر الفرنسيس الى العادلية وهم يضربون الطبول وامامهم مدفع وخلفهم مدفع مع جملة من العساكر ».(٦٣)

كان هناك نوعان من الحجاج المغاربة يرافقان المحمل المصرى فى رحلته الى الأراضى الحجازية .

كان النوع الأول من الأصحاء القادرين على تحمل مشاق السفر برا أو من يصفهم (العياشى) - فى رحلته الحجازية لاداء فريضة الحج خلال القرن السابع عشر فى ١٠٦٤ هجرية ١٦٥٣ ميلادية « باهل القوة الذين لهم شقف ومحامل وهوادج ينامون فيها بالليل على ظهور الابل ، ويصحون بالنهار كانهم مقيمون . والنوع الثانى من الفقراء الذين لا يملكون تكاليف السفر والذين يصحبون القافلة ويعيشون على هامشها وقد وصفهم (العياشى) صاحب كتاب « ماء الموائد » بانهم من الذين « لا إبل لهم ولا امتعة يرافقون الوفد المصرى بالماء المبل فى أوقات من الليل ، وعند الرحيل نهارا مع ما ينالهم من أهل المروءة من التصدق بفضل الأطعمة ، إلا انهم يكابدون مشقة عظيمة فى المشى والسهر ليلا ، وفى النهار يشتغلون بالسعى على ما يفوتهم فلا يكادون ينامون إلا قليلا ».(٦٤)

كان البعض من المغاربة ممن تيسر له الحال يترك ركب المحمل المصرى عندما يقرب مسيره من السويس ، اما الفقراء فكانوا يواصلون معه السير .(٦٥)

لم تكن علاقة المغاربة بالمحمل المصرى هى وليدة العصرالعثمانى وحسب ، بل امتدت هذه العلاقة الى ابعد من ذلك . فقد كان ولاة الأمور فى المغرب العربى يصلون الى مصر عند قصدهم حج بيت الله الحرام ، ويلقون فيها من قادتها كل ترحاب وحفاوة وتقدير متبادل .

وذكر (ابن اياس) فى حوادث سنة ٧٣٦ هجرية ان زوجة ملك المغرب أتت الى مصر عند توجهها الى الحجاز ، « وحضر صحبتها تقادم حفلة للسلطان ، ومن جملتها اعجوبة وهو ثور اصفر ، فاقع اللون ، كامل الخلقة ، وفى وسط ظهره من الجانب الأيمن كتف طالع منه رءوس اضلاعه ، وذلك الكتف بمرفق وذراع ، وحافر مفروق مثل حافر البقر ، فكان يطوف بالقاهرة ، ويُجبىَ عليه كما يُفعَل بالسباع ، وكان يطوف القاهرة ، وعليه جلّ من حرير اصفر ».(٦٦)

وبعد ذلك بعامين ، وفى سنة ٧٣٨ هجرية حجت ام السلطان (ابى الحسن على ابن عثمان المريسى) صاحب فاس ، وتصدرت ركب المحمل المصرى تكريما لها .(٦٧)

وفى حوادث شهر رمضان سنة ٨٠٣ هجرية ذكر (ابن اياس) ان حجاج المغرب عندما وصلوا كان على راسهم رُسُل صاحب تونس بهدية ، منها ستة عشر فرسا ، قُدمت للسلطان ، وقدم معهم نحو ثلثمائة فرس للبيع ».(٦٨)

وذكر (ابن اياس) كذلك فى حوادث شهر رمضان سنة ٨٧٧ هجرية انه : « وصل ركب من المغاربة من تونس ، وكان صحبتهم الحُرّة زوجة صاحب تونس ، وحضر صحبتها قاضى الجماعة الشيخ (ابو عبدالله محمد بن عمر القلجاني) وكان من فضلاء علماء المالكية ، فاكرمه السلطان (قايتباى) والامراء ، ورأى من العزّ والعظمة حظا وافرا ».(٦٩)

وفى عصر (محمد على) استمر هذا العرف قائما ، واستمرت العلاقات وطيدة بين القاهرة وامراء المغرب العربى عند وفودهم اليها للحج .

قال (الجبرتى) فى وقائع شهر ذى القعدة سنة ١٢٢٦ هجرية : « وفى سادسة ، حضر ايضا الركب الفاسى وفيهم ابن سلطان المغرب مولاى (ابراهيم) ابن مولاى (سليمان) ، فاعتنى الباشا بشانه ، وارسل كتخدا بك لملاقاته ، وقدّم له تقادم ، واعدوا له منزل (على كاشف) بالقرب من بيت (المحروقى) ، لينزل فيه ، وتقيد بخدمته الرئيس (حسن المحروقى) وحواشيهم لمطبخه وكلف طعامه ، فلما عدى طلع الى القلعة وقابل الباشا ، ونزل الى المنزل الذى اعده له وامامه قوّاسة اتراك وطرادون واشخاص اتراك يضربون على طبلات وامامه جميع المغاربة مشاة ، ويامرون الناس الجالسين بالحوانيت بالقيام له على اقدامهم . فاقامُ خمسة ايام حتى قضى اشغاله ، وفى تلك المدة تغدو اليه وتروح رسل الباشا ، وارسل له هدية وذخيرةمن كل صنف سكر ، وعسل وسمن ، ودقيق ، وبقسماط واشياء اخرى ، وبارود ، واعطى له الف بندقية لضرب الرصاص ، وبرز فى عاشرة ، وسافر فى ثانى عشرة » .(٧٠)

خلافات المحمل المغربى :

مع كثرة رحلات المغاربة الى الاراضى الحجازية لأداء فريضة الحج نشأت عدة خلافات بينهم وغيرهم فى الطريق الطويل .

ومن ابرز تلك الخلافات ما حدث فى علم ٧٨٥ هجرية فى مدينة (ينبع) بالأراضى الحجازية ، فقد حدث ان امير ينبع (سعد بن ابى الغيث الحسنى) كان قد نزل على الحجاج المغاربة بوادى العقيق ، وسالهم ان يعطوه شيئا من الدراهم ، فامسكه شيخ ركب المغاربة ، وربطه من كتفيه بحبل ، واخذ فرسه من تحته ، واخذه ماشيا الى خيامه ، فاتاه جماعة كثيرة من قبيلته ، وقاتلوا المغاربة اشد القتال ، وقتل من المغاربة جماعة كثيرة ، وخلصوا امير ينبع من ايديهم ، كما وقعت كذلك معركة اخرى بين المغاربة وحجاج التكرور والصعايدة المصريين كان من نتيجتها ان اخذ المغاربة اموالهم ..!(٧١)

وقد نشأت مصادمات بين المغاربة وبعض الفئات فى القاهرة فى العصر العثمانى فى فترة التاهب للسفر بالمحمل المصرى الى الحجاز .

من ذلك مارواه (الجبرتى) فى حوادث سنة ١١١٠ هجرية قال : « وفى رابع عشر شوال كانت واقعة المغاربة من اهل تونس وفاس ، وذلك ان من عادتهم ان يحملوا كسوة الكعبة

التي تحمل كل سنة للبيت الحرام ، ويمرون بها في وسط القاهرة ، وتحمل المغاربة جانبا منها للتبرك بها ، ويضربون كل من راوه يشرب الدخان في طريق مرورهم . فراوا رجلا من اتباع (مصطفى كتخدا القازدغلي) فكسروا انبوبته ، وتشاجروا معه ، وشجوا راسه ، وكان في مقدمتهم طائفة منهم متسلحون وزاد التشاجر واتسعت القضية ، وقام عليهم اهل السوق . وحضر (أوده باشا) البوابة فقبض على اكثرهم ووضعهم في الحديد ، وطلع بهم الى الباشا ، واخبروه بالقضية ، فامر بسحبهم بالعرقانة . فاستمروا حتى سافر الحج من مصر ، ومات منهم جماعة في السجن ، ثم افرج عن باقيهم ».(٧٢)

ولم تكن تلك الحادثة هي الأخيرة ، بل حدث صدام آخر في شهر رمضان عام ١٢٠٢ هجرية ، ولكن في هذه المرة على نحو مختلف .

قال (الجبرتي) يسرد وقائع هذه الحادثة : « وفي خامس عشرينه ، وقع بين طائفة المغاربة الحجاج النازلين بشاطىء النيل ببولاق وبين عسكر القليونجية المتقدمين بقليون (اسماعيل بك) ومعهم نساء يتعاطون المنكرات الشرعية ، فكلمهم المغاربة ، ونهوهم عن فعل القبيح ، وخصوصا في مثل هذا الشهر ، أو انهم يتباعدون عنهم ، فضربوا عليهم طبنجات ، فثار عليهم المغاربة ، فهرب القليونجية الى مراكبهم ، فنط المغاربة خلفهم ، واشتبكوا معهم ومسكوا من مسكوه ، وذبحوا من ذبحوه ، ورموه الى البحر ، وقطعوا حبال المراكب ، ورموا صواريها ، وحصلت زعجة في بولاق تلك الليلة ، واغلقوا الدكاكين ، وقتل من القليونجية نحو العشرين ، ومن المغاربة دون ذلك . فلما بلغ (اسماعيل بك) ذلك اغتاظ ، وارسل الى المغاربة يامرهم بالانتقال من مكانهم ، فانتقلوا الى القاهرة ، وسكنوا بالخانات ، فلما كان ثاني يوم ، نزل الاغا والوالي ونادبا في الأسواق على المغاربة الحجاج بالخروج من المدينة الى ناحية العادلية ، ولا يقيموا بالبلد ، وكل من آواهم يستاهل ما يجرى عليه ، فامتنعوا من الخروج ، وقالوا : كيف نخرج الى العادلية ونموت عطشا . وذهب منهم طائفة الى (اسماعيل كتخدا حسن باشا) فارسل الى (اسماعيل بك) بالروضة يترجى عنده فيهم ، فامتنع ، ولم يقبل الشفاعة ، وحلف ان كل من مكث منهم بعد ثلاثة أيام قتله . فتجمعوا احزابا ، واشتروا اسلحة ، وذهب منهم طائفة الى الشيخ (العروسى) والشيخ (محمد بن الجوهرى) فتكلموا مع (اسماعيل بك) فنادى عليهم بالأمان ».(٧٣)

ولهاتين الحادثتين اللتين ذكرهما (الجبرتي) مبرراتهما عند البعض منا . فالحجاج المغاربة لم يكونوا يصطدمون في العادة بعناصر من المصريين او من اسماهم صاحب (عجائب الآثار) باولاد البلد ، وانما كانت صداماتهم تقع مع عناصر عسكرية في خدمة السلطة ، وهي في العادة كانت من العناصر التركية . فهؤلاء المغاربة الحجاج كانوا متشددين بحكم انتماءهم للمذهب المالكي ، وهم نتيجة لهذا التشدد كانوا يرون في بعض سلوكيات اتباع المذاهب الاخرى خروجا عن الدين او ما اسموه « بالمنكرات الشرعية » مثل التدخين كما جرى في الحادثة الاولى .

ومن ناحية اخرى وهم في طريقهم الى تادية الفريضة المقدسة فقد كان شعورهم الديني اكثر التهابا من اولئك الذين يمارسون حياتهم العادية ، وبالتالي فقد كان ما حدث من القليونجية بمصاحبتهم النساء في شهر رمضان ما يمكن ان يستفزهم الى اقصى حد .
(٧٤)

وبصرف النظر عن مدى صحة هذا التفسير من عدمه لأحداث الخلافات بين الحجاج المغاربة وبعض القطاعات في المجتمع المصرى ، فيبقى لقوافل الحج المغربية فضيلة الارتباط بقوافل الحج المصرية والتى ظلت على ترابطها معها حتى فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ ميلادية على الأقل .[٧٥] فبعد أن كان حجاج المغرب وصل عددهم الى ١٥٠٠ فرد كما ذكر (ابن اياس) ، قفز هذا الرقم الى ٤ آلاف فرد كما ذكر (كلوت بك) ، ونتج عن حفر قناة السويس توقف قافلة الحج المصرية بالشكل الذى كانت تذهب به من قبل ، ولم يعد أمام الحجاج سوى طريق البحر حيث يقلعون من السويس متوجهين راسا الى جدة . وقد تقلص بهذا دور مصر بالنسبة لركب الحج المغربى إذ تحولت الى مجرد منطقة عبور الى الأراضى المقدسة بعد أن كانت نقطة الانطلاق اليها .[٧٦]

خامسا : المحمل التكرورى :

حجاج التكرور الذين اشتهروا بهذا الاسم هم سكان بلاد التكرور ، والتى تقع فى أقصى جنوب بلاد المغرب ، وهى جزء من اقليم غانا الحالى [٧٧] ويقال ان أول من حج منهم هو ملكهم (منساولى بن مارى بن جاظة) فى أيام سلطنة السلطان المملوكى (الظاهر بيبرس) ثم ملكهم (ساكبورة) ثم ملكهم (منسا موسى) لما قدم الى مصر سنة ٧٢٤ هجرية .[٧٨]

ويقال ان هذا الملك حج ومعه خمسة عشر الفا من التكاروة .[٧٩] وقيل انه طلب منه أن يقبل الأرض فى حضرة السلطان المملوكى (الناصر محمد ابن قلاوون) بالقلعة ، فالتفت الى الترجمان وقال : انا مالكى المذهب ، ولا اسجد لغير الله ، فاعفاه السلطان من ذلك ، بل وقربه واكرمه ، وساله عن سبب مجيئه ، فقال : اردت الحج ، فامر السلطان المملوكى وزيره أن يجهّزه بكل ما يحتاج اليه .[٨٠]

وقيل ان (منسا موسى) أهدى السلطان المملوكى اربعين الف مثقال من الذهب والى نائبه عشرة الاف مثقال .[٨١]

وقيل انه كان مع ملك التكرور (منسا موسى) مائة حمل ذهبا ، انفقها فى سفرته تلك .. حتى احتاج الى القرض ، فاستدان على ذمته من تجار مصر بمالهم عليه فيه المكاسب الكثيرة ، بحيث يحصل لأحدهم فى كل ثلاثمائة دينار سبعمائة دينار ربحا ، وبعث اليهم بذلك بعد توجهه الى بلاده .[٨٢]

كان عدد حجاج التكرور يتزايد سنة بعد سنة . وقد بدا العدد بمقدار ١٥٠٠٠ حاج فى سنة ٧٢٤ هجرية ، واصبح ١٧٠٠ حاج فى سنة ٨١٩ هجرية ، وكان معهم نحو ٢٠٠٠ من العبيد .[٨٣]

وقيل انه فى سنة ٨٥٨ هجرية عمّ مكة سيل عظيم قضى على كل حجاج التكرور عن بكرة ابيهم .[٨٤]

ولأن حجاج التكرور كانوا يأتون من جنوب مصر فكانوا يصحبون معهم حجاجا من الصعيد .[٨٥]

□ □ □

خلافات المحمل التكرورى :

نشات عدة خلافات للمحمل التكرورى على مدار اسفاره الكثيرة الى الأراضى الحجازية ، مثلما حدث فى عام ٧٢٤ هجرية فى مكة مع الأتراك ، ومثلما حدث فى عام ٧٨٥ هجرية مع المغاربة ، والتى لم يعرف سبب هذه الخلافات ، غير انه ورد فى احداث التاريخ فى عام ١٠٩٨ هجرية انه رؤى ترحيل حجاج التكرور من مكة وقتها بسبب قيامهم ببعض السرقات وعمل السحر .

قال (العصامى المكى) بشأن هذه الحادثة : « وقع النداء بأمر مولانا الشريف احمد ـ رحمه الله ـ أن لا يقيم بمكة أحد من جنس التكرور ، ومن وجد بعد ثلاثة عوقب بالنكال ، فتهيأوا ، واجتمعوا فى اليوم الثالث آخر النهار بطرف المعلاة ، وقرءوا الفاتحة ، ثم توجهوا ، البعض الى المدينة المنورة ، والبعض الآخر الى جدة ، والبعض الى قرية الطائف ».(٨٦)

سادسا : المحمل الرومى أو التركى أو العثمانى :

كانت العلاقات بين الدولة العثمانية فى تركيا ودولة سلاطين المماليك فى مصر يغلفها الود والاحترام المتبادلين ، وذلك قبل أن تجتاح ضربات أسيافهم رقاب المماليك فى عام ٩٢٢ هجرية .

كانت الرسل والهدايا تروح وتجيء بين اسطمبول والقاهرة ، وهذا ما ذكره المؤرخون لأعوام ٧٨٦ و٧٨٨ و٨٠٣ هجرية .(٨٧)

وعلى الرغم من ان المسافة المباشرة لطريق الحج بين العاصمة العثمانية ومكة المكرمة لا تمر بالقاهرة إلا أن هذا لم يجعل ولاة الأمر فى الدولة العثمانية يغفلون اصول طرق أبواب العاصمة المصرية للاستئذان للأمراء عند طلب الحج .

قال (ابن اياس) فى حوادث شهر شوال سنة ٩١٥ هجرية : « وفى يوم الاثنين سابع عشرة خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل (طقطباى) نائب القلعة احد المقدمين ، وبالركب الأول (مغلباى الزردكاش) أحد الأمراء الطبلخانات ، فكان لهما يوم مشهود ، وحضر امير من امراء ابن عثمان الكبير يروم الحج وصحبته نحو من اربعين الف دينار ارسلها ابن عثمان على يده ليفرقها على فقراء مكة والمدينة ، فسافر صحبة الحجاج ».(٨٨)

وقد نقل اللواء (ابراهيم رفعت باشا) من صفحة ٥١ من كتاب « خلاصة الكلام فى اخبار البلد الحرام » للسيد (احمد بن زينى دحلان) أن المحمل الرومى ابتدا مجيئه الى الحجاز فى سنة ٩٢٣ هجرية ، فى زمن السلطان سليم الأول ، حيث ارسل الأمير (مصلحا بك) بمحمل رومى وكسوة للكعبة وصدقات .(٨٩)

وإذا وقفنا عند تاريخ عام ٩٢٣ هجرية ، وهو عام ما بعد غزو العثمانيين للأراضى المصرية ، وهيمنتها على الأمور فيها ، فسنجد ان الذى حدث كما سجله (ابن اياس) هو انه فى يوم الاثنين ثانى عشر شهر رمضان من هذا العام « عرض ملك الأمراء (خاير بك) كسوة الكعبة الشريفة والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام ، وكسوة لضريح النبى صلى الله عليه وسلم ، وعدّة ستور وكسوة لضريح الخليل عليه السلام ، ومحملا من قِبَل

ابن عثمان ، وقد تناهوا في زركش البرقع ونسيج الكسوة بخلاف العادة الى الغاية ، فشقوا من القاهرة وقدامهم الاعيان من المباشرين ، والجمّ الغفير من العثمانية ، ومن الرماة جماعة كثيرة يرمون بالنفوط ، فشقوا من القاهرة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فلما طلعوا الى القلعة عرضوا على (خاير بك) نائب السلطنة ، ثم رجعوا ثانيا من حيث جاءوا ».(٩٠)

إن هذا المحمل الذى « من قِبَل ابن عثمان » ـ على حد تعبير ابن اياس ـ والذى وصفه اثناء موكب عرض كسوة الكعبة المشرّفة قال عنه ايضا (ابن اياس) في حوادث شهر شوال من نفس العام ، وقت التاهب للرحيل الى الأراضي الحجازية : وقد جدد ابن عثمان كسوة المحمل في هذه السنة ، فصنع له كسوة فاخرة كلها زركش ، وكتب عليها اسمه ، فلما شقوا من القاهرة كان لهم يوم مشهود على العادة القديمة .(٩١)

ولا يعني تجديد كسوة للمحمل ، وكتابة الاسم عليه ان هذا المحمل كان عثمانيا او صار عثمانيا ، بل هو محمل لمصر التي اصبحت تحت ادارة الحكم العثماني منذ ذلك الوقت ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال ان يكون المحمل العثماني بداية تسييره من القاهرة ، بل الأحرى به ان يكون هذا التسيار من قلب العاصمة العثمانية اسلامبول ، كما هي العادة والعرف المتبعين ، لأنه يمثل الدولة حينذاك .

ويحسم هذا الخلاف في ان عام ٩٢٣ هجرية ليس هو بداية المحمل الرومي او التركي ورقة من احدى مخطوطات (السنجاري المكي) بمكتبة الحرم المكي تؤرخ للمحمل الرومي او التركي قبل هذا التاريخ بخمسة أعوام على الأقل .

قال (السنجاري المكي) في حوادث عام ٩١٨ هجرية : « واطلق السلطان (سليم خان) الجماعة الذين كانوا بمصر من اعيان مكة كانوا في الحبس ، منهم القاضي (صلاح الدين بن السعد بن ظهيرة) ، وارسل معهم بعد اكرامهم الى مكة الأمير (مصلح بك) بمحمل رومي وكسوة للكعبة ، واشترى السلطان (سليم خان قرى واضافها الى قرى بيسوس وسندبيس التي اوقفها السلطان (محمد بن قلاوون) على كسوة الكعبة ، فورد الأمير (مصلح) المذكور بالمحمل الرومي ومعه كسوة الكعبة والصدقات الرومية . وتقدم ان أول من ارسل بالصرة الى اهل مكة السلطان (محمد خان بن بيلدرم خان) وكان يرسلها من الروم قبل اخذهم بلاد العرب ».(٩٢)

ومن خلال هذا النص يتضح لنا ان العثمانيين او الروم كانوا يرسلون بصرة النقود الى فقراء الحرم ، وهي العادة المتبعة دائما عند ارسال المحمل لأي بلد اسلامي ، وعلى هذا يكون قد تم ارسال المحمل الرومي أو العثماني او التركي في عهد السلطان (محمد خان بن بيلدرم خان) العثماني .

وهذا السلطان العثماني تولى الحكم في الفترة بين اعوام ١٤١٣ حتى ١٤٢١ ميلادية . اي ٨١٦ حتى ٨٢٤ هجرية ، وهي الفترة المعادلة لفترة حكم السلطان المملوكي (المؤيد شيخ المحمودي) في مصر .(٩٣)

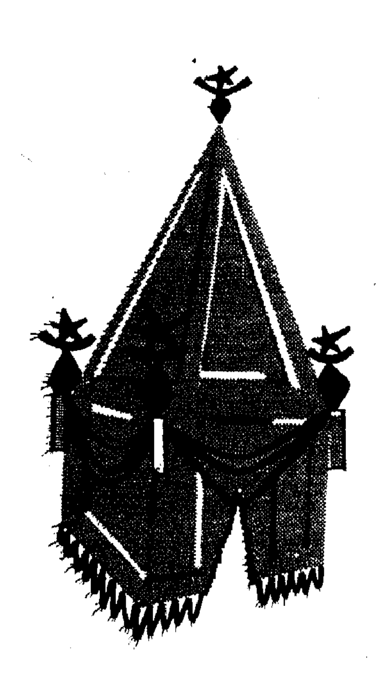
اى ان المحمل الرومي او التركي او العثماني لم تكن بدايته عند سيطرة الحكم العثماني على مصر ، بل كان له امتداد تاريخي واكب عصر سلاطين المماليك . ولقد وصف (ابو القاسم الزياني) الرحّالة المغربي هذا المحمل من خلال مشاهدته له ، التي سجلها في كتابه « الترجمانة الكبرى » فقال عنه : « وفي اليوم الثاني والعشرين من رجب سنة ١٢٠٨ هجرية امرنا امير الصرة بالخروج بعد صلاة الجمعة ، وخرجت الصرة امامه في

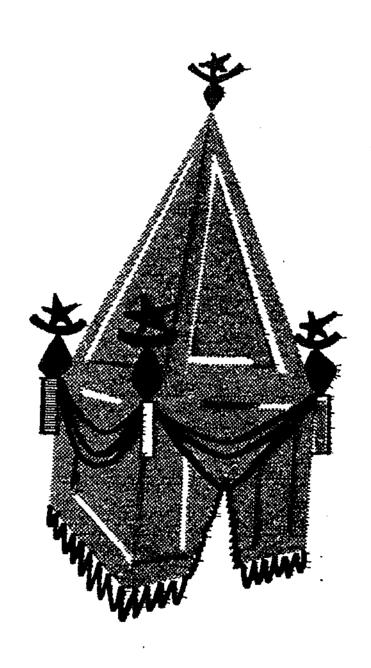
موكب عظيم ومعه الوزير والأمراء وأهل المذاهب والأعيان وأمامهم الطبول والزمامير. وهكذا كان درب الحاج الشامي يأتي بمحملين تركي وشامي ».[٩٤]

ولقد تعرض المحمل الرومي للنهب عام ٧٨٥ هجرية كما ذكر (ابن اياس) . والقى والى دمشق (الغزالى) القبض على حجّاجه سنة ٩٢٦ هجرية بسبب شجار شب بينهم واهل البلاد بعد أن رحل المحمل من دمشق ، ويذكر التاريخ للمحمل الرومي انه استوطن دمشق سنة كاملة في عام ١١٢٣ هجرية ، وآثر البقاء فيها على العودة الى دياره في البلاد العثمانية ، وهكذا تعرضت العلاقات الى شد وجذب في أحيان كثيرة .[٩٥]

وظل المحمل العثماني أو الرومي أو التركي يرسل كل سنة من تركيا حتى توقف نهائيا عند بداية الحرب العالمية الأولى .[٩٦]

□ □ □





سابعا : المحمل المصرى :

فاق المحمل المصرى كل امثاله من محامل الدول العربية او الاسلامية فاقهم فى تجهيزه ، واعداده ، ونظامه ، واحتفالاته ، وعاداته ، وتقاليده ، ومعتقداته ، وفاقهم حتى فى اختلافاته ونزاعاته .. !

وبداية ظهور المحمل المصرى فى الوجود غير مؤكدة التحديد ، واختلف فى امرها العديد من المؤرخين .

قيل ان اول من نظم المحمل مع الحج المصرى وارسل الكسوة للكعبة وحماها بالعسكر : (شجرة الدر) التى حكمت مصر سنة ٦٤٨ هجرية الموافقة ١٢٥٠ ميلادية بعد انتهاء الدولة الايوبية . (٩٧)

وذكر (المقريزى) ان اول من ادار المحمل الملك (الظاهر بيبرس البندقدارى) . (٩٨) واذا ماوقفنا عند تاريخ ابن اياس فسنجده يؤرخ لحوادث سنة ٦٦٧ هجرية بقيام السلطان المملوكى (الظاهر بيبرس) بالحج وجعل ابنه الملك (السعيد) اميرا للمحمل . (٩٩)

وذكر (الجبرتى) فى ترجمته للسلطان (الظاهر بيبرس) : « ودخل (بيبرس) مصر سلطانا ، وتلقب بالملك الظاهر ، وذلك سنة ٦٥٨ ، وهو السلطان (ركن الدين ابو الفتح بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى) احد المماليك



■ موكب المحمل المصرى عام ١٩٤٧ فى عهد الملك فاروق ■

البحرية ، وعندما استقر بالقلعة ابطل المظالم والمكوس وجميع المنكرات ، وجهز الحج بعد انقطاعه اثنتى عشرة سنة بسبب فتنة التتار ، وقتل الخليفة ، ومنافقة امير مكة مع التتار . فلما وصلوا الى مكة منعوهم من دخول المحمل ومن كسوة الكعبة ، فقال امير المحمل لأمير مكة : اما تخاف من الملك الظاهر بيبرس ؟ فقال : دعه ياتنى على الخيل البلق . فلما رجع امير المحمل واخبر السلطان بما قاله امير مكة ، جمع له فى السنة الثانية اربعة عشر الف فرس ابلق ، وجهزهم صحبة امير الحاج ، وخرج بعدهم على ثلاث نوق عشاريات ، فوافاهم عند دخولهم مكة ، وقد منعهم التتار وامير مكة ، فحاربوهم فنصرهم الله عليهم ، وقتل ملك التتار وامير مكة طعنه السلطان بالرمح ، وقال له : انا الملك الظاهر جئتك على الخيل البلق . فوقع الى الأرض وركب السلطان فرسه ، ودخل الى مكة ، وكسا البيت وعاد الى مصر » (١٠٠)

ورغم درامية تراجيديا هذا الحدث الذى رواه (الجبرتى) فى تاريخه إلا انه يستوقفنا هنا ـ بعيدا عن الانجراف الى زخارف المواقف البطولية للسلطان المملوكي ـ امران فى غاية الأهمية عند التدقيق والتحقيق فى صحة التواريخ المذكورة ، وهما :

الأمر الأول هو : تجهيز الحج بعد انقطاعه ١٢ سنة بسبب فتنة التتار ، وقتل الخليفة العباسى فى بغداد سنة ٦٥٧ هجرية .

وعن طريق الحساب ـ اذا افترضنا صحة ماجاء به (الجبرتى) من تواريخ ـ يكون تجهيز الحجاج كان يتم قبل عام ٦٤٥ هجرية ايام سلطنة (الصالح نجم الدين ايوب) .

والأمر الثانى هو انقطاع ركب المحمل المصرى قبل ١٢ سنة من حج السلطان (الظاهر بيبرس) فى سنة ٦٦٧ هجرية وذلك يرجعنا الى عام ٦٥٥ هجرية ايام سلطنة (المنصور على بن المعز ايبك) بعد وفاة الملكة (شجر الدر) وتوليته السلطنة خلفا لأبيه .

وفى الحالتين لايمكن باى حال من الأحوال ان نخرج بنتيجة مؤكدة لبداية ظهور المحمل المصرى فى التاريخ ، لأنه ربما يكون وجوده قبل هذين التاريخين المرجحين ، وهما عام ٦٤٥ هجرية او عام ٦٥٥ هجرية .

واذا كان (المقريزى) قد ذكر ان السلطان (الظاهر بيبرس) هو اول من ادار المحمل فان تعبير « دوران المحمل » لايعنى بالضرورة البداية الفعلية لاتخاذ المحمل المصرى وسيلة لارسال كسوة الكعبة المشرفة فى صحبة قافلة الحجاج ، وانما الدوران المقصود يكون لذلك الطقس الذى كان يؤديه القائمون على المحمل بادارته سبعة دورات كاملة امام الناس للفرجة .

ويقوى لدينا هذا الظن ما اورده (المقريزى) نفسه فى خططه بشأن مجىء الأستاذ (مؤنس الخادم) من بغداد الى مصر ، والذى عاصر هجمة القرامطة على

الكعبة المشرفة سنة ٣١٧ هجرية كما عاصر والى مصر (ابن طفج الأخشيدى) والذى تولى إمر مصر في الفترة مابين عامي ٣٢١ حتى ٣٣٤ هجرية.

قال نقلا عن (ابن زولاق) عن (ابي بكر محمد بن علي المادرانى) : انه حج اثنتين وعشرين حجة متوالية ، انفق في كل حجة مائة الف دينار وخمسين الف دينار ، انه كان يخرج معه بتسعين ناقة لقبته التي يركبها ، واربعمائة لجهازه وميرته ومعه المحامل فيها احواض النقل واحواض البقل واحواض الرياحين وكلاب الصيد ، وينفق على الاشراف واولاد الصحابة ولهم عنده ديوان بأسمائهم ، وانه انفق في خمس حجات أخر الفي الف دينار ومائتي الف دينار ، وكانت جاريته تواصل معه الحج ، ومعها لنفسها ثلاثون ناقة لقبتها ومائة وخمسون عربيا لجهازها » (١٠١)

فاذا كان هذا الحج بدأ في مصر في عصر الدولة الأخشيدية الا يعطينا هذا تاريخا اقدم من ذلك التاريخ المنسوب الى السلطان (الظاهر بيبرس) او الملكة (شجر الدر) في بداية تسيار المحمل المصرى ؟!

وهل تمر هذه الظاهرة مرور الكرام في عصر الدولة الاخشيدية في مصر وترصد ، ولايُحتذى بها سوى بعد فترة زمنية تعادل ثلاثة قرون ونصف ؟!

لقد ذكر (ابن ايلس) في حوادث عام ٣٥٦ هجرية ايام الدولة الاخشيدية ان اعراب (بني سالم) قطعوا الطريق على الحجاج ، واخذوا منهم عشرين الف بعير ، محملة قماشا وبضائع ومالا ، واسروا الرجال والنساء (١٠٢)

فهل قافلة بمثل هذا الحجم الكبير من الثراء في موسم الحج ، وبها هذا العدد الهائل من العير والابل الا تعد مقدمة تاريخية او ارهاصة زمنية لميلاد المحمل المصرى في زمن مبكر سبق عصر سلاطين المماليك ذوى الثقافة الوافدة التي ليس لها في العير ولافي النفير في تراث البلاد التي يحكمونها ؟!

نظام المحمل المصرى :

امتاز المحمل المصرى بالنظام الدقيق في تكوينه وفي مسيره ، فكل فرد كان فيه يعرف حدوده وواجباته الملقاة عليه ، ووظيفته المحددة له في داخل الركب ، منذ بدايته حتى نهايته . وكان هذا النظام الدقيق يتبع التقسيم الآتي :

١ ـ امير الحاج :

هو كبير قافلة الحجاج ومسئولها الأول في كل شئونها وراس الأمر فيها . وفي الحديث النبوى الشريف ان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا احدهم » وهذا الحديث رواه (ابو داود) من حديث (أبي سعيد الخدرى) و (ابي هريرة) رضى الله عنهما ، وروى الامام (احمد) في المسند عن (عبدالله بن عمر) رضي الله عنهما ان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال : لايحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا امروا عليهم احدهم » . ونظرا لجسامة المسئولية الملقاة على عاتق امير الحاج فقد تحددت له عشر مهام يقوم بها على النحو الآتى : (١٠٣)

اولها : ان يجمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لايتفرقوا ، فيخاف عليهم من المفسدين من العربان والسراق ، فانه يجب ان يعلم ان درب الحاج وطريقه متبوع في ذلك الاوان ، خصوصا في منازل معروفة بالدرب الشريف .

ثانيها : ان يرتب الناس في القافلة في المسير والنزول ، واعطاء كل طائفة منهم محملا معروفا حتى يعرف كل فريق منهم مكانه ، في الاقامة وفي السير ، لئلا يتنازعوا ولايضلوا عنه ، من اجل راحة الحجاج وتفادى الاصطدام والشرور والفتن مع بعضهم بعضا .

ثالثها : ان يرفق بالناس في قافلة الحج ، فان كان الوقت حارا او باردا ، خارجا عن المعتاد صبر بهم عن الرحيل مقدار راحتهم واعتدال الوقت ، وان كان فيهم ضعفاء سار بسير ضعيفهم ، وان كانت المرحلة المقطوعة من السير بها مضيق او وعورة وقف امير الحاج عند ذلك لتسهيل طرقهم وصرف الصعاب .

رابعها : ان يسلك امير الحاج بالناس في القافلة اوضح الطرق واوسعها واخفها ويراعي احوالهم في ذلك ويسير بهم سيرا معتدلا ، ويوصى الادلاء على ذلك ، ويريحهم في اوقات القيلولة المفرطة الحر ، واوقات الهواء والريح المفرط الشدة وما اشبه ذلك .

خامسها : ان يرتاد امير الحاج للناس في القافلة المياه والمراعى اذا قلت ، ان كان الركب معطشا والمنهل بعيدا ، او ليس فيه ماء ، وبالقرب منه مورد للعربان سال عنه من يثق بصدقه وخبرته وامانته من اصحاب الدرك وامثالهم العارفين بمنازل تلك الطرق ، وجهز معهم السقائين وصحبتهم جماعة من القواسة وبعض الرماة لاحضار مايستعينون به للحجاج على ظمئهم من ماء ذلك المورد .

سادسها : ان يقوم امير الحاج بحراسة القافلة اذا نزلت ، ويحوطها اذا رحلت ، حتى لايتخطفها متلصص ، ويسال المترددين على الدرب واهل الخبرة عن المحارس التى تكون طريقا للمفسدين وقطاع الطرق ، فيجهز اليها بعض الفرسان ، ملبسة خيولهم - ان اقتضى الحال ذلك - وإلا بسلاحهم فقط الى ان يمر الحاج ويجوز ذلك المحرس .

سابعها : ان يكف امير الحاج عن القافلة من يصدها عن المسير بقتال - ان اقتضى الحال ذلك وقدر عليه - او يبذل مال - ان اجاب الحجيج اليه - ولا يحل ان يجبر احدا في بذل الخفارة ان امتنع منها ، لان بذل المال في الخفارة لايجب .

ثامنها : ان يجلس امير الحاج للناس في القافلة في كل دار ومنزلة ليحضر اليه من يشكو جماله فيزيل شكواه ، او متنازعان فيصلح بينهما ، اويحيل الأمر الى قاضي المحمل المفصل في المنازعات التي تحتاج الى رأيه .

تاسعها : ان يقوم امير الحاج بتاديب الجاني وفق ما يقرره الشرع .
عاشرها : ان يراعى امير الحاج اتساع الوقت حتى يامن فواته ، ولايلحقهم ضيق الوقت في الحث على المسير .

وكان امير الحاج في اواخر عهد السلطان المملوكي (الغوري) يتقاضى احد عشر الف دينار ، منها عشرة آلاف تصرف على المهام الموكلة اليه ، والف دينار لثمن مائة جمل ، وزيد هذا الراتب الى ثمانية عشر الف دينار عند الفتح العثماني لمصر ، في حين نجد ان مرتب امير الحاج في سنة ١٣٠٧ هجرية الموافقة ١٩٨٩ ميلادية قد وصل الى ٤٠٠ جنيه ، وزيدت الى ٥٠٠ جنيه في سنة ١٣٠٨ هجرية الموافقة ١٨٩٠ ميلادية . (١٠٤)

وكان امير الحاج يعامل معاملة خاصة ، هو وغلمانه ومن يقوم على خدمته ، فلا كان يجوز مساءلتهم حتى ولو اقترف الواحد منهم جريمة قتل .. !! . (١٠٥)

٢ ـ دوادار امير الحاج :

هو كاتب امير الحاج في المهمات التي يتولاها ، وبالاضافة الى ذلك يقوم بتنظيم سير ركب المحمل ، والطواف على الحجاج ليلا للحراسة او نهارا للمعاونة ، والقبض على السراق والمفسدين ، بل واقامة حدود الشرع عليهم باذن من امير الحاج وكان يختار من العسكر الشجعان ، ومن المشهورين بحسن المعرفة والعقل والمروءة والخبرة .

وكان الدوادار يحصل على قفطان مذهب من امير الحاج عندما يقوم بمهامه على احسن وجه ، وفي حالة السفر كان من المعتاد ان ياخذ من امير مكة المكرمة من النقد ما يعادل مائة دينار غير الاغنام واما ما كان ياخذ من امير ينبع ثلاثين دينارا ومن الاغنام عشرة .

٣ ـ قاضي المحمل :

نظرا لان قافلة الحجيج تضم نوعيات مختلفة من الناس يتعاملون سويا خلال فترة الذهاب والاياب من الحج ، فكان من جراء احتدام التعامل والاحتكاك فيما بينهم ان تشتجر الشواجر فيما بين بعضهم البعض ، ولذلك خصصت وظيفة قاضي المحمل ليتولى اصدار الاحكام الشرعية بين الحجيج ، والفصل في المنازعات التي قد تنشا بينهم .

وكانت هذه الوظيفة يتولاها في ايام دولة المماليك الشراكسة قاض من قضاة المذاهب الأربعة يعينه قاضي القضاة ، ثم صار امير الحج هو الذي يعين من اختاره لشغل هذا المنصب من اولاد العرب ، وعندما استقر الأمر للدولة العثمانية في مصر اشرابت اعناق قضاة العثمانيين او قضاة الروم لملء هذا المنصب ، فصار لهم لاينازعهم فيه احد من غيرهم فكان يصدر امرا سلطانيا بتعيينهم لمدة رحلة واحدة فقط ، ولا يتكرر تولية القاضي مرة اخرى .

وكان قاضى المحمل يتقاضى اجرا قدره اربعمائة نصف فضة ، وله جمل من جملة جمال المحمل ، وله قفطان من الشمطا الأوسط يلبسه يوم خروج المحمل من القاهرة ، وكان له فى كل مساء اربعة من الفطير او الخمير ، وجرايتان من البقسماط كل جراية ستة عشر رطلا ، غير السكر المكرر او الحلوى التى يتراوح وزنها بين ثلاثة ارطال سكر او اربعة ارطال من الحلوى .

وكان المصطلح عليه امر قضاة المحمل منذ ايام دولة سلاطين المماليك الشراكسة والى اخر ولاية (سليمان باشا) وصدر من ولاية (داود باشا) ان كتابات المعاقدات وجميع مايتعلق بامير الحاج وركبه امرها الى قاضى المحمل من غير منازع ولا مشارك له فى ذلك غير الشهود ، وكانت العادة ان يجهر النداء بالقاهرة : من اراد السفر مع ركب الحاج لايعاقد جماله إلا بمعرفة قاضى المحمل ، ومن خالف ذلك فذنبه فى عنقه .. !

وقد ساء امر هذه الوظيفة ، اذ طمع فيها كل ذى شان صغير فتردى امرها ، وساءت احكام متوليها الذين كان كل غرضهم الحصول على الأموال من تعاقداتهم مع اصحاب الجمال ، حتى قال فيهم (عبدالقادر الانصارى الجزيرى) شعرا : فحواه : (١٠٦)

قاض له نفس يلوح اذاها	ايست وفود الله من تقواها
ابتاع احكام الحجيج بمبلغ	جم واعراض الانام فشاها
احكامه قبحت وساءت سيرة	إذ لم نشاهد مخلصا زكاها
فلرشوة تاتى بامر واضح	ولفقدها تبت يدا دعواها
لم يرض إلا بالكثير ولو يكن	خمسين او ستين لم يرضاها
رجمت به الحجاج فى كل عام مضى	وتالمت لمزيد ما واساها
وتضرعت كل الانام لربها	حتى الجمال شكت الى مولاها

وقد الغيت وظيفة قاضى المحمل منذ طوالع القرن العشرين ، واسند امر الفصل فى المنازعات والخصومات الى امير الحج .

٤ ـ شهود المحمل :

كان يختار اثنان من اهل الخبرة والعدالة ليكونا فى وظيفة شهود المحمل . قال (القلقشندى) « أن شهود السبيل المعبر عنهم بشهود المحمل ، فانما تكتب لهم مربعات شريفة من ديوان الوزارة » . (١٠٧)

وقد صار امر تعيينهم بعد ذلك من جانب قاضى المحمل ، وطالب الشيخ (محمد ابن عبدالقادر بن ابراهيم الانصارى) بالا تعزل شهود المحمل بعزل القضاة ، والا يتم تغييرهم الا بعد حدوث وفاة ، وتم له ذلك ، فاستمر السيد الشريف (محب الدين الرديني) فترة اعقبه الشيخ (شمس الدين السديسى) المالكى ثم الشيخ (بدر الدين المحلى) الشافعى ، واماما فى شهادة المحمل مدة تقارب العشرين سنة ، وكذلك الشيخ العلامة القاضى (ابو الفتح الردينى) الحنفى

مدة سنوات . وكان لشهود المحمل اجرة جمل من جمال المحمل كالقاضي ، تصرف له من ديوان القلعة ، وكذلك جرايتان ، واما العليق فتارة كانت تصرف واخرى تمنع ، وكان للشهود طعام يصرف لهم صباحا ومساء كغيرهم واربعة من الفطير وراسلن من السكر . وعندما ساءت امور هذه الوظيفة بطلت بعد ان قيل فيها من الشعر : (١٠٨)

يا قاضي المحمل والمرتضى   في حكمه بالسند الكامل
وفقك الله لمرضاته   مرتفعا عن شاهد جاهل
لا تسند الأمر الى فاسق   تذم بالحق وبالباطل

٥ - مشرف جمال وخيول المحمل :

وكان من يشغل هذه الوظيفة في العصر المملوكي يسمى (امير خور) او (امير اخور) ، وهو المختص برعاية امر جمال المحمل وخيوله ، وهو كان يلي الدوادار في الرتبة والأهمية ، وكان له مشعل معين كالدوادار يضيء بركابه ليلا اينما سار .

وكان يعاونه افراد يسمون (الشقلرة) للاشراف على تفرقة العليق للدواب وحراستها ومراقبتها اثناء السير في الطريق ، لئلا يقوم احد بركبها او تاجيرها خلسة !

٦ - مشرف التموين للمحمل :

كان مشرف التموين للمحمل يسمى (الكلارجي) او (شاد السنيح) وهو القائم على شئون تموين بعثة الحج وقافلة المحمل ، وكان يختار من امراء المماليك في عصرهم ، بحيث تتوافر فيه شروط الأمانة والتدبير وعدم التبذير . .

٧ - مشرف المطبخ للمحمل :

وكان القائم على شئون المطبخ للمحمل يسمى (شاد المطبخ) او (اشتدار الصحبة) ، ويقوم باعباء الاشراف على الذبائح ، وتفرقة المخصصات من الطعام على ارباب الرواتب والغلمان بالمحمل . ويعاونه فريق من الطباخين ، وكان يشارك الطباخين في جلود الذبائح والارقاب ، وكان له معهم عوائد من امير مكة وامير ينبع معروفة ومخصوصة .

٨ - مشرف السقائين :

وكان يقوم بهذه المهمة احد الاتراك في عهد سلاطين المماليك بحيث يكون مسئولا عن ملء القرب عند ابار المياه وتوزيع المياه على حجاج الركب ، ومن اختصاصه الذب والدفاع عن السقائين عند الازدحام على مناهل المياه .

٩ - منظم سير المحمل :

وهو القائم على تنظيم سير المحمل ، وكان يسمى (شاد المحمل) ، بحيث يحافظ على تمام عدد الركب ومايحمله من اشياء ، وينظم السير عند المضايق ، بحيث يقدم من يشاء من الركب ويؤخر من يرغب في تاخيره للحفاظ على نظام سير المحمل .

١٠ - المقدمون على جمال المحمل[٦]:

كانت جمال المحمل في العصر المملوكي يبلغ عددها ثمانية وعشرين جملا ، واحد منها لحمل هيكل المحمل ، واربعة لحمل كسوة الكعبة المشرفة ، وستة جمال للسقائين ، وجمل لحمل ثوب المحمل او كسوته ، وللقاضي والشاهدين جملان ، وجمل لكل من المشرف على المطبخ والحكيم او المزين وحامل الفراش وحامل الاكفان والمراكيب والقمصان ، وستة جمال لفرقة المزمار والكوسات واربعة جمال للضوئية وحملة المشاعل .

ونظرا لكبر عدد الجمال فكان يختار لها المقدمون على الجمال لخدمتها والعناية بامرها .

وكان يصرف لهؤلاء المقدمين قفاطين مذهبة عند عرض الجمال والسفر ، ولبعضهم جوخ مخيط من الاتباع ، حتى يستطيعوا الوفاء بتبعات عملهم من حمل الامتاع والاثقال في كل وقت يطلب منهم ذلك . وكان يصرف لهم جراية مخصوصة مثل باقي الركب .

١١ - مقدم الضوئية والفشامة:

وهو عبارة عن رجل كان مقدما لرجال المشاعل ، والفشامة هم الذين كانوا يتولون امر المجابيس بالحديد والأصفاد والسلاسل .

كما كان من وظيفة الضوئية احضار الحطب للمشاعل والمطبخ بالطريق وتكسيرها .

وكان عدد المشاعل اربعة وعشرين مشعلا ، منها خمسة تشعل بالدهن ، اختص منها أمّير الحج اربعة والخامس للدوادار ، اما بقية المشاعل فتشعل بالحطب لسائر افراد خواص الركب . وقد قيل فيهم شعر فحواه :

واذا بـدت مشـاعلنـا الجمـر   ثم طارت بالارض في كل مسرى
وطئتـهـا جمـالنـا بخطاهـا   كرقـاب النعـام يلقطن جمـرا

١٢ - مقدم الهجانة والشقارة:

هو كبير المتسلمين للابل والجمال من الهجانة ورجال الشقارة او مايسمون بالخولة او الخوتة ، وكانوا يقومون بوضع الوسم على الجمال وهي العلامات المميزة لها او ماكان يسمى بسم (الداغ) ، حيث ينقش بالسكين للتمييز . وكانوا يحصلون في ايام المماليك على احد عشر الف فضة خفضت الى ستة آلاف في عهد الدولة العثمانية .

١٣ - مقدمو القواسة :

كان عددهم ايام الدولة العثمانية عشرة ، منهم اربعة باجر من ديوان السلطنة والباقي بغير ذلك ، وهم اتباع لهم في خدمة امرة الحج مقام العرفاء ، بغرض احضارهم لحمل امرة الحاج المجهز برا او بحرا .

وكانت رواتبهم عند السفر : للمقدم ستون نصفا من الفضة وللاتباع اربعون ، وكانت تصرف لهم عشرة من المخيوط من الجوخ .

١٤ ـ صبي الباب :

هو نائب امير العائد بالشرقية ، وكان ملازما لباب امير الحج عند طلب عربان الحمل ، معرفا عنهم ، محضرا لهم الى الديوان ، مخبرا عن أحوالهم ، وضامنا لهم عند أمير الحج . وكان لصبي الباب جوخة مخيوطة عند نهاية خدمته في ايام الدولة المملوكية .

١٥ ـ الميقاتي والمؤذن :

وهما نفران : أحدهما ميقاتي للاعلام بالوقت والماضي والباقي واختلاف جهة القبلة في بعض مراحل السفر . والثاني مؤذن للاعلام بدخول الوقت عند كل صلاة . وكان يخصص لهما اربعون دينارا ، ولكل نفر هجين ، بخلاف الطعام وخيمة ينزلون بها ، وكان لهما الانعام والاحسان عند قراءة قصة مولد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحرمين الشريفين .

١٦ ـ طبيب المحمل او الجرائحي :

كان يصحب ركب المحمل طبيب او جرائحي متمكن من صنعته وكذلك كحال وبصحبته الاشربة والعقاقير والمراهم والأدهان والاكحال التي كان يطلبها امير الحج من وقف مستشفى (المنصور قلاوون) . وكان له راتب مقداره مائتان من الفضة .

١٧ ـ مهتار الطشت خانة :

واختصاصه احضار الماء للوضوء وغسل الأيدى عند الاحتياج وهو له اتباع يسافرون معه ليعاونوه .

١٨ ـ مهتار الشراب خانة :

وهو من يتولى امر المشروب ، وكان من ضمن ادواته : أواني الفضة والصيني والنحاس ، وتم تحديد وتقليل كل ذلك في شخص يقوم بضبط الماء وتبريده في اوقات الحر ، ويحمل اليه السكر من المطبخ عند الاحتياج . وكان يتقاضى عشرين دينارا .

وقد تفرع من هذه الوظيفة وظيفة اخرى في العصر العثماني ، وهي وظيفة (الأظلم باشا) ، وهو الموظف الذى عليه ان يسير امام ركب المحمل ومعه المرطبات للأمير والحجاج ، من قبل الباشا ، وبترشيح من البكوات ، ويصل هذا الموظف الى منطقة اظلم او قلعة الأزلم ـ جنوب العقبة والتي اشتق منها اسمه ـ قبل وصول المحمل اليها بيومين ، وفيما مضى كان المحمل يصل الى طابية العقبة موظف آخر ومعه مؤن اخرى ، وعندما الغى (على بك) اعتماد هذا الأخير ، وجمع منصبي وراتبي هذين المبعوثين ، لم يعد الحجاج يجدون المرطبات التي حرص السلطان العثماني على توفيرها لهم إلا في (اظلم باشا) كما يتولى (الأظلم باشا) نقل المأكولات التي يجلبها ، وكان راتبه ٣,٢١٨,٨٢٨ مديني ،

وكان يحمى موكبه حرس يتكون من ستين مملوكا ، ومن ثلاث قطع من المدفعية ، ويصحب فى موكبه فرقة موسيقية يحملها اثنا عشر جملا ، وتشتمل على عدة طبول او صناديق من احجام مختلفة ، وبوقين اونفيرين ، ودفين ، ومزمارين ، وتطلق هذه الفرقة انغاما كثيرة عندما يصل المحمل الى الازلم او الى العقبة . وفى الأزمنة الأخيرة من العصر العثمانى كان (الأظلم باشا) يحصل على ولاية الشرقية عقب (رجوعه من رحلته باعتبار ذلك حقا قانونيا له . (١٠٩)

١٩ - مهتار الفراشخانة والفراشون :

ويختص بتدبير انواع الخيام اللازمة والأشاير المطلوبة من القناديل للأعلام بدخول اوقات الراحة من مشقة الأسفار وورود مناهل المياه ، وفى هذه الاشارات او الأشاير قال الشاعر :

لما وصلنا الى الدار التى نزحت ... وقد سئمنا من الترحال فى الظلم
وأخبـرتنـا إشـارات محققـة ... ان المطـايـا المتنـا عـلى الخيم
نادى البشير عبرت الدار وهو بها ... وفى الاشارات مايغنى عن الكلم

٢٠ - الطباخون :

وكان لهم كبير ينعت بلقب (المعلم) ومهمتهم توزيع الطعام عند وقت تناوله بعد اعداده وطبخه . وكان لديهم العديد من اوانى الطبخ : مثل الصحون النحاسية والحلل والطناجير والطبالى الخشب وغيرها .

٢١ - الزدكاش :

وينعت فى اللغة التركية (جيجى باشا) وهو القائم على مهمات السلاح ومايحتاج اليه من ادوات الحرب ولبوس الخيل ، وكان اقل عدد يسافر صحبة المحمل عشرين فردا .

٢٢ - النفطى :

وهو البارودى الذى مهمته حمل الاحراقات من القلاع والصواريخ وغيرها من لزوم الاحتفال والابتهاج عند الوداع والرحيل . وكان فى العصر المملوكى تقام اربعة احراقات : اولها ببركة الحجاج لاجتماع المودعين بها ، والثانية بمدينة (ينبع) بالحجاز وقد بطلت ، والثالثة وهى الكبرى بمنى ليلة الرحيل منه الى مكة المكرمة ، والرابعة عند العودة فى سيناء عند ايلات .

وقد زيدت هذه الاحراقات فى عهد الدولة العثمانية احراقة فى عرفات لأن الموقف يجمع الناس من كل اقطار الأرض ، ورأى امير الحج ان الناس كانوا يوقدون فى تلك الليلة من الشموع الكثيرة والأشاير الكبيرة فاضاف الى ذلك احراقة يصحبها اطلاق البنادق من المحمل المصرى والشامى .

٢٣ - مهتار الركاب خانة :

وهو قائد السياس والمختص باستلام لوازم الخيل من السروج والالجمة والركائب ، وكان السياس لايقلون فى عددهم عن ثلاثة فى ركب المحمل .

٢٤ ـ الشعراء :

وهما نفران من اتباع مقدم الهجانة ،وكان من المعتاد ان يكونا مع اول الهجن الخاص في البداية للرحلة ، ثم مع امير الركب بقية الأيام ، يسيرون معه اينما سار .

٢٥ ـ الطبول خانة :

كانت تسمى الطبول المصرية ، وكانت تلازم العلم السلطاني ، ومكوناتها : طبلان وزمران ونقارة هذا في العصر المملوكي . اما في العصر العثماني فضمت الى الركب الطبول الرومية او العثمانية ، وجعلت مع العلم السلطاني ، في حين قدمت الطبول المصرية في أول الركب . وكان يصاحب دقها كوسات المحمل منذ عصر سلاطين المماليك .

ويقال ان القصد من وضع الطبول في ركب المحمل هو ارهاب المفسدين وقطاع الطريق .

٢٦ ـ البيطار :

نظرا لما كان يضمه المحمل من عدد كبير من الخيول ، فكان لزاما على الركب اصطحاب طبيب بيطرى للاشراف على وضع حداويها . وكان راتب البيطار يصل الى ثلاثين دينارا .

٢٧ ـ الخباز :

ومهمته توزيع الخبز بعد عمله على القائمين على شئون المحمل عند المناهل . أما عند غير المناهل فكان يقوم بتوزيع البقسماط .

٢٨ ـ الكيالون :

كانت مهمة الكيالين تشوين غلال المحمل واحضار اصحاب الدواب لنقلها والمغربلين لغربلتها والجراشين لجرشها ، وعيار الكيلات وتقييدها أو خروجها من العهدة عند الاستهلاك ، وسد العجز ان حدث نقص في عهدة الغلال . وكان لكل كيال راتب محدد يبلغ نحو خمسة وعشرين دينارا .

٢٩ ـ نجار المطبخ :

كان يسافر مع ركب المحمل نجار لترميم ماعساه ينصدع او يتغير من اخشاب تحتاج الى اصلاح . وكان راتبه عشرين دينارا .

٣٠ ـ نجار الكور :

مثل نجار المطبخ ، ولكنه مخصص لاصلاحماينكسر من الأكوار في وقته اولا بأول . وكان راتبه خمسة وعشرين دينارا ـ وبطلت هذه المهنة في زمن الدولة العثمانية ، وأوكلت الى نجار المطبخ تبعاتها .

٣١ ـ خولي الأغنام :

وهو المختص بحفظ الأغنام وعليقها . وكان راتبه مائة وخمسين نصف فضة ، غير الجراية وتخصيص جمل لركوبه .

٣٢ ـ الجزار :

كان يسمى (الزفورى) فى عهد سلاطين المماليك ، ومهمته ذبح الذبائح بسكين حاد ، ويحسن ويتقن الذبح .

٣٣ ـ السعاة او الادلاء :

وهم الذين يعرفون مسالك الطريق وتعاريجه واستقاماته . وكان لهم اقطاع من السلطنة مخصص لهم ، وكانوا يتقاضون فى زمن الحملة الفرنسية على مصر مبلغ وقدره (١٢٥٦) مدينا ، اى ٤٤,٢٢٥ فرنكا . (١٠٧)

٣٤ ـ المبشرون بالدار :

وهم جماعة متعددة من المتصوفة واهل الصلاح . وكان يخصص لهم الركوب والجراية ولكنهم كانوا بلا مرتبات مخصصة .

٣٥ ـ المبيتة :

هو رجل تابع لمقدم الضوئية ، مهمته الجهر بالنداء للركب عند الاحتياج اليه ، والطواف على القافلة ليلا مع العسس وحده .

٣٦ ـ مبشر الحجاج :

كان ينعم بهذه الوظيفة السلطان المملوكى على من أراد ان يشمله بالنعم والهبات . نظرا لما كان يحصل عليه . وكانت مهمته تنحصر فى التبليغ قبل وصول ركب المحمل عن احوال الحجاج وماحدث بشأنهم من سرقات او قطع طريق أو مرض او وفاة ، اواحوال الأمراء بالأراضى الحجازية .

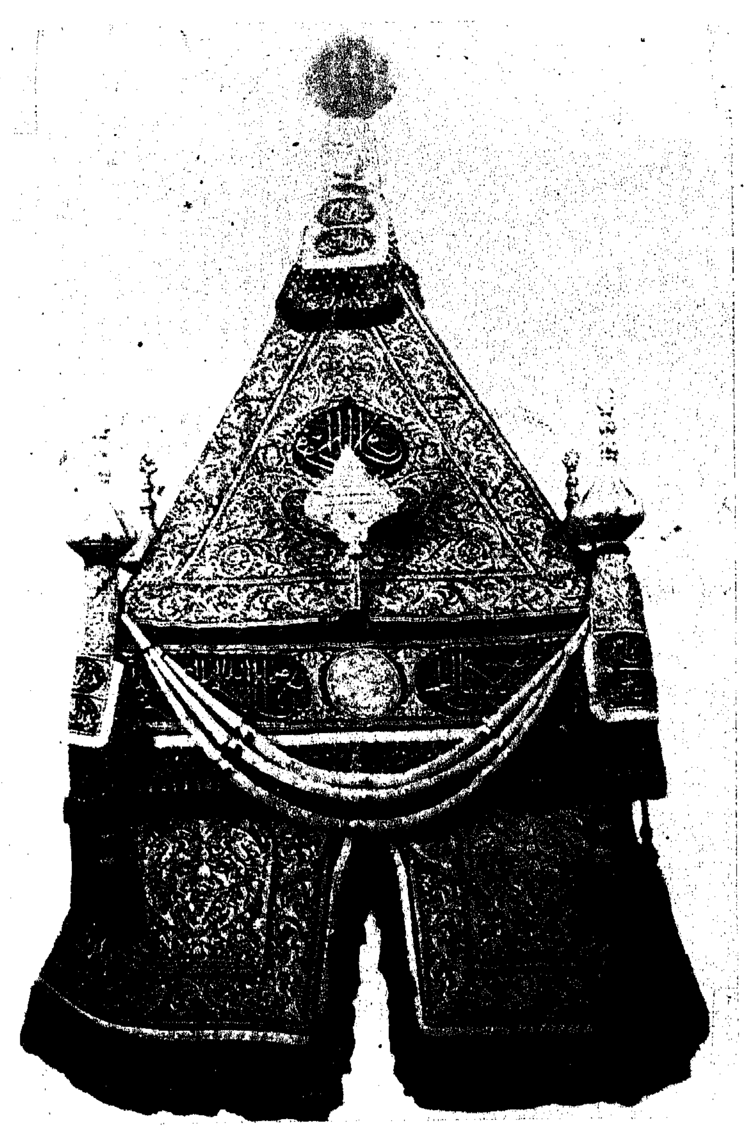
وكان من العوائد القديمة فى تجهيز مبشر الحاج انه كان لايتأخر عن يوم منى بل يتوجه اذ ذاك للبشارة .

ولقد وصف (ادوارد وليم لين) مبشر الحج فى عصر (محمد على) فقال عنه :

« ويصل (جاويش الحج) قبل القافلة بأربعة ايام او خمسة راكبا هجينا سريعا ويصحبه عربيان ، وهو يسرع ليعلن نبأ قرب الحجاج ، واليوم المنتظر لوصولهم العاصمة ، وليحمل رسائل الحجاج الى اصدقائهم . ويصيح الجاويش وزميلاه طول الطريق : (الصلاة على النبى) او (صل على النبى) فيرد من يسمعه من المسلمين : (اللهم صل عليه) ، ويتقدمون مباشرة الى القلعة لحمل الأخبار الى الباشا او نائبه . ويقسم الجاويش الرسائل الى رزم يبيعها الى نفر يتولون توزيعها فيتناولون الهدايا من المرسل اليهم ، وقد يخسر هؤلاء فى هذه الصفقة . اما الرسائل الموجهة الى العظماء والأغنياء فيحتفظ الجاويش بتوزيعها لنفسه ، فيحصل منهم على منحة نقدية او شال ... الخ » (١١٠)

المحمل المصرى شكله وهيكله وكسوته وعلمه أو بيرقه :

وصف الرحالة الانجليزى (ادوارد وليم لين) المحمل المصرى سنة ١٢٥٠ هجرية الموافقة ١٨٣٤ ميلادية فقال : « هو اطار مربع من الخشب هرمى القمة ، له ستر من الديباج الأسود ، عليه كتابة وزخارف مطرزة تطريزا فاخرا بالذهب ،



هيكل وكسوة المحمل المصرى عام ١٩٢٥ ميلادية فى عهد الملك فؤاد

على ارضية من الحرير الأخضر او الأحمر في بعض الأجزاء ، ويحده هدبة حريرية ، وشراريب يعلوها كرات فضية . وزخرفة الستر لاتكون دائما على النموذج نفسه ، غير انني لاحظت أن كل ستر رأيته يحمل في قسمه الاعلا من الصدر منظرا لمسجد مكة (يقصد الكعبة المشرفة) مطرزا بالذهب ، ويعلوه طغراء السلطان . والمحمل لايحوى شيئا ، غير ان هناك مصحفين صغيرين ، أحدهما قرطاس ملفوف ، والآخر كتاب عادى داخل صندوقين من الفضة المذهبة . يعلقان خارج المحمل في القمة ، وتكون الكرات الخمس وأهلتها التى تزين المحمل من الفضة المذهبة . ويحمل المحمل على جمل طويل جميل » (١١١)

واذا كان هكذا استطاع المستشرق الانجليزى (ادوارد وليم لين) أن يصف المحمل المصرى ، وهو في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى الموافق النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى ، فكيف اذا يكون وصف المحمل إذا رأيناه بأنفسنا ، ووصفناه نحن المصريون ، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين ؟!

في الحقيقة ، انه من خلال المشاهدة والفحص المتمهل للمحمل المصرى الموجود الآن بالمتحف الأثنوجرافى التابع للجمعية الجغرافية بالقاهرة نستطيع ان نصفه على النحو الآتى : (١١٢)

هو هيكل خشبى مجوف ، يتشكل عن طريق عوارض افقية ورأسية ومائلة ، سمك كل منها ١٠ سنتيمترات ، وهذا الهيكل الخشبى يتكون من جزئين رئيسيين : الجزء الأول وهو السفلى منه منشورى الشكل ، طوله ١,٧٥ مترا ، وعرضه ١,٣٠ مترا وارتفاعه ١,٦٢ مترا . والجزء الأخير العلوى عبارة عن هرم ارتفاعه ١,٩٥ مترا ، وقاعدته مستطيلة الشكل طولها ١,٧٥ مترا ، وعرضها ١,٣٠ مترا .

ويكسو الجزئين المنشورى والهرمى معا ستر من الحرير ضاعت الآن معالم لونه ، وان كان يبدو أخضر اللون ، وهو مشغول ومزركش بخيوط المخيش المذهبة والفضية ، والتى تشغل معظم مساحة هذا الستر الحريرى ، حتى تكاد هذه الزركشة ان تطغى على قماشه جميعه .

بأعلى الجزء الأول وهو المنشورى توجد كتابات قرآنية بالخط الثلث داخل اطار سمكه سبعة وعشرون سنتيمترا ، وهذه الكتابات القرآنية تحيط بالمحمل من جوانبه الأربعة على النحو الآتى :

١ ـ الواجهة الأمامية مكتوب فيها « بسم الله الرحمن الرحيم . الله لا اله إلا هو » ثم دائرة مزركشة بالمخيش الفضى قطرها الخارجى ٢٣,٥٠ سنتيمترا ، وقطرها الداخلى ١٩ سنتيمترا ، ومكتوب في داخلها عبارة « الله ربى » بالمخيش الفضى ، ثم يلى ذلك بقية الآية القرآنية الكريمة ، وهى عبارة عن « الحى القيوم لاتاخذه سنة ولانوم »

٢ ـ فى الجانب الأيمن مكتوب : له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » .

٣ ـ فى الواجهة الخلفية مكتوب : « يعلم مابين ايديهم وماخلفهم ولايحيطون » ، ثم دائرة مزركشة بالمخيش الفضى بنفس مقاسات الدائرة التى فى الواجهة الأمامية ، غير انها مكتوب فى داخلها عبارة « محمد نبى » ثم بقية الآية القرآنية الكريمة ، وهى عبارة بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه » .

٤ ـ وفى الجانب الأيسر مكتوب تكملة الآية : « السموات والأرض ولايؤده حفظهما وهو العلى العظيم »

أما فى الواجهة الأمامية الهرمية العلوية فتوجد عبارتان ، الأولى : « عمل هذا الستر للمحمل الشريف مولانا السلطان » وهذه العبارة موضوعة داخل شكل شبه نصف بيضاوى قوسه لأعلى ، والعبارة الثانية بخط ذى حجم اكبر داخل شكل بيضاوى ، وهى عبارة « فؤاد الأول » وتحتها فى نفس الشكل البيضاى مكتوب « ١٣٣٦ » .

وهذا التاريخ الهجرى يوافق علم ١٩١٨ ميلادى ، وهو بالطبع ليس تاريخ صنع المحمل ، وانما هو تاريخ تجديد الكتابة على ستر المحمل نفسه .

أما تاريخ صنع هذا المحمل فالمرجح ان يكون هو علم ١٢٩٢ هجرية الموافق عام ١٨٧٥ ميلادية فى عصر الخديو (اسماعيل) وهو التاريخ المكتوب على القطعة النحاسية والتى تتوسط الجزء العلوى الهرمى من المحمل ، وربما قد يكون تاريخ الصنع قبل هذا التاريخ ، حيث أن هذا التاريخ هو اقدم تاريخ موجود على هيكل المحمل ، وهذه القطعة النحاسية سهلة الرفع والتبديل والتغيير وربما تكون قد استبدلت ضمن التغييرات الكثيرة التى المت به ضمن اعمال صيانة المحمل والتى كانت تتم تباعا .

وفى هذه القطعة النحاسية توجد كتابات فى ثمانية اسطر . السطر الأول مكتوب فيه عبارة « ياالله » ، والسطر الثانى عبارة « ماشاء الله » ، والسطر الثالث عبارة « لا إله إلا الله » والسطر الرابع عبارة « محمد رسول الله » والسطر الخامس عبارة « نصر من الله » والسطر السادس عبارة « وفتح قريب وبشر المؤمنين » والسطرالسابع عبارة « محمد » والسطر الثامن والأخير عبارة « سنة ١٢٩٢ » وهذه الكتابات آخذة سطورها الشكل الهرمى ، قمته لفظ الجلالة « ياالله » ، وقاعدته عبارة « وفتح قريب وبشر المؤمنين »

وفى ركن اللوحة النحاسية الأيسر عبارة « لاشريك له » وهى مكتوبة من اعلى لأسفل فى وضع كتابة رأسى ، كما يتوازن معها فى الركن الأيمن عبارة « وحده » وهى مكتوبة من اسفل الى اعلا فى وضع كتابة رأسى أيضا ، ولكن على عكس العبارة الأولى .

ويحيط بالمحمل اربعة قوائم خشبية مركب عليها اربعة اشكال مخروطية من مادة النحاس يعتلى كل منها هلال ، بداخله نجمة خماسية نحاسية ومحيط هذا الشكل المخروطي عند اكبر قطر لقاعدته ٢٨ سنتيمترا . وارتفاع هذا القائم ٧٨ سنتيمترا . كما يعلو قمة الشكل الهرمي شكل مخروطي اخر ، ولكنه اكبر من حيث الحجم من الأشكال المخروطية الأربعة بارتفاع يبلغ حوالى متر واحد .

وقوائم الأركان النحاسية الأربع يتذيلها اربعة كسوات مزركشة بخيوط المخيش الفضية بارتفاع ٥٥ سنتيمترا وعرض ٢٥ سنتيمترا . ومكتوب فى سطرين منها عبارتا « لا اله الا الله » وذلك فى السطر العلوى اما فى السطر السفلى فنجد عبارة « محمد رسول الله » وبنفس هذه النوعية من الكسوة يكسى الجزء الهرمي من اعلاه من الأمام والخلف بكسوتين تحملان نفس العبارات السابقة فى كل منهما .

وتتذيل المحمل شراريب على امتداد محيطه السفلى بارتفاع ٢١ سنتيمترا ، مصنوعة من خيوط القصب الأصفر اللون ، كما تتذيل شريط الكتابات القرآنية كذلك بنفس الارتفاع .

ويوجد كنارأصفر اللون بسمك ٣ سنتيمترات وهو تحت الحزام المكتوب بالمخيش باية الكرسي . وهذا الكنار يحيط بستر الجزء السفلى من كسوة المحمل بنفس السمك .

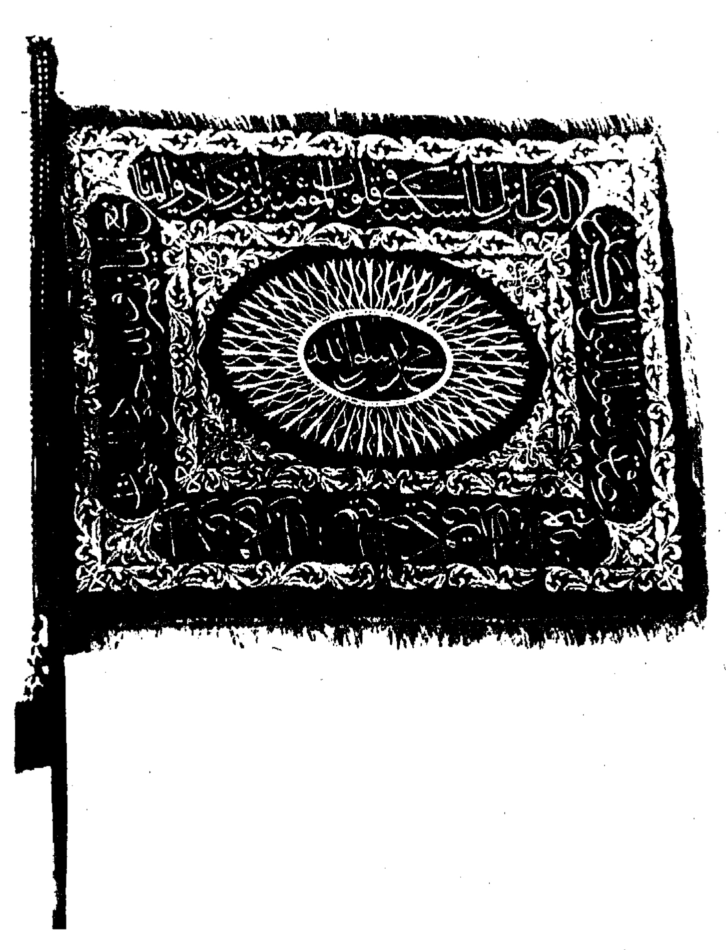
وقد لاحظنا ان مقود الجمل مزركش كذلك بخيوط المخيش الفضية بنفس سمات زركشة كسوة المحمل ومن نفس القماش كما لاحظنا ان جميع البطانة الداخلية لكسوة المحمل من الحرير ذى اللون الأصفر . امابطانة كسوة القوائم الراسية فهى من الحرير الأحمر اللون .

وقد بحثنا اثناء الفحص للمحمل عن منظر مسجد مكة الذى وصفه الرحالة الانجليزى (إدوارد وليم لين) على كل ستر له فلم نجده ، فرجحنا فى البداية ان يكون القصد هو تشبيه الكتابة باية الكرسي على كسوة المحمل بتلك الزركشة التى توجد على احزمة ستائر كسوة الكعبة المشرفة ، وظننا ان دقة التعبير قد خانت (ادوارد وليم لين) ولكن بالرجوع الى شكل المحمل الذى رسمه (ادوارد وليم لين) بنفسه وجدنا شكل الكعبة المشرفة مرسوما على الجزء العلوى الهرمي الأمامي من كسوة المحمل ، وبالطبع وضعت سنة التغيير والتبديل بصماتها على كسوة المحمل ، وسبحان من لايتبدل ولايتغير (انظر الشكل المرسوم ص ٢٠٤) .

اما علم المحمل او بيرقه ، فكان يصاحب عمل الكسوة عمل بيرق مميز لقافلة الحجيج . وهذا البيرق له شكل خاص يمكن ان نتوقف عنده .

بيـرق المحمـــل :

هذا البيرق مصنوع من القماش المزركش بزركشة نباتية وكتابية وهندسية ويلاحظ على هذا البيرق ان زركشته التى على وجهيه على النحو الآتى :

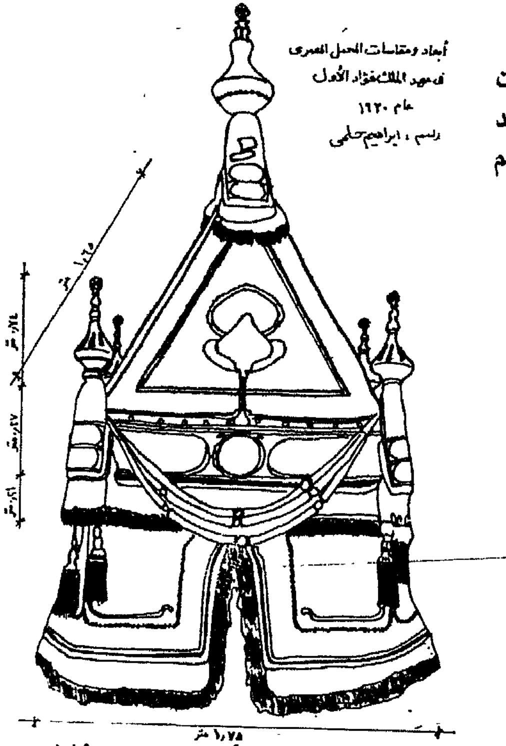


● الوجه الآخر لبيرق المحمل المصرى فى عهد الملك فؤاد ■

(أ) الوجه الأول : وفيه شكل بيضاوى مزركش بالمخيش وفى منتصف هذا الشكل توجد عبارة « لا إله إلا الله » وتتشعب منه عدة خطوط مزركشة مستقيمة ومتعرجة كأنما تمثل عين الشمس ، ويحيط بها مستطيل مزركش من الأوراق النباتية وخارج هذا المستطيل تحيط به اربعة مستطيلات علوية وسفلية وعلى الجانبين ، وقد كتب فى المستطيل العلوى : « بسم الله الرحمن الرحيم . انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا . هو »

(ب) الوجه الآخر : وفيه شكل بيضاوى مزركش فى المنتصف مثلما فى الوجه الأول وان كان بداخله عبارة اخرى هى« محمد رسول الله » اما الايات القرآنية الشريفة فهى تكملة ما سبق ، وقد كتب « الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما . صدق الله العظيم »

وللبيرق شرابه مدلاة بخيط قيطان مزخرف من اعلا الصارى الحامل له والتى تعلوه قطعة نحاسية كتبت عليها من كلا وجهيها عبارات لم نستطع ان نتبينها غير كلمة « يامحمد » على احد الاوجه وكلمة يا الله على الوجه الآخر .



● أبعاد ومقاسات المحمل المصرى فى عهد الملك فؤاد الأول عام ١٩٢٥ ميلادية ■

احتفاليات المحمل المصرى :

إذا كانت الأمثال الشعبية رغم بساطتها تحمل من تجربة الإنسان عمقا جميلا لخصها الشعب حسب ظروف بيئته وبأسلوبه الخاص ، فى كلمات موجزة ، وبجرس موسيقى خاص تتميز به فى كل لغة »[١١٣]، فإن بساطة تعبير التجربة المصرية مع المحمل تتلخص فى مثلين شعبيين هامين . هذان المثلان الشعبيان يقولان : « كلها يوم وليلة ويجىء المحمل الرميلة » ، و « ياما الحج مربوط له جمال » .[١١٤]

فالتجربة المصرية مع المحمل تجربة فريدة فى نوعها ، وثرية فى فنونها الاحتفالية . والمحمل المصرى مثله مثل اى ظاهرة فولكلورية طرات عليه بمرور السنين تراكمات عدة ، وما وصلنا من هذه الظاهرة عند منتصف القرن العشرين ليس إلا الورقة الأخيرة فى كتاب زمنى تعددت اوراقه وتنوعت فيه السطور .

احتفاليات المحمل المصرى فى العصر المملوكى :

يحمل العصر المملوكى طابعا مميزاً للمحمل المصرى ، من حيث الدقة والنظام وفنون الاحتفال المختلفة .

من ذلك ما ذكره (ابن بطوطة) اثناء مروره بمصر لأداء فريضة الحج عام ٧٢٤ هجرية الموافق ١٣٢٥ ميلادية . قال تحت عنوان « ذكر يوم المحمل بمصر » فى وقفة سريعة : « وهو يوم دوران الجمل ، يوم مشهود . وكيفية ترتيبهم فيه انه يركب فيه القضاة الأربعة ، ووكيل بيت المال ، والمحتسب ، وقد ذكر جميعهم . ويركب معهم اعلام الفقهاء ، وامناء الرؤساء ، وارباب الدولة ، ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر ، فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاءون على جمالهم . ويجتمع لذلك اصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل (وجميع من ذكرنا معه) بمدينتى القاهرة ومصر ، والحداة يحدون امامهم . ويكون ذلك فى رجب . فعند ذلك تهيج العزمات ، وتنبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث ، ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده ، فياخذون فى التاهب لذلك والاستعداد » .[١١٥]

وكان شرفا لأى إنسان ان يسير فى ركب المحمل عند الاحتفال به ، ويكفى ان يسير الإنسان فى موكب يضم علية القوم من رجال الدين او الحكم . وكان عام ٨٣٩ هجرية هو بداية صدور المرسوم السلطانى الذى يحدد للقضاة الشرعيين الأربعة وجوب تصدّر المحمل المصرى ، حيث يسير بهم متوجها إلى مدرسة (شيخو) ويرجعون من الصليبية معه إلى تحت قلعة الجبل ، ومنها إلى جامع (الحاكم بامر الله) الفاطمى .[١١٦]

وكان قمة التكريم لأحد من الوزراء أن يسير أمام المحمل المصرى فى موكبه الاحتفالى المملوكى . قال (المقريزى) فى حوادث عام ٧٥٢ هجرية : « خلع على الوزير (علم الدين بن زنبور) خلعة الاستمرار ، وركب قدام المحمل بالزنارى فى موكب عظيم . ولم يركب أحد من الوزراء قدام المحمل سوى (ابن السلعوس) فى ايام (الأشرف خليل) ، و (أمين الملك بن الغنّام) فى ايام (الناصر محمد) مرة واحدة .(١١٧)

والمتتبع لحجم ركب المحمل المصرى فى العصر المملوكى يلحظ أن هذا الحجم صار ينكمش مع مر الأعوام . ففى عام ٧٢١ هجرية وصل ركب المحمل المصرى إلى حد تقسيمه إلى سبعة ركوب . كان أولها فى شهر رجب ، يتبعها فى أول شهر شوال أربعة ركوب ، ثم يلى ذلك ركبان . غير أن هذا العدد انكمش إلى ستة ركوب فى عام ٧٢٣ هجرية ، ثم صار ركبا واحداً فى عامى ٧٩٢ هجرية و ٧٩٧ هجرية ، ثم أصبح ركبين فى عام ٨٣٣ هجرية .(١١٨)

وكانت الفرجة على المحمل المصرى فى العصر المملوكى متعة يتمتع بها الناس من مختلف قطاعاتها ، خاصة النساء اللائى كن يسرفن فى انتظاره على أحر من الجمر ، غيرعابئات بما يكابدن فى سبيله من امتهان فشلت قباله كل القوانين والاجراءات التى وضعها ولاة الأمر . قال (المقريزى) فى حوادث رجب عام ٨٢٥ هجرية : « وفيه زينت القاهرة ومصر لإدارة محمل الحاج على العادة ، فمنع (صدر الدين أحمد بن العجمى) المحتسب النساء من الجلوس على حوانيت الباعة ، وتشدد فى ذلك ، فامتنعن . وكانت العادة أن تجلس النساء صدراً من النهار ، ويبتن بالحوانيت حتى ينظرن المحمل من الغد ، فيختلطن بالرجال فى مدة يومين وليلة ، وتقع أمور غير مرضية ، فعد منعهن من جميل ما صنع ، لكنه لم يتم ، وعدن فيما بعد كما كن لإهمال أمرهن . »(١١٩)

وكان من ضمن عناصر الفرجة المشوقة الأساسية فى المحمل المصرى فى العصر المملوكى وجود (الرمّاحة) وما كانوا يفعلونه من أساليب الإستعراض بالرماح فى الركب ، حتى انه ظهرت الأغنية الشعبية التى تحث على الفرجة على الرمّاحة فى موكب المحمل المصرى والتى كانت تقول كلماتها :

بيع اللحاف والطراحة ... حتى أرى ذى الرماحة
بيع اللحاف ذى المخمل ... حتى أرى ذا المحمل

وعندما نشب ذات مرة القتال بين جماعات المماليك ، وقتل منهم أعداد كبيرة من هؤلاء الرماحة لم يكن أمام ركب المحمل إلا أن ينتظر ، ويتأجل موعده إلى حين الانتهاء من تدريب آخرين يحلون محل من قتل منهم .

قال (المقريزى) فى حوادث شهر شعبان عام ٨٣٣ هجرية : « وفى يوم الاثنين ثامنه أدير محمل الحاج على العادة ، ولم نعهده أدير قط فى شعبان ، وإنما يدار دائما فى نحو النصف من شهر رجب ، غير أن الضرورة بموت المماليك الرماحة

اقتضت تأخير ذلك ، حتى أن معلمى اللعب بالرمح أخذوا فى تعليم من بقى من المماليك ما عرفوا منه كيف يمسك الرمح ، فكان الجمع فيه دون العادة . »[١٢٠]

ولم يدخر المماليك جهداً فى إخراج احتفال المحمل المصرى بشكل يشد الانتباه ، وبأى وسيلة ممكنة ، فاصطحبوا فى الموكب مختلف أنواع الخيول المدربة المطهّمة ، وحتى الأفيال !

قال (ابن إياس) فى حوادث شهر شوال عام ٩١٨ هجرية : « وفى يوم الاثنين ثامن عشرة خرج الحاج من القاهرة وصحبتهم المحمل الشريف ، وكان أمير ركب المحمل (تمر الحسنى) أحد الأمراء المقدّمين ، وبالركب الأول (يوسف الناصرى) شاد الشراب خانه الذى كان نائب حماة ، وخرج صحبتهما الأمير (قطلوباى) الذى قُرّباش المجاورين ، فكان لخروجهم يوم مشهود ، وظهر لهم أطلاب حافلة حتى رجّت لهم القاهرة ، وخرج قدام المحمل الأفيال الكبار وهى مزينة باللبوس ، وعلى ظهورهم الصناجق ، وقدامهم الطبول والزمور ، وخرج قدام المحمل القضاة الأربعة وقضاة مكة الذين حضروا وابن الشريف أمير مكة ، وخرج قدام أمراء الحاج أعيان الأمراء ، وكان يوما مشهوداً . »[١٢١]

محمل السلطنة المملوكية :

إذا كان المحمل المصرى فى العصر المملوكى يعد قمة التالق بالقياس إلى غيره من العصور ، فممالاشك فيه أن المحمل الذى كان يحج فيه أحد سلاطين العصر المملوكى أو أحد من أفراد عائلته هوذروة السنام من حيث التجهيز والرعاية والاهتمام .

ومع بداية العصر المملوكى يبرز محمل السلطان (الظاهر بيبرس) بما له من سمات البساطة التى تتناسب مع شخصية السلطان المحارب والزاهد فى عام ٦٦٧ هجرية . كان فى هذا المحمل نحو ثلاثمائة مملوك وأجناد الحلقة ، ولم يصحب السلطان معه غلمانا ولا عكامة إلا الأمراء والخاصكية الذين معه ،وقال لكل هؤلاء : الصغير يخدم الكبير ؛ وكل من يعرف صنعة يفعلها فى السفر ، وكان قد توجه إلى مكة المكرّمة بعد مضى خمسة وعشرين يوما أو نحوها من شهر ذى القعدة ، بحيث أنه لم يبق بينه وبين يوم عرفة إلا نحو خمسة عشر يوما ، وكان قدم فى المنازل إقامة ومؤنة وإبلا وخيلا يركبونها ، فإذا وصلوا إلى المنزل الآخر تركوا ذلك وركبوا الموجود لهم فى المنزلة التى وصلوا إليها ، فكان سفرهم على حكم البريد ، كلما وصَل إلى بريد يركب الجمل الذى فيه . وكان السلطان بطول طريقه يسأل قاضى القضاة (صدر الدين) عن أمور دينه ، فسار إلى مكة المكرّمة فى سبعة عشر مرحلة .[١٢٢]

كان أمير ركب هذا المحمل السلطانى هو ولد السلطان نفسه الملك (السعيد محمد) ، وبعد أداء مناسك الحج توجه السلطان (الظاهر بيبرس) إلى الشام فى حين رجع ابنه بالمحمل المصرى إلى القاهرة .[١٢٣]

وكان محمل السلطان (الناصر محمد بن قلاون) في عام ٧٠٨ هجرية يضم خزائن مال ، وجنائب ، وعصب سلطانية ، وهجن ، وكنابيش زركش ، ومطبخ او سنيح . وقد اعاد السلطان كل ذلك إلى القاهرة بعد ان وصل إلى العقبة ، ولم يحج ، واختار التنحي عن الحكم والإقامة بحصن الكرك عندما احس انه لا حول له ولا قوة في السلطنة .(١٢٤)

وعندما عاد إلى الحكم مرة اخرى ، وحجّ للمرة الأولى عام ٧١٢ هجرية زُيِّنت له القاهرة ، ولاقته القضاة الأربعة ، وحملت على راسه القبّة والطير ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير ، ولاقته المغاني في الطريق .(١٢٥)

وتكرر ذلك ايضا في حجته الثانية في عام ٧١٨ هجرية .

وعندما حجت زوجته السلطانة (خوند طغاى) في عام ٧٢١ هجرية ، فكانت المحفة التي تركبها مزركشة ، وصحبتها الكوسات والعصائب السلطانية ، وعندما عادت خرج إليها السلطان ، واستقبلها في بركة الحجّاج ، ودخلت القاهرة في موكب عظيم ، والأمراء مشاة قدّام محفتها حتى طلعت إلى القلعة .(١٢٦)

وحجّ السلطان (الناصر محمد بن قلاون) حجته الثالثة في عام ٧٣٢ هجرية ، بمناسبة عمله بابا جديداً من الخشب السنط الأحمر للكعبة المشرّفة صفحة بالفضة عوضا عن الحديد الذى كان عمله الخليفة العباسى (المقتفى بالله) عام ٥٥٢ هجرية ، فكان زنة تلك الصفائح ثلاثون الف درهم ، فلما قلع الباب العتيق الذى كان بها ، وزنوا ما عليه من الفضة ، فكان زنتها ستون رطلا ، فانعم السلطان بتلك الفضة على بنى شيبة ، سدنة البيت الحرام ، فتقاسموه .

فكان عدة من توجه في هذا المحمل السلطاني اثنين وسبعين أميراً ، ما بين مقدّمين الوف ، وغيرها من الطبلخانات والعشراوات ، ومن المماليك السلطانية نحو الفين مملوك ، فخرج السلطان في موكب عظيم فريد من نوعه ، تميز عن محمليه السابقين في الأبهة والفخامة .(١٢٧)

وعلى خلاف المعتاد من تدهور مستوى المحمل المصرى بمرور الزمن في العصر المملوكي كان الأزدهار للمحمل المصرى السلطاني إذا ما حج احد من السلاطين او افراد عائلتهم .

ووصل محمل الأمير (الناصرى محمد بن الغورى) وامه في عام ٩٢٠ هجرية إلى ذروة البذخ وذروة الاحتفال .

قال (ابن إياس) يصف تفاصيل هذا المحمل السلطاني : « وفي يوم الاثنين سابع عشر شوال فيه خرج المحمل الشريف ، وكان لخروجه يوم مشهود ، لم يقع قط مثله فيما تقدم من السنين الماضية ، وذلك قد انسحب فيه اربعة أطلاب حافلة : طُلب (جانى بيك قرا) باش المجاورين ، وكان حافلا ، ثم انسحب طُلب سيدى (عمر بن المنصور) امير الركب الأول ، وكان حافلا ، وظهر له من السنيح العظيم اشياء كثيرة يعجز عنها الأمراء المقدمون ، ثم انسحب طُلب المقر الناصرى

ابن السلطان ، فخرج بطُلب حربي ، وقدامه طبلين وزمرين وصناجق سلطانية ، وفيه نوبتين هجن باكوار زركش من ذهب بنادقة ، وبقية الأكوار مخمل ملوّن ، وانسحب في طلبه عدة خيول بكنابيش زركش بغواشي حرير أصفر وعدة خيول ، نحو طوالتين ، ملبّسة ببركستوانات فولاذ مكفّتة ، وانسحب في طلبه نحو عشرين جملا مزيّنة بآلات الشراب خاناه من الأواني الصيني ، واللازورد ، والزجاج البلوري ، وغير ذلك ، وأيضا أحمال مزيّنة بآلات الطشتخاناه من الأباريق الكُفت ، والطسوت الكُفت ، والشماعد ، وغير ذلك مما يحيّر الأبصار ، ومحفّة جوخ أصفر مزهر في آخر الطلب ، ثم بعد ذلك انسحبت محفّة خوند زوجة السلطان فكانت غاية في الحسن ، منتهى ما يعمل من المحفّات ، فكانت مخمل أحمر كفوري وهي مرقومة بالذهب ، طرازها وأرضية الثوب عروق لاعبة زركش من الذهب الخالص البنادقة ، وفوقها خمس رصافيات لؤلؤ ، وفيها رصعات ذهب بفصوص بلَخْش وفيروز ، وحول ثوب المحفّة بهرجان ذهب وفضة شقاق ، وقدام المحفّة أربعة مشاعل بفوط زركش بشراريب مثلّث ، وقيل صنعوا لخوند حمّام من نحاس صفايح وداخلها أحواض نحاس . فعُد ذلك من النوادر ، غلايات يصبّ منها ماء سخنة ، قيل إن مصروف هذه المحفّة فوق العشرين ألف دينار ، وأما الرصافيات اللؤلؤ زعموا (أنهم) رصافيات خوند زوجة (الأشرف قايتباي) ، صنعتهم لما حجّت ، فوجدوا في تركتها ، وكان خلف المحفّة أربعة جمال غير الذي تحت المحفّة ، وعليها كنابيش زركش على مخمل أحمر ، وحولها مرتعش ذهب وفضة وقدام المحفّة حاديين ، ونحو عشرين نفراً من الخدّام حول المحفّة ، ثم بعد المحفّة انسحب نحو عشرين محارة مخمل ملوّن برسم عيال خوند وغيرها ممن يلوذ بها ، فلما شقّت من الرملة ارتجت لها ، ولاسيما اجتمع بالرملة الجمّ الغفير من الأمراء والعسكر والخلائق الذين لا يحصوا لكثرتهم ، ثم طلعت المحفّة من الصوة ، ونزلت من على باب الوزير ، وشقت من القاهرة ، فارتجت لها القاهرة في ذلك اليوم رجّا ، ولم يكن من العادة القديمة أن محفة حريم السلطان تشق من القاهرة .. ثم انسحب سنيح خوند وابن السلطان ، فكان فيه ألف جمل ما بين زاد وقرب ماء ، وغير ذلك من البرق الحافل ؛ ثم انسحب طُلب الأمير (قُطُباي) أمير ركب المحمل ، فكان غاية في الحسن ، وهو منتهى ما يُعمل في الأطلاب الملوكية ، فانسحب فيه نحو مائتي فرس ما بين خيول ملبّسة ببركستوانات فولاذ مكفّت وغير ذلك من المخمل الملوّن ، وخيول بكنابيش زركش ، وغير ذلك من المحفات والأحمال المزينة ، فارتجت لهذه الأطلاب الرملة ، ثم انسحب المحمل وقدامه ابن السلطان والأمراء الحاج والخاصكية المسافرون إلى الحجاز ، فطلعوا ، وكان السلطان في ذلك اليوم في شباك القصر ينظر إليهم من القلعة ، فأخلع السلطان على ولده مُثمّرة وفوقاني حرير أخضر بطرز يلبغاوي عريض ، وأخلع على أمراء الحاج مثمرات ، وأخلع على باش المجاورين بكاملية

صوف بصمور ، وكان بالقاهرة شخص من قضاة مكة فألبسه السلطان تشريفاً وطرحاة هو وقاضى المحمل ، ثم نزل ابن السلطان من القلعة وأمراء الحاج وصحبتهم الأتابكى (سودون العجمى) وبقية الأمراء المقدّمين وسائر أعيان المباشرين ، وكان قاصد ابن عثمان حاضراً لهذا الموكب العظيم ، فشقوا من القاهرة فى موكب حفل لم يقع مثله فى خروج الحجّاج فيما تقدم من المواكب ، فلهج الناس بأن ذلك نهاية سعد السلطان مما وقع له من الأمور الخوارق فيما تقدم ذكره . »[١٢٨]

وعلى الرغم من ذلك البذخ والترف الذى أحاط بقافلة المحمل السلطانى هذا إلا أن الشح والبخل كان السمة الرئيسية فيه ، « فلم ير لهم أحد من الحجّاج رأس سكر ولا مجمع حلوى ، وكل من كان معهم رُدّ يشكى من الجوع »[١٢٩]

المحمل الرجبى وفنون الرمّاحة :

كان السلطان المملوكى (الظاهر بيبرس) هو أول من قرّر الحج الرجبى كما ذكر (ابن إياس) فى سنة ٦٧٥ هجرية . قال : « وفى هذه السنة ، طيف بالمحمل الشريف ، وكسوة الكعبة ، بالقاهرة ، فى رجب ، وكان يوماً مشهوداً ، وهو أول من فعل ذلك من الملوك بمصر ، وأذن للناس فى الحجّ رجبى ، فسمّى الحجّ الرجبى من يومئذ ، واستمر ذلك فى كل سنة ، تارة يبطل وتارة يعمل . »[١٣٠] .

وذكر (ابن إياس) فى حوادث شهر ربيع الأول عام ٨٠١ هجرية أن السلطان (الظاهر برقوق) نادى فى الناس بالقاهرة بأن يحجوا رجبى ، وكان ذلك قد بطل من سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة ، فرسم بإعادته على جارى العادة .[١٣١]

وإذا صحت هذه المعلومة : وكان السلطان (الظاهر برقوق) قد أقام الحج الرجبى وأعاده مرة ثانية فقد أخطأ (ابن إياس) فى تقرير أن الحجّ الرجبى قد بطل منذ علم ٧٨٣ هجرية ، بدليل ما ذكره فى حوادث شهر رجب علم ٧٨٣ هجرية ، حيث قال : « دار المحمل الرجبى على العادة ، وخرجت الحجاج إلى البركة يوم دوران المحمل ، وكان أمير الركب الأمير (بهادر الجمالى) المشرف فخرج الحجّاج أفواجا .[١٣٢]

وقد اقترن المحمل الرجبى فى العصر المملوكى بفن الرمّاحة القتالى أمام جمهرة المشاهدين من الناس ، وكان ممن يقودون هذا الفن الأمير (جانى بك الظريف) والأمير (قايتباىْ المحمودى) ، والأمير (تمرا الحسنى) المعروف باسم (الزردكاش) . وحينما بطل هذا الفن فى أواخر العصر المملوكى بعثه السلطان (قانصوه الغورى) حيا من جديد ليمتع الناس مع قدوم طلعة المحمل الرجبى .[١٣٣]

قال (ابن إياس) فى حوادث شهر جمادى الأولى عام ٩٠٩ هجرية : « وفيه قوى عزم السلطان على أن يدور المحمل فى رجب وتلعب الرماحة على العادة القديمة ، وكان هذا الأمر قد بطل من سنة اثنين وسبعين وثمانمائة من دولة

(الظاهر خشقدم) ، ونسى هذا الفن من يومئذ ، فأراد السلطان أن يجدد هذا الأمر حتى يصير له التذكار بين الملوك بتجديد هذا الفن ، فعين الأمير (تمرا الحسنى) المعروف بالزردكاش ، بأن يكون معلم الرماحة ، وعين معه الباشات أربعة ، وهم (أبو زيد) أحد الأمراء المقدمين و (جانم الدوادار الثانى) وهو قرابة (قانصوة خمسمائة) و (عـلان) والى القاهـرة ، و (قرقماس المقرى) ،وعين من الخاصكية أربعين مملوكا على جارى العادة القديمة . »[١٣٤]

وحينما استقر رأى السلطان (الغورى) على عودة هذا الفن ، وجرى استعراض الرماحة فى المحمل الرجبى ، أخلع السلطان على الأمير (تمر الحسنى) معلّم الرماحة أطلسين ، وعلى الباشات الأربعة كوامل بصمور .[١٣٥]

عفاريت المحمل المصرى فى العصر المملوكى :

نادراً ما كانت تمر مناسبة دوران المحمل المصرى بما تبعثه فى النفوس من بهجة وانشراح دون أن يكدِّر صفوها عبث العابثين .

هؤلاء العابثون أطلق عليهم اسم (عفاريت المحمل) ، وقد وصفهم المستشرق الفرنسى (جاستون فييت) بعدما ذكر مراسم الاحتفال بدوران المحمل ، إذ يتكدر الموقف ، « وسرعان ما يحدث هرج ومرج ، فترى جنوداً وقد ارتدوا ملابس تنكرية مخيفة يطلبون المال من الجمهور المرح ، وكان هؤلاء يسمون شياطين المحمل ، إذا كانوا يرتكبون كثيراً من الحماقات ، حتى أن الحكومة قررت منع هذه العروض . »[١٣٦]

كان عفاريت المحمل فى الأصل ممثلين يخرجون فى احتفالات المحمل ، كما كانوا يظهرون وهم يؤدون أدوارهم التمثيلية أمام الناس ، وكان يسير معهم المصارعون وما يسمى الآن (بالبلياتشو) الذى نعرفه فى (السيرك) ، ومن هؤلاء كان يسير على أرجل خشبية قد ترتفع إلى ثلاثة أمتار تقريبا ، ويسدل عليهم معطف طويل يغطى هذه الأرجل الخشبية ، ويلطخ وجهه بالمساحيق ، فكان منظره يثير ضحك الناس حتى أطلقوا على أمثال هؤلاء اسم « عفاريت المحمل » .[١٣٧]

كان الناس يغدقون على عفاريت المحمل النقود ينثرونها عليهم وهم يسيرون فى مقدمة المحمل ويزعمون أن هذه الأموال المنثورة سترد إلى أصحابها أضعافا مضاعفة ببركة المحمل .. !

ويظهر أن جماعة المماليك فى عصورهم المتأخرة طمعوا فى الحصول على هذه الأموال فأرادوا أن يقوموا هم بدور (عفاريت المحمل) فتنكروا وصبغوا وجوههم وأطلقوا لحاهم ، ولبسوا ثياب أصحاب المساخر ، وركبوا خيولهم بأن جعلوا وجوههم نحو ذيل الحصان وقاموا بحركات بهلوانية على الخيل ، ولكن الجمهور استنكر منهم هذه الحركات ، ولم يغدق عليهم الأموال ، بل جعلوها لعفاريت المحمل دون المماليك ، فغضب المماليك وقاموا بأعمال وحشية ضد الجمهور ،

فسلبوا نقودهم ، واختطفوا ملابسهم ، وانتزعوا الحلى من النساء ، بل هاجموا الدور كما أصاب المساخر الكثير من ضررهم .

وتاريخ العصر المملوكى حافل بمثل هذه الأعمال الوحشية التى قام بها المماليك الأجلاب ، ولم يسلم منها أى احتفال للمحمل المصرى ، بل لم يسلم من ذلك حتى المحمل السلطانى الذى كان يقل حريم السلطان المملوكى (الأشرف شعبان بن قلاون) عام ٧٧٨ هجرية .[١٣٨]

ولم نعرف من هم هؤلاء العفاريت للمحمل المصرى الحقيقيون ، وإنما ورد اسم أحدهم عرضا عند (ابن إياس) . قال فى حوادث شهر المحرم عام ٩١٨ هجرية أيام سلطنة (الغورى) يوم الاحتفال بعشوراء فى قصر المقياس بالروضة : « .. ثم إن شخصا مضحكا يقال له (على باى) الذى يعمل عفريتا فى المحمل ، فقام رقص ثم سحب الوالى (كرتباى) فرقّصه ، ثم سحب أمير آخور (ثانى أقباى الطويل) فرقّصه ، ثم سحب (بركات بن موسى) المحتسب فرقّصه ، ثم سحب (عبدالعظيم الصيرفى) فرقّصه ، وكان جسيما فضحك عليه السلطان ، ونثروا بين يديه أشياء من أنواع الورد والزهر والفاكهة ومجامع الحلوى »[١٣٩]

كسوة المحمل فى العصر المملوكى :

على قدر ما كان اهتمام المؤرخين فى العصر المملوكى يرصدون ظاهرة احتفاليات دوران وسفر وعودة المحمل المصرى لم يهتم أحد بذكر كسوة المحمل سوى مرة واحدة فى عام ٧٨٥ هجرية . ففى هذا العام قال (المقريزى) : « وفى ثامن عشرة رجب دار المحمل بالقاهرة ومصر على العادة فى كل سنة ، واستجد له ثوب حرير أصفر بشمسات زركش ، فيها اسم السلطان ، وعملت له رصافيات فضة مطلية بذهب ، فجاء أحسن ما عهد قبل ذلك . »[١٤٠]

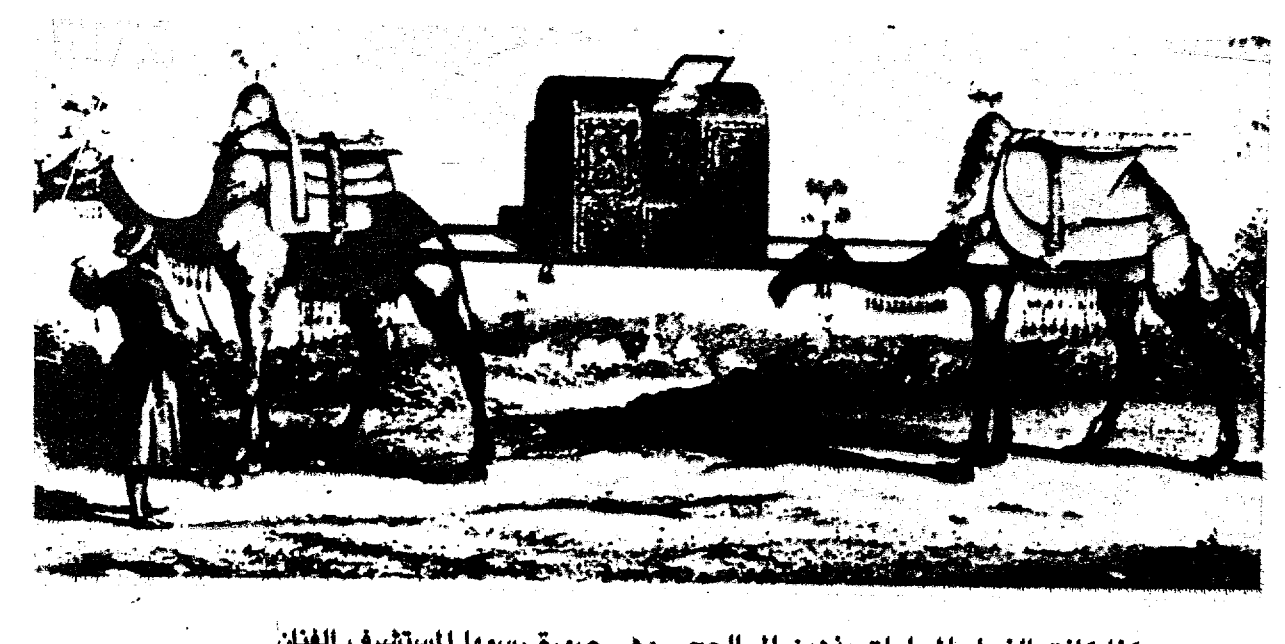
احتفاليات المحمل المصرى بعد العصر المملوكى :

وصف (الجبرتى) احتفال ذهاب المحمل المصرى فى شوال عام ١٢٠٠ هجرية ، فقال : « وفى يوم الثلاثاء سابع عشرينه كان خروج المحمل صحبة أمير الحاج (محمد بك المبدول) بالموكب على العادة ، ماعدا طائفة الينكجرية والعزب ، خوفا من اختلاط العثمانية بهم ، وحضر (حسن باشا القبطان) إلى مدرسة الغورية لأجل الفرجة والمشاهدة ، ولم يزل جالسا حتى مر الموكب والمحمل . ولما مرت عليه طوائف الأشاير ، فكانت تقف الطائفة منهم تحت الشباك ، ويقرأون الفاتحة ، فيرسل لهم ألف نصف فضة فى قرطاس ، ولما انقضى أمر ذلك ركب بجماعة قليلة ، وازدحمت الناس للفرجة عليه ، وكان لابسا على هيئة ملوك العجم ، وعلى رأسه تاج من ذهب مزرد مخروط الشكل ، وعليه عصابة لطيفة من حرير مرصّعة بالجواهر ، ولها ذوائب على آذانه وحواجبه ، وعليه عباءة لطخ قصب أصفر . »[١٤١]

اما الاحتفال بعودة المحمل المصرى فى عام ١٢١٦ هجرية ، فقد رصد على النحو الآتى : « وفى يوم الاثنين ، وصل (سليمان اغا) إلى بركة الحاج ، وصحبته المحمل ، ونساء الأمراء القادمين من الشام ، فخرج الناس لملاقاتهم ، واخذوا معهم حمير مكارية لركوب النساء وهديات ، ونودى فى عصريته بعمل موكب من الغد ، وطاف الاى جاويش بزيه المعتاد ، وخلفه القلبجية ، وهم ينادون (بارك الاى) ، فلما اصبح يوم الثلاثاء ثانى عشرينه عمل الموكب ، وانجر الالاى ، ودخل المحمل من باب النصر ، وشقوا به من الشارع الأعظم ، وصادف ذلك اليوم يوم مولد المشهد الحسينى ، والأسواق مزينة وعلى الحوانيت الشقق الحرير ، والزردخات ، والتفاصيل ، وتعاليق القناديل ، ومشى فى الموكب رسوم لوجاقلية والاوده باشيه واكثر الأمراء والمشايخ والعلماء ، ونقيب الأشراف ، ونبه على جميع الأشراف تلك الليلة بالحضور فى صبح ذلك اليوم للمشى فى ذلك الموكب ، فمشى كل من كان له عمامة خضراء ، يكبرون ويهللون ، فكانوا عدداً كثيراً ، وكل من وجدوه بالطريق وعلى راسه خضار جذبوه وسحبوه قهراً ، وامروه بالمشى وإن ابى ضربوه ، وسبوه ، وبكتوه بقولهم ، الست من المسلمين ، وكذلك تجمع أرباب الأشاير ، ومشوا على عادتهم بطبولهم ، وزمورهم ، وخياطهم ، وخرقهم ، وخورهم ، وصياحهم ، فلم يزلوا حتى وصلوا إلى قرميدان ، وتسلم المحمل (محمد باشا ابو مرق) من (سليمان اغا) الذى وصل به ولكنه عوضا عن سيده امير الحاج (صالح بك) ، ثم صعدوا به إلى القلعة ، واودعوه هناك ، وعملت وقدة وشنك تلك الليلة . »[١٤٢]

ويبدو أن مستوى المحمل المصرى تردى إلى مستوى اقل من حيث شغف الاحتفال به والمشاركة فيه . قال (الجبرتى) فى حوادث شهر شوال عام ١٢٢٩ هجرية : « وفى يوم السبت رابع عشرينه ، عملوا موكبا لخروج المحمل ، واستعد الناس للفرجة على عادتهم ، فكان عبارة عن نحو مائة جمل تحمل روايا الماء ، والقرب ، وعدة من طائفة الدلاة على رؤسهم طراطير اسود قلابها ، وامير الحاج على شكلهم ، وخلفه ارباب الأشاير ببيارقهم ، وشراميطهم ، وطبولهم ، وزمورهم ، وجوقاتهم ، وخلفهم المحمل ، فكان مدة مرورهم مع تقطيعهم وعدم تنظلمهم نحو ساعتين ، فاين ما كان يعمل من المواكب بمصر التى يضرب بحسنها ، وترتيبها ، ونظامها المثل فى الدنيا ، فسبحان مغير الأحوال . »[١٤٣]

لقد تغيرت تلك الاحتفالات ، وتطورت كثيرا تلك العروض الشعبية التى كانت تصاحب رحلة المحمل إلى ومن الأراضى المقدسة . وإذا كانت تلك الاحتفالات والعروض الشعبية قد شابتها شوائب العصر المملوكى ، من لهو واستمتاع حسى ابن عصره المنحدر والذابل ، فإن العروض الشعبية التى واكبت المحمل المصرى منذ بداية هذاالقرن قد اخذت لها مسحة صوفية طاهرة ، بعد ان ولى زمان اختلطت فيه الأمور .



هكذا كانت النساء المسلمات يذهبن الى الحج ، وهي صورة رسمها المستشرف الفنان
(بيرتون) في رحلته التي قام بها عام ١٨٤٢ ميلادية في عهد محمد علي

وسنضرب مثلا بالاحتفال بامير الحج وامين الصرة التى كانت تحوى مال الصدقة قبل سفر المحمل المصرى .

كان هذا الاحتفال الشعبى يسمى باسم (العراضة) ، حيث كان امير الحج يعين يوم الاحتفال بسفر المحمل . وجرت العادة انه بعد تعيين امير الحج وامين الصرة تحتفل طوائف الضوئية ، والعكامة ، والفراشين ، والسقائين ؛ وتحضر كل طائفة ومعها رئيسها إلى منزل امير الحج ، ثم إلى منزل امين الصرة ، ومن ثم يقام الاحتفال .(١٤٤)

وطائفة الضوئية : هم الذين يضيئون الطريق اثناء السفر فى الليالى المظلمة بإشعالهم الخشب فى مشاعل يحملونها امام الركب وعلى جانبيه ، ويسير رئيسهم دائما مرافقا لأمير الحج ، ويلقب باسم (ضوى) باشا ، وعددهم سبعة ، وتقوم طائفة الضوئية بحفلهم بأن يحضر رئيسهم لابسا « بنشا » وخلفه رجال حاملين المشاعل ، مكسوة رؤوسها باغطية ملونة ، ويبتدئون بمدائح نبوية ، وعقب ذلك يسقون شرابا حلوا ، ويعطى رئيسهم « شالا » كشميريا يتقلده فورا ، ثم ينصرفون .

والعكامة : وهم افراد طائفة ، وظيفتهم وضع الأحمال على الجمال وقيادتها ، والمحافظة عليها . وانزالها . ويحضرون إلى منزل امير الحج ، ومعهم رئيسهم لابسا « بنشا » ومعهم تختروان محمول على جملين بالهيئة التى يكون عليه حال السفر ، وتتقدمهم الطبول والزمور ، ويسقون الشراب الحلو ، ويقلد رئيسهم « شالا » كشميريا وينصرفون .

والفراشون : وهم وظيفتهم نصب الخيام وطيها ، ويتقدمون الركب مع بعض الحرس قبل وصوله إلى اية محطة بوقت كاف ، ويقيمون له الخيام ، والسقاؤون يملئون القرب ويضعونها فى الخيام ، حتى إذا وصل الركب وجدت الخيام مقامة والمياه فيها داخل القرب .

ويكون حفل الفراشين بان يحضروا ومعهم رئيسهم لابسا « بنشا » وامامه الطبول والزمور وجملان محملان خياما كحالهم وقت السفر ، فيسقون الشراب الحلو ، ويقلد امير الحج رئيسهم « شالا » كشميريا ، وينصرفون ، ويحتفل السقاؤون عندما يحضر كل واحد منهم ، وهو يحمل قربة منفوخة ، ويرقصون بها على قرع الطبول ونغم المزامير ، ومعهم جملان محملان قربا مملوءة بالماء ، وفوق القربة قمع من النحاس يوضع فى فم القربة ، ويسكب فيه الماء لملئها ، وجمل ثالث على ظهره سعفان نخل محزومة من اسفلها تمثل نخلة صغيرة . وقاعدة النخلة وظهر الجمل مزينان بالشيلان الكشميرية.والانسجة القطيفة المشغولة بالقصب والترتر .

وفى الحفل يسقون الشراب الحلو ، ويقلد امير الحج رئيسهم « شالا » كشميريا ، ثم ينصرفون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهؤلاء الرؤساء الأربعة يلبسون « البنشات » والشيلان الكشميرية المهداة إليهم من أمير الحج فى كل حفلة تعمل أثناء تنقلات موكب المحمل المصرى فى القاهرة ، والسويس وجدة ومكة ومنى وينبع والمدينة .

إن أدق وصف لموكب المحمل المصرى يعبر عنه فى جملة واحدة فقط هو وصف الرحالة الفرنسى (جيراردى نرفال) ، وهو على مشارف القرن الثامن عشر ، قال هذا الرحالة حينما شهد موكب المحمل المصرى عند باب الفتوح بالقاهرة : « كان المشهد يشبه أمتسير وتأتى لتذوب فى شعب كبير »[١٤٥]

ولقد كانت عبارة الرحالة الفرنسى بالفعل صادقة تمام الصدق ، وإن جاءت رؤيته رؤية سائح مندهش أخذ جلال المشهد منه لبه وعقله ! .

وهناك العديد من الرحالة الذين اهتموا وعنوا بأمر المحمل المصرى ، فوصفوه فى كتبهم ومذكراتهم الخاصة وصفا اختلف من عين لأخرى . نذكر منهم مثلا (ادوارد وليم لين) ، و (جيراردى نرفال) ، و (لوسى دف جوردون) ، و (محمد لبيب البتنونى) ، و (إبراهيم رفعت باشا) ، وهذا الأخير استطاع بحس فى الفولكلور مرهف أن يصف موكب المحمل المصرى وصفا دقيقا وهاما ، ساعده على ذلك أنه كان أمير البعثة للحج المصرى فى أعوام (١٣٢٠ ـ ١٩٠٣) ، و (١٣٢١ ـ ١٩٠٤) ، و (١٣٢٥ ـ ١٩٠٨) ، وشغل منصب قومندان حرس المحمل عام ١٣١٨ ـ ١٩٠١) . قال (إبراهيم رفعت باشا) فى وصفه احتفال المحمل المصرى : « فى يوم ٢٧ شوال سنة ١٣١٨ هجرية (١٦ فبراير ١٩٠١) احتفل فى القاهرة بكسوة الكعبة المشرفة بالطريقة الآتية :

فى يوم ٢٦ شوال أتى بالمحمل من مقره بوزارة المالية ، ونقل داخل صناديق على عجلة إلى (وكالة الست) بالجمالية حسب المعتاد من قديم ، ونقل جزء من كسوة الكعبة مع أحزمتها الحريرية المزركشة بالقصب من مصنعها بالخرنفش إلى المصطبة بميدان صلاح الدين المعروف بميدان القلعة أو ميدان محمد على[١٤٦] .

وفى عصر هذا اليوم احتفل رسميا بنقل كسوة مقام الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ والجزء الباقى من كسوة الكعبة من مصنعها بالخرنفش إلى ميدان صلاح الدين السابق ، وكان نقل الكسوة على أكتاف الحمالين ، يحيط بها رجال الشرطة ، ويتقدمها قسم من الجيش ما بين راجل وراكب معهم الموسيقا تصدح بالأنغام المطربة ، ويصحبه أرباب المزمار البلدى المعينون للسفر بصحبة المحمل ، وكذلك تقدم الكسوة مدير مصنعها ـ مأمور الكسوة ـ ممتطيا جواده مرتديا لباسه الرسمى ـ بذلة التشريفة الكبرى ـ وعلى يديه مبسوطتين كيس مفتاح الكعبة . ويتلو كسوة مقام الخليل إبراهيم محمولة على الأكتاف أيضا ، وسار الموكب بهذا النظام من المصنع إلى سبيل (كتخدا) ، حيث التقى به المحمل بكسوته الخضراء المعتادة آتيا من (وكالة الست) بالجمالية على ظهر جمل ، فسار وراء كسوة المقام ، وسار الموكب كله إلى النحاسين ، فالغورية ، فباب زويلة

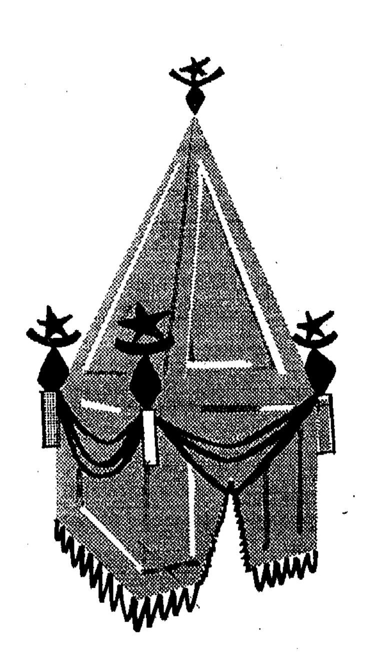


موكب المحمل المصرى فى اكتوبر ١٩٤٦ ميلادية ايام الملك فاروق

(بوابة المتولى) ، فالدرب الأحمر ، فالتبانة ، فالمحجر ، فميدان صلاح الدين ، حيث أقيم هناك الاحتفال . فوضع المحمل مع الكسوة فى المحل المقابل لردهة (صالة) الاستقبال حتى الصباح ، ووضعت كسوة المقام وسط الردهة المذكورة التى زينت جدرها بقطع من كسوة الكعبة واحزمتها القصبية وكيس مفتاح الكعبة وستارة بابها وباب التوبة ، ووضع حول كسوة المقام اربع ماثلات (شمعدانات) من الفضة احضرت من جامع القلعة ، ووضع بحجرة المحافظ التى بالجهة الغربية من ردهة الاستقبال اربع قطع يقال لها (كرداشيات) زينت بها جدر الحجرة ، وقد احيت المحافظة الليلة المعقبة لهذا اليوم بتلاوة آى القرآن الكريم ، وإنشاد المنشدين فى مكان شرقى مكان الاحتفال ، ودعت العلماء والكبراء والأعيان لمشاركتها فى إحياء الليلة ، ومنهم من دعته لتناول طعام العشاء قبل الغروب ، ومنهم من دعى للاحياء بعد صلاة العشاء فحسب ، كما أنها دعت مشايخ الطرق من الرفاعية ، والسعدية ، والأحمدية ، والابراهيمية ، والبيومية ، والقادرية ، والشاذلية للسير أمام المحمل والكسوتين ، وللمشاركة فى إحياء هذه الليلة التى انفق فيها مائة جنيه مصرى ، واستمرت الحفلة إلى ما بعد نصف الليل ،حيث جمعت قطع الكسوة التى فى الردهة وفى حجرة المحافظ مع كسوة المقام ، ووضع كل ذلك مع المحمل فى المكان المقابل لردهة الاستقبال . وفى صباح هذه الليلة احتفل بالكسوة والمحمل احتفالا فخما فى ميدان صلاح الدين حضره سمو الخديو والوزراء والعلماء والأعيان ، واطلق للخديو ساعة حضوره واحد وعشرون مدفعا ، وصدحت الموسيقا بسلامه ثلاثا ، اعقبها الضباط والعساكر والحضور فى كل مرة بالهتاف لسموه (افند مزجوق يشا) ـ يعيش افندينا طويلا ـ وكان الخديو والحضور قليلا فى بهو (صالة) الاستقبال مشاهدا دورات المحمل السبع المعتادة فى الفناء الواسع الذى أمام البهو ، وكان يقود جمل المحمل مدير مصنع الكسوة الذى قدم المقود إلى سمو الخديو ، فقبله ، وناوله قاضى القضاة فقبله ايضا مع بعض الحضور ، ثم اعاده إلى المامور الذى ينتظر بالمحمل قبالة الجامع المعروف (بالمحمودية) بالميدان ريثما يتم استعراض الكسوة ، ثم عرضت الكسوة يحملها الخفراء على سموه ، وقد وقف خارج الردهة مع الوزراء والحضور ، والخفراء يمرون بهامن امامهم حتى إذا ما انتهت استعرض الجيش ، ثم اطلق واحد وعشرون مدفعا إيذانا بانتهاء الحفلة ، وانصرف الخديو والحضور ، ثم سير بالكسوتين والمحمل إلى مسجد الحسين ـ رضى الله عنه ـ يصحبها رجال الجيش والشرطة وارباب الطرق وفى المسجد استقبل الكسوتين امير الحج وامين الصرة .. وكانا قد سبقا الناس إلى المسجد ، وهنالك ضمت بالخياطة قطع الكسوة بعضها إلى بعض ، ثم نقلت إلى العباسية مع كسوة المقام فى صناديقها المعدة لها استعدادا للسفر بهما إلى الحجاز بعد . أما المحمل فسير به من المسجد الحسينى إلى مصنع الكسوة بالخرنفش ، وبقى هناك إلى صبيحة يوم

الاحتفال بخروج المحمل إلى الأقطار الحجازية ، ففى صبيحة هذا اليوم احتفل بنقله من المصنع إلى ميدان صلاح الدين ، ولكن من طريق سوق السلاح ، وفى ضحوة ذلك اليوم ١٣ ذى القعدة سنة ١٣١٨ هـ (٤ مارس سنة ١٩٠١) عمل احتفال بالميدان المذكور كالاحتفال السابق ، وسلم فيه (عبدالله فائق بك) مدير مصنع الكسوة زمام المحمل إلى سموالخديو وسموه سلمه لأمير الحج ، حيث قاده محفوفا برجال الشرطة والجيش وأرباب الطرق إلى العباسية ليسافر من هنالك إلى السويس فمكة مع الكسوتين والروائح العطرية والخرق الجديدة التى تغسل بها الكعبة »(١٤٧) .

□ □ □



العادات والمعتقدات الشعبية

فى موكب المحمل المصرى

كأى ظاهرة من ظواهر المأثورات الشعبية العربية ، التى تمس ناحية العقائد تراكمت حول المحمل المصرى تراكمات عند قدوم كل عام كان يهل فيه موكبه ، فى رحلته للأراضى الحجازية ، سواء بالذهاب أو بالاياب .

وعلى امتداد تاريخ المحمل المصرى الطويل لم تتضخم المعتقدات الشعبية وتصبح كالورم السرطانى الخبيث حوله سوى فى عصور التخلف الأخيرة والتى قاد زمامها صوت الاستعمار .

ومن أبرز المعتقدات الشعبية المصرية التبرك بالمحمل أينما حل ، باللمس لمن استطاع الى ذلك سبيلا ، أو حتى بمجرد الرؤية بالعين لمن تعذر عليه الملامسة .

يقول اللواء (ابراهيم رفعت باشا) والذى عاصر ذلك مرارا وتكرارا بصفته قومندان حرس المحمل ثم أميرا للحج مرات عديدة ، واصفا تلك الظاهرة : « .. وقد كان الأهالى ، ومشايخ الطرق ، وطلبة المدارس بنين وبنات ينتظرون المحمل فى محطات الوقوف للقطار ومعهم الموسيقى والمزمار ، مثل محطات القاهرة ، وطوخ ، وبنها ، والزقازيق ، وأبى حماد ، ونفيشة ، والاسماعيلية ، وفايد ، ومما رأينا من عادات الأهالى احضارهم أولادهم الرضع ، ليروا المحمل ، فيبارك لهم فى ذريتهم ، وكانوا إذا لم يستطيعوا لمسه قذفوا بمناديلهم الى خدام المحمل بعد أن يضعوا فيها شيئا من النقود ، أو يملؤوها باللحوم البيضاء ، أو الفطير ، فيأخذ الخدم ذلك منها ، ويردونها الى أربابها بعد امرارها على المحمل ، والذى دعا العامة الى ذلك ما يعلمونه من ان المحمل يوضع داخل المسجد الحرام ، كما يوضع فى المقصورة النحاسية التى حول قبر الرسول ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ ما دام بالمدينة ، فيريدون التبرك بمحمل يزور الأماكن المقدسة » .(١٤٨)

كانت هذه العادة وهذا المعتقد يسرى سريان النار فى الهشيم فى شرائح عديدة من المجتمع المصرى ، وكذلك فى أماكن عديدة منه ، وفى أزمنة مختلفة أيضا .

فإذا كان زمن هذه الحادثة التى ساقها لنا اللواء / ابراهيم رفعت باشا هو عام ١٩٠١ ميلادية وقت أن كان قومندان حرس المحمل ، فإن هناك فى تاريخ المحمل المصرى العديد من المواقف التاريخية ما يؤكد تاصيل هذه العادة الذميمة وذاك المعتقد الخاطىء .

لقد رصد لنا هذه الظاهرة فى الربع الأول من القرن التاسع عشر فى فترة حكم الوالى (محمد على) رصدا دقيقا المستشرق الانجليزى (ادوارد وليم لين) بل قام هو نفسه بها حين مشاهدته لموكب المحمل المصرى العائد بالحجاج من الأراضى الحجازية ، عند باب النصر بالقاهرة . وفى ذلك يقول عنه ، وقد أدركه عند القلعة بعد عناء شديد من كثرة الازدحام : « .. وبعد أن لمسته ثلاثا ، وقبّلت يدى ، امسكت بالهدبة ، وسرت بجانبه ، ورآنى حارس المحمل المقدس ، الذى كان يسير خلفه ، فحملنى على النطق بدعاء صالح ، لعله كان المانع من تنحيتى عنه ، ويحتمل أن يكون قد تأثر بمظهرى ، إذ انه كان يسمح للآخرين بالاقتراب من المحمل ولمسه واحدا واحدا ، ثم يدفعهم الى الخلف . وظللت سائرا بجانب المحمل ممسكا بستره الى ما يقرب من مدخل الرميلة . وقد أخبرت أحد أصدقائى المسلمين بما فعلت ، فدهش دهشة كبيرة كبيرة ، وقال انه لم يسمع بأحد قام بذلك من قبل (!) وأن الرسول ـ لا شك ـ قد حبانى بحبه ، وإلا لما قدِّر لى ذلك . وأضاف الى قوله اننى قد حصلت على بركة لا تقدر ، وان من الحكمة ألا اخبر احدا من أصدقائى المسلمين الآخرين بهذا الحادث ، لئلا اثير حسدهم وسخطهم . ولا أستطيع أن أعلل تقديس المحمل الى هذا الحد . ويبدى كثيرون شوقا شديدا الى لمسه ».(١٤٩)

وإذا كان المستشرق الانجليزى (ادوارد وليم لين) لم يستطع ان يجد تعليلا لتقديس العامة من المصريين للمحمل المصرى فإن تعليل ذلك قد ورد فى ختام الفقرة السابقة التى ذكرها اللواء (ابراهيم رفعت باشا) ، فالعوام « يريدون التبرك بمحمل يزور الأماكن المقدسة » ففى عرفهم ـ بصرف النظر عن كون ذلك صحيحا أو غير صحيح ـ وهو بالتأكيد غير صحيح ـ أن المحمل المصرى قد مسَّ الأراضى الحجازية المقدسة ، لذلك فقد أصبح مباركا ويمكن التبرك به ، وهذا المعتقد مازال راسخا فى الأعماق ، حتى بعد زوال أمر المحمل الى الآن ، وذلك فى أشياء عدة كثيرة ، مثل من يعود بهدية لصديق من هناك قائلا له « خذ حاجة من رائحة النبى » ..! أو أن يعود بقسط ماء من زمزم ويرشها فى جنبات بيته لنيل البركة ..! وعلى غرار موكب الدوسة ـ دوسة حوافر الحصان لأجساد آدمية منبطحة على الأرض ـ الذى كان يحدث فى ليلة الاحتفال بمولد النبى فى مصر كان البعض يرتمى تحت اخفاف جمل المحمل ، غير هيّاب من الموت ، أو تحطيم الضلوع على اقل تقدير ، لنيل البركة من موكب المحمل المصرى . قال الرحالة الفرنسى (جيراردى نرفال) يصف مثل هذا المشهد فى منتصف القرن التاسع عشر ، وبعد الرحالة الانجليزى (ادوارد وليم لين) بنحو ربع قرن من الزمان : « كانت كتيبة القواسين تجد صعوبة كبيرة فى ابعاد الزنوج الذين كانوا بدافع من تعصب يفوق غيرهم من المسلمين يتوقون الى أن يرتموا تحت اخفاف الجمال ، ليستشهدوا أو يسحقوا ، فكانت ضربات العصى تنهال عليهم تمنحهم على الأقل جزءا من عذاب الاستشهاد الذى يبغونه ».(١٥٠)

لقد وصل التقديس للمحمل المصرى الى درجة تقبيل خف جمل المحمل نفسه . وفى ذكر ذلك يقول (محمد لبيب البتنونى) : « .. ولقد بلغ من مبالغة ملوك مصر بالاحتفاء بالمحمل انهم قضوا - أى فرضوا - على جميع حكام البلاد التى كان يمر عليها فى طريقه بأن يقبّلوا خف جمل المحمل عند استقباله »[١٥١]

وهذا الشيء هو من رواسب موروث الانحدار والقهر الاستعمارى فى العصر المملوكى . ولو اننا تصفحنا التاريخ سنجد ما يؤيد ذلك . ففى أخبار الخامس والعشرين من ذى الحجة عام٧٨٤ هجرية قال (ابن تغرى بردى) « إن مبشر الحاج أخبر أن أمير مكة نزل على العادة لملاقاة المحمل ، وقبّل الأرض ، ثم قبّل خف جمل المحمل »[١٥٢]

وهذه الواقعة ذكرها (ابن اياس) فى تاريخه مع بعض الاختلافات البسيطة . فقد أوردها (ابن اياس) ضمن حوادث عام ٧٨٨ هجرية ، أى ان هناك فرقا واضحا بين التاريخين بلغ زهاء أربع سنوات ، كما ان (ابن اياس) ذكر ان فعل التقبيل لم يتم لأن القدر عاجله ، فلقى مصرعه على يد اثنين من الفداويين ، وهما يقولان له « غريم السلطان » فلم يكن قتله لأنهما استنكرا فعل التقبيل الذميم لخف جمل المحمل ، وانما لأن أمير مكة هذا الذى أدرج فى دمه المسفوح رأياه عدوا للسلطان .

وسواء كان فعل التقبيل لخف جمل المحمل المصرى كان قد تم أو كان فى النية أن يتم لولا سرعة يد المنون ، فإن العرف السائد وقتها أن يقوم الحكام بهذا الفعل ، فما البال والرعية ، ماذا عندئذ يكون فعلها ؟!

ألا يصدق هنا قول الشاعر العربى :

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا
فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

هذه العادة السيئة التى قال عنها (محمد لبيب البتنونى) انها ظلت موجودة الى أن أعفى السلطان المملوكى (الظاهر جقمق) أمراء مكة من فعلها فى سنة ٨٤٣ هجرية تحتاج منا وقفة تدقيق وفحص .[١٥٣] (فالمقريزى) قد ذكر ضمن حوادث هذه السنة : « ان الشريف بركات بن حسن بن عجلان أعفى من تقبيل خف جمل المحمل ، فشكر هذا من فعل السلطان ».[١٥٤]

ويبدو ان هذا الفعل من السلطان جقمق لم يكن بغرض القضاء تماما على هذه العادة القبيحة ، وانما هو أعفى شريف مكة هذا فى هذه السنة فقط ، أو ربما أعفى ولاة أمارة مكة فقط ، إذ أن الثابت تاريخيا تكرار تقبيل خف جمل المحمل فيما بعد .

وعلى سبيل المثال سنذكر واقعة حدثت سنة ٩٥٥ هجرية فى العصر العثمانى الذى أسقط عصر المماليك ، ولكن استطاع بعضهم أن يتسلق الجدران العثمانية على طريقة نبات اللبلاب ، ومن ثم فرض نفوذه من جديد .

كانت العادة وقتها أن يحضر أمير (ينبع) بخيله الملبسة ورجاله وزينته وأعلامه وطبله في هيئة جميلة الى القرب من جبل (الزينة) ، وينزل عن فرسه ، ويصلي ركعتين بعد ان تبسط له سجادة كبيرة يحضرها غلمان الطشت خاناه ـ وهم المختصون بأمر الوضوء وغسيل الأيدي ـ بخدمة أمير الحاج للصلاة عليها هو ومن بصحبته ، ويلبس الخلعة السلطانية المجهزة صحبة أمير الحاج ، ويُلبس أمير الحاج من عنده قاضي (ينبع) وولد الشريف وولد اخيه ثم ان الشريف صاحب (ينبع) وأميرها يتقدم الصفوف ، ويقبّل خفّ جمل المحمل المصري لابراز مظاهر الطاعة والولاء ..![155]

ويبدو من هذه الحادثة انها تبرز أصل مسألة تقبيل خف جمل المحمل ، فربما كانت في البداية لاظهار مدى الولاء والطاعة من الأمراء سواء في مصر أو في البلاد الحجازية لمحمل السلطان المملوكي ، والذي يمثله شخصيا ، فكانما تقبيل خف الجمل هو بالضرورة تقبيل خف السلطان المملوكي ان جاز لنا هذا التعبير ..!

ولقد شمل هذا النوع من التقديس مقود جمل المحمل المصري نفسه ، كما قال (أحمد أمين) في كتابه « قاموس العادات والتقاليد » واشار الى ذلك .[156]

ويؤيد ذلك وصف اللواء (ابراهيم رفعت باشا) لموكب المحمل المصرى سنة ١٩٠١ ميلادية ، والذي قبّل فيه خديو مصر ذلك المقود ، وكذلك قبّله قاضي القضاة من بعده مع بعض الحضور .[157]

وهناك رأى آخر يقول ان التقبيل لم يكن لمقود الجمل ، بل كان هناك بهذا المقود كيس اسطواني الشكل وصغير ، وبهذا الكيس كانت توجد به آثار مقدسة ـ وهي فيما يزعمون بضع شعرات للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبذا يظهر أن التقبيل لم يكن لمقود جمل المحمل المصرى في حد ذاته ، بل كان لهذه الآثار .[158]

أما جمل المحمل نفسه ، فقد حظى بمزية الاعفاء من العمل بعد ذلك بقية السنة .[159]

وقد روى لنا أن اختيار جمل المحمل كان يتم بعناية فائقة ، بحيث يكون ذلك الجمل من النوع الهادىء غير المشاكس . وكان يطلق عليه احيانا اسم (الشيخ سيد) ، أو اسم (مبروك) أو اسم (نبيل) وكان جمل المحمل من نوع الجمال ذات المزاج الخاص . فقد كان (يشرب دخان المعسل) ، عن طريق أن يشرب راعيه ، ويشد انفاس الدخان بفمه ، ثم ينفخها في انف جمل المحمل ، فيستطيب له الحال .!

وقد روى لنا احد عمال زركشة كسوة الكعبة المشرفة ان جمل المحمل ذات مرة أرادوا أن يذبحوه بالمذبح في منطقة (زين العابدين) بالقاهرة ، ولكنه فرّ منهم ، وهرب ، وجرى من هناك الى ان وصل الى دار الكسوة الشريفة بالخرنفش بمفرده .. على الرغم من البعد بين المكانين الذى لا يقل عن عشرة كيلومترات على الأقل ..![160]

وروى لنا أن آخر جملين للمحمل المصرى كانا فى عام ١٩٥٣ ، وأن اسمهما (مبروك) و(نبيل) ، وكانا يأكلان طوال العام فى عنبر الجمال المخصص لذلك باسفل دار الكسوة الشريفة ، وكان لجمل المحمل موظف مخصص لاحضار طعامه من البرسيم وخلافه يوميا . وكان يقوم على خدمة جمل المحمل فى مصر جمّال يرتدى جلبابا صوفيا وعمامة ، وآخر جمّال كان يدعى (محمد الرهيوى) ، وكان له مساعد اسمه (سيد) ، وكل وظيفة هذا الجمّال هو الحضور وقت قيام المحمل الى الموكب ، وكذا الاشراف على نظام اعاشة الجمل ، اما مساعد الجمّال فكان يقوم على أمر العناية بالجمل . وكان من عادته أن يقوم بتنشيط الجمل يوميا بالمشى من دار الكسوة بالخرنفش الى ميدان سيدنا (الحسين) ، ثم العودة . وكان حينما يقف بالجمل امام مسجد سيدنا (الحسين) تقبل عليه النساء العقيمات ، لتعبر من تحت بطن جمل المحمل ، طمعا فى نيل البركة والانجاب !![١٦١]

ومن اغرب العادات التى التصقت بالمحمل المصرى عادة ضرب المدخنين اثناء مرور موكب المحمل ..!

فقد كان المغاربة من اهل تونس وفاس ـ كما قال (الجبرتى) فى أحداث سنة ١١١٠ هجرية ـ من عادتهم أن يحملوا كسوة الكعبة المشرفة ، ويمرون بها فى وسط القاهرة للتبرك ، وكانوا يضربون من رأوه يشرب الدخان فى طريق مرورهم .[١٦٢]

ذكر لنا هذه الحادثة (الجبرتى) ولم يفسر لنا سبب هذه العادة ويبدو أن شرب الدخان بصفة عامة يكشف عن عدم اكتراث الشارب له بما يدور من حوله ، وهى العادة التى مازالت قائمة الى الآن فى صواوين التعازى فى المآتم ، حيث يقوم المدخنون باطفاء سجائرهم فور ان يبدأ قارىء القرآن فى التلاوة لآياته الشريفة .

ويذكر (الجبرتى) تفاصيل الوقعة التى حدثت من أهل تونس وفاس ، قائلا :

« .. فرأوا رجلا من أتباع (مصطفى كتخدا القازدغلى) فكسروا أنبوبته ، وتشاجروا معه وشجوا رأسه ، وكان فى مقدمتهم طائفة منهم متسلحون ، وزاد التشاجر ، واتسعت القضية ، وقام عليهم اهل السوق . وحضر (أوده باشا) البوابة ، فقبض على اكثرهم ، ووضعهم فى الحديد ، وطلع بهم الى الباشا ، واخبروه بالقضية ، فامر بسجنهم بالعرقانة . فاستمروا حتى سافر الحج من مصر ، ومات منهم جماعة فى السجن ، ثم افرج عن باقيهم » .

ويعلل صاحبا كتاب « تاريخ العلاقات المصرية المغربية » هذه الحادثة ويفسرانها بأن « الحجاج المغاربة لم يكونوا يصطدمون فى العادة بعناصر من المصريين ، او من اسماهم صاحب « عجائب الآثار » بأولاد البلد ، وإنما كانت صداماتهم تقع مع عناصر عسكرية فى خدمة السلطة ، وهى فى العادة من العناصر التركية . »[١٦٣]

كما يرجعان هذا التصرف العنيف من الحجاج المغاربة الى كونهم « متشددين بحكم انتمائهم للمذهب المالكي ، وهم نتيجة لهذا التشدد كانوا يرون في بعض سلوكيات اتباع المذاهب الأخرى خروجا عن الدين أو ما اسموه (بالمنكرات الشرعية) مثل التدخين »(١٦٤)

وإذا كان أهل المغرب العربي من عادتهم التقريع بالعصا لمن يدخنون ـ كما ذكر (الجبرتي) ـ فإن الرحالة الانجليزى (ادوارد وليم لين) قد رصد ظاهرة ضرب أخرى أثناء مرور المحمل المصرى في عهد الوالى (محمد على) ، ولكن بشكل آخر .

قال : « وهناك عادة غريبة يسمح بممارستها بمناسبة موكبى المحمل والكسوة ، فيطوف جماعة من الأولاد شوارع القاهرة ، وقد تسلح كل منهم بقطعة قصيرة من رعوس السعف الغليظ ، تُشَق شقين أو ثلاثة من طرفها الأكبر الى نصف طولها ، وتسمى (مقرعة) فإذا دنوا من مسيحى أو يهودى طلبوا منه أن يمنحهم خمس فضة أو ستا قائلين : (هات العادة) فإذا رفض انهالوا عليه بمقارعهم . وفي العام الماضى ضرب بعض الأولاد افرنجيا ، جريا على هذه العادة ، فلجأ الى وكالة كبيرة ، غير أن بعض الأولاد تبعوه ، وضربوه مرة ثانية . فاشتكى الى الباشا الذى أمر بتوقيع الجلد على شيخ الوكالة لعدم حمايته اياه »(١٦٥)

وشبيه هذا الموقف بما كان يحدث أثناء احتفالات النيروز في القاهرة ، حيث كان الصغار والكبار يرشون الأغنياء بالماء النجس ان لم يدفعوا لهم العادة !

ومن العادات الغريبة العجيبة لموكب المحمل المصرى انه كان يُعَين به رجل يسمى (أبو القطط) وكان هذا الرجل يقوم بغذاء القطط التى كانت تتبع ركب المحمل مدة سفره في البر ، ويقول آخرون انما كان هذا اسمه أما وظيفته فهى التى غيروها بوظيفة إمام المحمل . ويقال ان وظيفته كانت من عهد حج (شجر الدر).(١٦٦)

وإذا كان قد لاحظ ذلك (محمد لبيب البتنونى) وهو الذى رافق الخديو (عباس حلمى الثانى) في حجه في العشر الأوائل من مفتتح القرن العشرين فإن الرحّالة الانجليزى (ادوارد وليم لين) قد استلفت انتباهه موضوع القطط هذا في الربع الأول من القرن التاسع عشر ، غير انه اشار الى أن من يقوم برعايتها أثناء رحلة المحمل المصرى سيدة كانت تسمى (أم القطط) ، وهى عجوز تعودت ـ كما يقول ـ اقتفاء المحمل ، سافرة ، لا يسترها غير قميص ، إذ كانت تصحب دائما خمسه قطط أو سته بجانبها على الجمل .(١٦٧) ولم يذكر لنا أحد علة اصطحاب المحمل المصرى للقطط . هل كانت مسألة معتقدات شعبية ؟ أو كانت لغرض والتهام بقايا وفضلات الطعام التى تتبقى من الحجيج ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل عدد هذه القطط كان يكفى لهذا الغرض ؟ في الحقيقة اننا لم نصل لعلة اصطحاب هذه القطط في موكب المحمل المصرى ، وان كان اللواء (ابراهيم رفعت باشا) قد ذكر ضمن « مرتبات ومكافآت موظفى المحمل وخدمه ونفقته » في سنة



● ستارة باب الكعبة المشرفة أو ما يسمى بالبرقع فوق أكتاف رجال بلوكات النظام عام ١٩١٦ ميلادية فى عهد السلطان المصرى حسين كامل ■

١٣٠٧ هجرية ـ ١٨٨٩ ميلادية أن مرتب (أبى القطط) قد بلغ ١٥ جنيه فى ١٢ شهر عن كل شهر ١٢٥ قرشا ، وزيد المرتب فى الشهر الى جنيهين من سنة ١٨٩١ ميلادية ، وان (أبا القطط) هذا كان يحصل على مبلغ جنيهين وربع كبدل تعيين له كنفر واحد للانفاق على مستلزمات طعامه .[١٦٨]

وقد ذكر اللواء (ابراهيم رفعت باشا) ان وظيفة أبى القطط أصبحت من وظائف من لا يسافرون الآن (١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٨ م) مع المحمل ، ولكنه يتقاضى المرتب الى الوفاة ، فوظيفته من الوظائف الوراثية ، حيث يأخذها الأبناء بعد وفاة الآباء ، وعلل ذلك بقوله : « حتى تبقى بيوتهم مفتوحة ، وقد أيد ذلك الأمر الكريم الصادر للمالية فى ١٢ ذى القعدة سنة ١٣٠٤ ، وكذلك أيده أمر صاحب العطوفة ناظر المالية الصادر فى ٣٠ صفر سنة ١٣٣٠ هجرية (٢١ سبتمبر ١٨٩٢) بتعيين (محمد محمد عبدالنبى) خادما للقطط خلفا لوالده »

وقد كانت من عادة المحمل المصرى أن تكون له كسوتان : كسوته اليومية ، وهى من القماش الأخضر وكسوته المزركشة ، ولا يلبسها إلا فى المواكب الرسمية . وفى أيام وجوده بمكة كان يوضع فيما بين باب النبى وباب السلام-بكسوته اليومية . فيكون هناك مزارا للناس ، ولا ينقلونه من هذا المكان إلا فى مواكبه الرسمية بالكسوة المزركشة ، وحينما كان يصل الى مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة المنورة ترفع عنه كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء ، ثم يحملون كسوة المحمل ، ويدخلونها فى الحجرة النبوية الشريفة من الباب الشامى ، ويتركونها فى جانب من ساحة مقام السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ، ولا تزال بالحجرة الشريفة حتى يخرجوها يوم السفر من المدينة ، فيلبسونها المحمل فى طريق عودته الى مصر ، حيث كانت تحفظ كسوة المحمل المزركشة بمخزن فى وزارة المالية ، أما كسوته الخضراء ، فكان يكسى بها سنويا بعد العودة ضريح سيدى (يونس السعدى) بجبانة باب النصر ، وقد اختص مقام هذا الولى بالكسوة الخضراء للمحمل نظرا لأنه كان يخدم المحمل المصرى أثناء حياته .[١٦٩]

ومن المعتقدات الشعبية المصرية أن من يمشى فى موكب المحمل خير ممن يركب ..

قال (عبدالله بن سعد اليافعى) فى ذلك نقلا عن (على بن الموفق) انه قال : « حججت سنة من السنين فى محمل ، فرأيت رجالا يمشون ، فأحببت المشى معهم ، فنزلت وأركبت واحدا فى محملى ومشيت معهم ، فتقدمنا الى البريد ، وعدلنا عن الطريق فنمنا ، فرأيت فى منامى جوارى معهن طشوت ذهب وأباريق فضة يغسلن أرجل المشاة ، فبقيت أنا ، فقالت احداهن لصواحبها : أليس هذا منهم ؟ قلن هذا له محمل ، فقالت : بلى هو منهم ، لأنه أحب المشى معهم ، فغسلن رجلى فذهب عنى كل تعب كنت أجده »[١٧٠]

ومن عادات المحمل المصرى التى لم تكن مذمومة ، بل كانت حميدة عادة ابداء الحجاج الرأى فى أمير محملهم وهم على مشارف القاهرة وقبل دخولها كنوع من الاستفتاء عليه وذلك فى العصر المملوكى والعثمانى ..!

ففى حوادث عام ٨٩٩ هجرية فى شهر المحرم قال (ابن اياس) : « وفيه وصل الحجاج ولم يثنوا عن (قانصوه خمسمائة) خيرا ، ولا حمدت سيرته فى هذه السفرة ، وحكوا عنه أمورا غير صالحة على انه أرمى الناس وأخذ جمالهم ، وترك جماعة منهم بالينبع ، حتى أتوا من البحر المالح فيما بعد ، وشالوا له الحجاج رايات سود وهم داخلون البركة »[١٧١]

وإذا كان الحجاج يرفعون الرايات السود فى وجه أمير محملهم السيىء الطباع فإنهم يرفعون أيضا الرايات البيض فى وجه أمير محملهم الذى يرضون عنه .

وهذا تمام ما ذكره كذلك (ابن اياس) فى حادثتين وقعتا فى سنتى ٩٢١ هجرية و٩٢٧ هجرية ، حيث قال فى الحادثة الأولى : « فلما رجعت الحجاج الى القاهرة أثنوا بكل خير على سيدى (عمر) بن الملك المنصور أمير ركب الأول ، وشالوا له الرايات البيض فى وسط الرملة »[١٧٢] أما فى الحادثة الثانية ، فقد قال عن هؤلاء الحجاج القادمين بعد مشقة : « .. وتعرضت لهم جماعة من العربان فى الطريق فاتّقعوا مع الأمير (جانم) وأمير الحاج ، فانتصر عليهم ، وقتل منهم جماعة ، فرجع الحجاج وهم راضيون عن أمير الحاج (جانم) وأثنوا عنه كل جميل ، وشالوا له الرايات البيض فى بركة الحجاج »[١٧٣]

وحينما كان ينتقل حجاج المحمل المصرى الى الأراضى الحجازية كانوا ينقلون معهم معتقداتهم الشعبية وموروثهم الشعبى ، خاصة ما يتعلق بتصورهم عن الجان وزيارة قبور الأولياء بقصد التبرك ، وعلى الرغم من ذهابهم الى البيت الذى لا بركة من بعده توجد فى بيت آخر تعدله ، وهو بيت الله الحرام .

كان حجاج المحمل المصرى يعتقدون فى بركة ماء فى مدينة الينبع معتقدات شعبية خرافية ، وفى هذه البركة يقول (على باشا مبارك) فى الخطط : « فى كل سنة فى الغالب يقدّر الله تعالى بغرق نفر من الحاج ، أما من المصرى أو من الشامى ، فى الذهاب أو فى الاياب . وقد يتفق الغرق بعد الايذان بالرحيل ، فيقال ان البركة بها سكان من الجان يحصل منهم ذلك ، ويكونون سببا للغرق ، ويقال غير ذلك والله أعلم بحقيقة ذلك »[١٧٤] ولا يعرف من أين انتقل هذا المعتقد الخاطىء الى حجاج المحمل المصرى وهم فى طريقهم الى الاغتسال من كل صنوف الخطايا والذنوب عند بيته المحرم ، وكأنما دخلوا ـ معاذ الله ـ فى علم علّام الغيوب ..!

وفى نفس المنطقة عند واد يسمى (وادى القسطل) بشاطىء البحر كان هناك قبر لشيخ يدعى (مرزوق الكفافى) عليه حظير من الخشب ، وكانت العامة من الحجاج المصريين يقفون عنده ويدفعون لخادمه النذور ، وهذا التصرف فى

حد ذاته يعد عاديا فى عرف المصريين . إذ أن كثيرا ما يحدث مثل ذلك عند أعتاب أضرحة الأولياء فى العديد من الأماكن فى مصر ، على الرغم من سذاجة هذا الموقف ، فإن مثل هذا الأمر لا يهم كثيرا أن نقف عنده ، ولكن الأهم ما كان يحدث من الحجاج المصريين عند ضريح هذا الولى فى منتصف القرن التاسع عشر والربع الأخير منه ، فماذا كان يحدث هناك ؟

يقول (على باشا مبارك) موضحا ذلك : « كان بعض الحجاج من العامة يكسرون عند قبره أوانى الزجاج المملوءة بماء الورد الممسّك ، يحملون ذلك بصحبتهم من القاهرة لذلك ويعتقدون التبرك بمثله »(١٧٥)

لقد كثرت حول ظاهرة المحمل المصرى على امتداد تواجده الزمنى العديد من العادات والتقاليد ، كما كثرت حوله أيضا معتقدات شعبية جانبها الكثير من الصواب ، فبعدت فى ضميمها عن جوهر الدين الاسلامى .

ولم يكن علينا بغريب فى وقت من الأوقات أن يطالب اصحاب الملل الأخرى فى مصر بانشاء محمل لهم أيضا .

وما المانع ؟ الم تكن ظاهرة المحمل المصرى وغيره إلا ظاهرة شعبية وليست دينية ؟

ولكن لأن البعض كان ينظر اليها بمنظار آخر مختلف فقد وُلِدتْ الفكرة وماتت فى مهدها .

يقول (الجبرتى) وهو يتحدث عن حوادث سنة ١١٦٦ هجرية : « ومن الحوادث أيضا فى نحو هذا التاريخ أن نصارى الأقباط قصدوا الحج الى بيت المقدس ، وكان كبيرهم إذ ذاك (نوروز) كاتب (رضوان كتخدا) ، فكلم الشيخ (عبدالله الشبراوى) فى ذلك وقدم له هدية وألف دينار ، فكتب له فتوى وجوابا ملخصه ان اهل الذمة لا يمنعون من دياناتهم وزياراتهم . فلما تم لهم ما أرادوا شرعوا فى قضاء أشغالهم وتشهيل اغراضهم ، وخرجوا فى هيئة وابهة واحمال ومواهى وتختروانات فيها نساؤهم واولادهم ومعهم طبول وزمور ، ونصبوا لهم عرضا عند قبة العزب ، واحضروا العربان ليسيروا فى خفارتهم ، وأعطوهم اموالا وخلعا وكساوى وانعامات . وشاع امر هذه القضية فى البلد ، واستنكرها الناس ، فحضر الشيخ (عبدالله الشبراوى) الى بيت الشيخ (البكرى) كعادته ، وكان (على أفندى) أخو (سيدى بكرى) متمرضا ، فدخل اليه يعوده ، فقال له : « أى شىء هذا الحال يا شيخ الاسلام ؟» ، على سبيل التبكيت ، كيف ترضى وتفتى النصارى وتاذن لهم بهذه الأفعال لكونهم رشوك وهادوك ؟ فقال : « لم يكن ذلك ». قال : « بل رشوك بألف دينار وهدية ، وعلى هذا تصير لهم سُنّة ويخرجون فى العام القابل بازيد من ذلك ، ويصنعون لهم محملا ، ويقال حجُّ النصارى ، وحجُّ المسلمين وتصير سُنّة عليك ، ووزرها الى يوم القيامة » . فقام الشيخ ، وخرج من عنده مغتاظا ، واذن للعامة فى الخروج عليهم ونهب ما معهم ، وخرج كذلك طائفة

من مجاورى الأزهر ، فاجتمعوا عليهم ، ورجموهم ، وضربوهم بالعصى والمساوق ، ونهبوا ما معهم ، وجرّسوهم ، ونهبوا أيضا الكنيسة القريبة من « دمرداش » وانعكس النصارى فى هذه الحادثة عكسة بليغة ، وراح عليهم ، وذهب ما صرفوه وأنفقوه فى الهباء .[١٧٦]

بعد ذلك بنحو نصف قرن نخال (الجبرتى) يضرب كفا بكف وهو يرى النصارى فى موكب كسوة الكعبة المشرفة الذى جرى فى شهر شوال سنة ١٢١٣ هجرية .

قال (الجبرتى) : « وفى ثامنه يوم الجمعة ، نودى فى الأسواق بموكب كسوة الكعبة المشرفة من قرميدان والتنبيه باجتماع الوجاقات وأرباب الأشاير وخلافهم على العادة فى عمل الموكب ، فلما أصبح يوم السبت اجتمع الناس فى الأسواق وطريق المرور ، وجلسوا للفرجة ، فمرّوا بذلك وأمامها الوالى والمحتسب ، وعليهم القفاطين والبينشات وجميع الأشاير بطبولهم وزمورهم وكاساتهم ، ثم (برطلمين كتخدا مستحفظان) وأمامه نفر الينكجرية من المسلمين نحو المائتين أو أكثر ، وعدة كثيرة من نصارى الأروام بالأسلحة والملازمين بالبراقع ، وهو لابس فروة عظيمة ، ثم مواكب القلقات ، ثم موكب ناظر الكسوة ، وهو تابع (مصطفى كتخدا الباشا) ، وخلفه النوبة التركية ، فكانت هذه الركبة من أغرب المواكب وأعجب العجائب لما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال ، وتنوع الأمثال ، واجتماع الملل ، وارتفاع السِفَل ، وكثرة الحشرات ، وعجائب المخلوقات ، واجتماع الأضداد ، ومخالفة الوضع المعتاد »[١٧٧]

وكان للمحمل المصرى فداء يسمى (فداء المحمل) وهى ظاهرة امتزجت فيها العديد من الخرافات الشعبية وشكلت أمورا غريبة وعجيبة .

فقد كان يحدث هذا الفداء عند مقام الشيخ (سيدى سعيد) الموجود بمنطقة السبتية بالقاهرة ، فكان من المعتاد عند قدوم المحمل المصرى من الحج أن ترسل الحكومة جملا فداء عن جمل المحمل ، وكان الناس بدل أن ينتظروا نحره ليوزع عليهم لحمه يقطعونه بالمدى وهو حى ، « وكانوا يبيعون لحمه الى الناس على سبيل البركة مدّعين ان لحمه ينفع للصداع وشحمه للبواسير » !!.[١٧٨]

إن المحمل المصرى الذى توقفت مظاهره الاحتفالية الرسمية منذ أوائل منتصف القرن العشرين مازالت بقاياه الاحتفالية بموروثاتها تعيش داخل بعض الجماعات الشعبية المصرية الى الآن . وليس أدل على ذلك سوى الاحتفال السنوى الذى يقام الى الآن فى مدينة منفلوط بمحافظة أسيوط صباح يوم الأول من أيام عيد الفطر ، حيث يجوب الأهالى فى المدينة هناك أرجاء بلدهم خلف نموذج مصغر من المحمل لازالوا الى الآن يحتفظون به .[١٧٩]

وش فى خلقه شئون .. !!

الهوامش والمراجع

(١) اللواء / ابراهيم رفعت باشا ـ « مراة الحرمين » ص ٣٠٤ جـ ٢ .

(٢) محمد لبيب البتنونى ـ « الرحلة الحجازية » ص ١٤٠ .

(٣) النويرى ـ « نهاية الأرب » ص ١٣٥ ، ٢١٩ ، ٣٣٤ جـ ٢١ .

(٤) القزوينى ـ « عجائب المخلوقات » ـ ص ٢٦٨ جـ ٦ ـ كتاب التحرير رقم ١٣١ ـ دار التحرير للطبع والنشر :

(٥) محمد لبيب البتنونى « الرحلة الحجازية » ـ ص ١٤٠ .

(٦) الحريرى « مقامات الحريرى » ـ ص ٣٢٤ ـ المكتبة الشعبية ببيروت ـ بدون تاريخ .

(٧) د . ثروت عكاشة ـ « فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى » ص ٧١ ـ دار المعارف ١٩٧٤ ، ويلاحظ وعلى وصف الأستاذ الدكتور (ثروت عكاشة) ان وصف الهودج بانه (هودج النساء) هو وصف ـ فى راينا ـ غير دقيق ، لأن ما يتقدم من ركب المحمل مع قائد القافلة هو هودج المحمل نفسه ، وهو الهيكل الخشبى ذو الكسوة المزركشة ، وهو للاشعار فقط ولا يركبه احد .

(٨) عبدالقادر الأنصارى الجزيرى ـ « درر الفرائد المنظمة » ص ٢٨٧ .

(٩) الفاسى ـ « شفاء الغرام » ص ٢٤٢ جـ ٢ ، عبدالقادر الأنصارى الجزيرى ـ « درر الفرائد » ـ ٢٨٨ .

(١٠) عبدالقادر الانصارى الجزيرى ـ « درر الفرائد » ص ٢٩٣ .

(١١) ابن اياس « بدائع الزهور » ص ٦٨٦ جـ ١ ق ٢ .

(١٢) رسلان بن يحيى القارى ـ « الوزراء الذين حكموا دمشق » وهو أحد جزءين فى كتاب « ولاة دمشق فى العهد العثمانى » ص ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٣ دمشق ١٩٤٩ .

(١٣) المرجع السابق ـ ص ٩٣ .

(١٤) المرجع السابق ـ ص ٢٤ .

(١٥) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد » ـ ص ٣١٣ ، الشيخ احمد الرشيدى ـ « حسن الصفا والابتهاج » ـ ص ١٣٧

(١٦) المرجع السابق ـ ص ٣٤٢ .

(١٧) الفاسى ـ « شفاء الغرام » ـ ص ٢٥١ جـ ٢ .

(١٨) عبدالقادر الانصارى الجزيرى ـ « درر الفرائد » ـ ص ٢٣٤ .

(١٩) المرجع السابق ـ ص ٢٩٤ .

(٢٠) المرجع السابق ـ ص ٣٤١ .

(٢١) (سيد عبدالمجيد بكر) ـ « الملامح الجغرافية لدروب الحجيج » ـ ص ١٨٢ ـ ٢١١ سلسلة الكتاب الجامعى رقم ٦ ـ دار تهامة ـ جدة ١٩٨١ .

(٢٢) المرجع السابق ص ١٩٣ .
(٢٣) ولاة دمشق ص ١١٠ .
(٢٤) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٧٨ ج ٢ .
(٢٥) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد » ص ٤٥٧ .
(٢٦) النابلسى « الحقيقة والمجاز » ص ٤٣٨ .
(٢٧) المرجع السابق ص ٤٨٢ .
(٢٨) المرجع السابق ص ٤٨٣ .
(٢٩) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٧٨ ج ٢ .
(٣٠) ابن جبير « رحلة ابن جبير » ص ٢٠٠ .
(٣١) رسلان بن يحيي القارى « الوزراء الذين حكموا دمشق » ص ٧٧ من كتاب ولاة دمشق .
(٣٢) سيد عبدالمجيد بكر « الملامح الجغرافية لدروب الحجيج » ص ١٨٠ .
(٣٣) ابن اياس « بدائع الزهور » ص ٨٩ ج ٤ .
(٣٤) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ٣١٠ .
(٣٥) المرجع السابق ص ٢٩٨ .
(٣٦) الفاسى « شفاء الغرام .. » ص ٢٢٢ ج ٢ .
(٣٧) ابن جبير « رحلة ابن جبير » ص ١٣٢ .
(٣٨) المرجع السابق ص ١٦٩ .
(٣٩) المرجع السابق ص ١٦٩ .
(٤٠) المرجع السابق ص ١٣٧ .
(٤١) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ٢٥٨ .
(٤٢) المرجع السابق ص ٣٠٤ .
(٤٣) المرجع السابق ص ٣٤٣ .
(٤٤) المرجع السابق ص ٣٣٧ .
(٤٥) المرجع السابق ص ٣٣٧ .
(٤٦) ابن اياس « بدائع الزهور » ص ٨٨ ج ٣ .
(٤٧) الفاسى « شفاء الغرام .. » ص ٢٤٥ ج ٢ .
(٤٨) المقريزى « كتاب السلوك » ص ١١٦٦ ج ٣ ق ٣ ، ابن اياس « بدائع الزهور » ص ٧٢٣ ج ١ ق ٢ .
(٤٩) قطب الدين محمد النهرواني « البرق اليماني في الفتح العثماني » ص ١٢١ إشراف حمد الجاسر . منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر . الرياض / المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى ١٩٦٧ .
(٥٠) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مرآة الحرمين » ص ٣٠٥ ج ٢ .
(٥١) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ٤٤٨ .
(٥٢) الفاسى « شفاء الغرام .. » ص ٢٥١ ج ٢ .
(٥٣) عبدالقادر الانصارى الجزيرى « درر الفرائد » ص ٣١٢ .
(٥٤) المرجع السابق ص ٢٨٨ .
(٥٥) المرجع السابق ص ٤٦٩ .
(٥٦) الفاسى « شفاء الغرام .. » ص ٢٣٥ ج ٢ .

(٥٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٥٣٦ ح ١ ق ١ ، ٥٣٧ ح ١ ق ١ ؛ الفاسى ، شفاء الغرام ، ص ٢٤٧ ح ٢ .
(٥٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٢٣٨ ح ١ ق ٢ .
(٥٩) المرجع السابق ص ٩٥ ح ٤ .
(٦٠) العصامى المكى ، صمت النجوم العوالى ، ص ١٨٣ ح ٤ .
(٦١) د . ابراهيم شحاتة حسن ، اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٣٠٨ منشاة المعارف بالاسكندرية ١٩٨١ .
(٦٢) المرجع السابق ص ٣٠٩ .
(٦٣) الجبرتى . ، عجائب الآثار ، ص ٢٦٩ ح ٢ .
(٦٤) د . يونان لبيب رزق ومحمد مزين ، تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، ص ٦٨ سلسلة تاريخ المصريين (٣٤) . الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٠ .
(٦٥) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ص ٥٥١ ح ٢ .
(٦٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٤٧٢ ح ١ ق ١ .
(٦٧) عبدالقادر الانصارى الجزيرى ، درر الفرائد المنظمة ، ص ٣٠٦ .
(٦٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٦٢٤ ح ١ ق ٢ .
(٦٩) المرجع السابق ص ٨٣ ح ٣ .
(٧٠) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ص ٣٣٥ ح ٣ .
(٧١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٣٤١ ح ١ ق ٢ .
(٧٢) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ص ٥١ ح ١ .
(٧٣) المرجع السابق ص ٥٥ ح ٢ .
(٧٤) د . يونان لبيب رزق ومحمد مزين ، تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، ص ٥٧ .
(٧٥) المرجع السابق ص ٢٢٠ .
(٧٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٢١١ ح ٣ ، كلوت بك . ، لمحة عامة الى مصر ، ص ٧٤ ح ٤ ؛ د . يونان لبيب رزق ومحمد مزين ، تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، ص ٨٣ .
(٧٧) المقريزى ، الذهب المسبوك ، ص ١١٠ .
(٧٨) المرجع السابق ص ١١١ .
(٧٩) الفاسى ، شفاء الغرام .. ، ص ٢٤٤ ح ٢ .
(٨٠) المقريزى ، الذهب المسبوك ، ص ١١٢ .
(٨١) عبدالقادر الانصارى الجزيرى ، درر الفرائد المنظمة ، ص ٣٠٠ .
(٨٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ص ٢٩٦ ح ٥ ؛ المقريزى ، الذهب المسبوك ، هامش ص ١١٣ .
(٨٣) عبدالقادر الانصارى الجزيرى ، درر الفرائد المنظمة ، ص ٣٢٠ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ،ص ٢٩ ح ٢ .
(٨٤) عبدالقادر الانصارى الجزيرى ، درر الفرائد المنظمة ، ص ٣٣٢ .
(٨٥) المرجع السابق ص ٣٠٩ ، ص ٣١٣ .
(٨٦) العصامى المكى ، صمت النجوم العوالى ، ص ٥٦٥ ح ٤ .
(٨٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٣٥٣ ح ١ ق ٢ ، ٣٧٤ ح ١ ق ٢ ، ص ٦٣٣ ح ١ ق ٢ .

(٨٨) المرجع السابق ص ١٦٨ ح ٤ .
(٨٩) اللواء / ابراهيم رفعت باشا ، مراة الحرمين ، ص ٣٠٥ ح ٢ ، وقد ذكر هذه المعلومة كذلك سيد عبدالمجيد بكر فى كتابه ، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ١٨٠ .
(٩٠) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٢١٢ ح ٥ .
(٩١) المرجع السابق ص ٢١٩ ح ٥ .
(٩٢) السنجارى المكى . ورقة ٥٠ ح ٢ . مخطوطة من مكتبة الحرم المكى .
(٩٣) د . حسين مجيب المصرى ، معجم الدولة العثمانية ، ص ٣٠٦ . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٩ .
(٩٤) سيد عبدالمجيد بكر ، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ١٨٠ .
(٩٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٣٣٨ ح ١ ق ٢ ، صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق فى العصر العثمانى ، ص ١ ، ص ٥٣ .
(٩٦) سيد عبدالمجيد بكر ، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ص ١٨٠ .
(٩٧) نعوم شقير ، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها ، ص ٢٦٣ . الناشر د . بنايوتى . ف . خريستوبولس . اثينا ١٩٨٥ ؛ اللواء ابراهيم رفعت باشا ، مراة الحرمين ، ص ٣٠٦ ح ٢ .
(٩٨) المقريزى ، الذهب المسبوك ، ص ١١ .
(٩٩) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٣٣١ ح ١ ق ١ .
(١٠٠) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ص ٣٠ ح ١ .
(١٠١) المقريزى ، خطط المقريزى ، ص ٦٢٢ ح ١ .
(١٠٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ١٧٩ ح ١ ق ١ .
(١٠٣) عبدالقادر الأنصارى الجزيرى ، درر الفرائد المنظمة ، ص ٨٩ .
(١٠٤) المرجع السابق ص ١١٢ ؛ اللواء / ابراهيم رفعت باشا ، مراة الحرمين ، ص ٣٣٣ ح ٢ .
(١٠٥) عبدالقادر الأنصارى الجزيرى ، درر الفرائد ، ص ١١٥ .
(١٠٦) المرجع السابق ص ١٢٤ .
(١٠٧) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ص ٤٤٣ ح ١٢ .
(١٠٨) عبدالقادر الأنصارى الجزيرى ، درر الفرائد المنظمة ، ص ١٢٥ .
(١٠٩) علماء الحملة الفرنسية ، وصف مصر ، - ص ٢٤٣ جـ ٥ .
(١١٠) إدوارد وليم لين ، المصريون المحدثون ، ص ٣٦٥ .
(١١١) المرجع السابق ص ٣٦٩ .
(١١٢) ابراهيم حلمى ، كسوة الكعبة الشريفة ، بمجلة الفنون الشعبية ص ٩٨ العدد (٢٩) اكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٨٩ .
(١١٣) صفوت كمال ، مدخل لدراسة الفولكلور الكويتى ، ص ٢٠٨ . وزارة الإعلام - الكويت - الطبعة الثانية ١٩٧٣ .
(١١٤) احمد تيمور باشا ، الأمثال العامية ، ص ٤١٢ ، ٥١٤ .
(١١٥) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٨ ح ١ - دار التحرير - كتاب التحرير رقم (١٦٦) .
(١١٦) الخطيب الجوهرى ، نزهة النفوس والأبدان ، ص ٣٤٦ ح ٣ .
(١١٧) المقريزى ، كتاب السلوك ، ص ٨٥١ ح ٢ ق ٣ .

(١١٨) المقريزى « كتاب السلوك » ص ٢١٤ ح ٢ ق ١ ، ص ٢٥٠ ح ٢ ق ٣ ، ص ٦٩٦ ح ٣ ق ٢ ، ص ٨٣٣ ح ٤ ق ٢ .
(١١٩) المقريزى « كتاب السلوك » ص ٦١٤ ح ٤ ق ٢ .
(١٢٠) المرجع السابق ص ٨٣١ ح ٤ ق ٢ .
(١٢١) ابن اياس « بدائع الزهور » ص ٢٨٨ ح ٤ .
(١٢٢) عبدالقادر الأنصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ٢٨١ .
(١٢٣) ابن اياس « بدائع الزهور » ص٣٣١ ح ١ ق ١ .
(١٢٤) المرجع السابق ص ٤٢١ ح ١ ق ١ .
(١٢٥) المرجع السابق ص ٤٤٣ ح ١ ق ١ .
(١٢٦) المرجع السابق ص ٤٥٢ ح ١ ق ١ .
(١٢٧) المرجع السابق ص ٤٦٣ ح ١ ق ١ .
(١٢٨) المرجع السابق ص ٤٠٩ ح ٤ .
(١٢٩) المرجع السابق ص ٤٤١ ح ٤ .
(١٣٠) المرجع السابق ص ٣٣٦ ح ١ ق ١ .
(١٣١) المرجع السابق ص ٥١٤ ح ١ ق ٢ .
(١٢٣) المرجع السابق ص ٢٩٠ ح ق ٢ .
(١٣٣) المرجع السابق ص ٣١٤ ح ٢ ، ٣٢٠ ح ٢ ، ص ٣٩٣ ح ٢ ، ٤٠٤ ح ٢ ، ص ٥٩ ح ٤ .
(١٣٤) المرجع السابق ص ٥٩ ح ٤ .
(١٣٥) المرجع السابق ص ٦١ ح ٤ .
(١٣٦) جاسنون فييت « القاهرة مدينة الفن والتجارة » ص ١٢٦ . ترجمة د . مصطفى العبادى . كتاب اليوم . العدد (٣٠٨) مايو ١٩٩٠ .
(١٣٧) محمد قنديل البقلى « صور من ادبنا الشعبى » ص ١٤٩ . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢ .
(١٣٨) ابن اياس « بدائع الزهور » ص ١٩٢ ح ١ ق ٢ .
(١٣٩) المرجع السابق ص ٢٥٤ ح ٤ .
(١٤٠) المقريزى « كتاب السلوك » ص ٤٩٧ ح ٣ ق ٢ .
(١٤١) الجبرتى « عجائب الآثار » ص ٦٣٨ ح ١ .
(١٤٢) المرجع السابق ص ٢٩١ ح ٢ .
(١٤٣) المرجع السابق ص ٤٦٧ ح ٣ .
(١٤٤) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مراة الحرمين » ص ١٥٤ ح ٢ .
(جيرار دى نرفال « رحلة الى الشرق » ص ٢٢٢ ح ١ . ترجمة د . كوثر عبدالسلام . الدار المصرية للتاليف والترجمة ١٩٦٦ .
(١٤٦) مصطبة المحمل موقعها امام محطة سكك حديد القلعة سابقا ، والمقام مكانها سنترال القلعة ، بالاضافة الى مبان اخرى مجاورة ، مثل مبنى الحزب الوطنى للخليفة ، ومبرة مصطفى كامل ، ومدرسة السيدة عائشة والساحة الشعبية وحتى خزان مياه السيدة عائشة وحديقته .
(١٤٧) اللواء / ابراهيم رفعت باشا ، « مراة الحرمين » ص ٩ ح ١ .
(١٤٨) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مراة الحرمين » ص ١٣ ح ١ .
(١٤٩) ادوارد وليم لين « المصريون المحدثون » ص ٣٧١ .
(١٥٠) جيرار دى نرفال « رحلة الى الشرق » ص ٢٢٤ ح ١ .

(١٥١) محمد لبيب البتنوني « الرحلة الحجازية » ص ١٤٤ .
(١٥٢) ابن تغرى بردى « النجوم الزاهرة » ص ٢٤٥ ج ١١ . المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر . بدون تاريخ .
(١٥٣) محمد لبيب البتنوني « الرحلة الحجازية » ص ١٤٤ .
(١٥٤) المقريزى « كتاب السلوك » ص ١١٩٣ ج ٤ ق ٣ .
(١٥٥) عبدالقادر الأنصارى الجزيرى « درر الفرائد المنظمة » ص ٥٣٣ .
(١٥٦) احمد أمين « قاموس العادات والتقاليد » ص ٣٦٠ . مكتبة النهضة المصرية . الطبعة الثانية .
(١٥٧) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مراة الحرمين »ص ١١ ج ١ .
(١٥٨) هذا راى للأستاذ (محمد مصطفى ناجى) مدير ادارة الكسوة الشريفة السابق . وقد ادلى لى به فى حديث له معى فى بيته بالمهندسين بالقاهرة فى ١٩٨٨/٨/٥ .
(١٥٩) أحمد أمين « قاموس العادات والتقاليد » ص ٣٦٠ .
(١٦٠) روى لنا هذه الحادثة الأستاذ (كامل يوسف اصيل) بدار الكسوة الشريفة يوم ١٩٨٨/٨/٣ بالقاهرة .
(١٦١) روى لنا ذلك الأستاذ (محمد مصطفى ناجى) مدير ادارة الكسوة السابق .
(١٦٢) الجبرتى « عجائب الآثار » ص ٥١ ج ١ .
(١٦٣) د . يونان لبيب رزق ، ومحمد مزين « تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ » ص ٥٧ سلسلة تاريخ المصريين رقم (٣٤) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ .
(١٦٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(١٦٥) ادوارد وليم لين « المصريون المحدثون » ص ٣٧٢ .
(١٦٦) محمد لبيب البتنوني « الرحلة الحجازية » ص ١٤٥ .
(١٦٧) ادوارد وليم لين « المصريون المحدثون » ص ٣٧٠ ، ٤٠٧ .
(١٦٨) اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مراة الحرمين » ص ٣٣٥ ج ٢ .
(١٦٩) محمد لبيب البتنوني « الرحلة الحجازية » ص ١٤٢ .
(١٧٠) عبدالله بن أسعد اليافعى « روض الرياحين فى حكايات الصالحين » ص ١٣٥ . مؤسسة عماد الدين . قبرص . بدون تاريخ .
(١٧١) ابن اياس « بدائع الزهور » ص ٢٩٧ ج ٣ .
(١٧٢) المرجع السابق ص ٤٤١ ج ٤ .
(١٧٣) المرجع السابق ص ٣٧٩ ج ٥ .
(١٧٤) على باشا مبارك « الخطط التوفيقية » ص ٣٣ ج ١٤ . الطبعة الأولى . مطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر ١٣٠٥ هجرية .
(١٧٥) المرجع السابق ص ٣٠ ج ١٤ .
(١٧٦) الجبرتى « عجائب الآثار » ص ٢٧٨ ج ١ .
(١٧٧) المرجع السابق ص ٢٥٨ ج ٢ .
(١٧٨) محمد لبيب البتنوني « الرحلة الحجازية » ص ١٤٥ ، اللواء / ابراهيم رفعت باشا « مراة الحرمين » ص ١٤٣ ج ٢ .
(١٧٩) وداد حامد . مقالة بمجلة الهلال ص ٦٦ . عدد اغسطس ١٩٨٨ . دار الهلال بالقاهرة .

□ □ □



فنون الأغانى والموسيقى الشعبية فى موكب قوافل الحج

نبعت حاجة الإنسان إلى الموسيقا والكلمة المنغَّمة من اجل السمو بالأحاسيس والمشاعر كهدف عام متسع ، وقد ينحصر هذا الهدف فى دائرة ضيقة مجالها التسرية والتسلية إذا ما واجه الإنسان بعض المشاق أو الصعاب فى رحلته اليومية .

وفى عالم العقائد كان للموسيقا أهمية كبرى ، تتبدى إيجابيا وسلبيا فى آن واحد ، فمن العقائد ـ كما يقول الدكتور (فؤاد زكريا) ـ ما كانت تستعين بالموسيقا فى بث الإيمان بها فى نفوس الناس .[1]

وسواء اكان الهدف من الأغانى والموسيقى هو السمو بالأحاسيس والمشاعر ، او التسرية والتسلية ، أو بث الايمان فى النفوس ، فإنهما فى أى حالة من هذه الحالات كانتا ضروريتين من ضرورات النوازع البشرية فى رحلة الاغتسال من الذنوب عند الذهاب إلى بيت الله الحرام أو عند المجىء منه وحط الرجال .

ولقد نشأ منذ القدم فن فى الغناء العربى استوجبته وحشة الطريق ، عبر رمال مفاوز الصحراء . هذا الفن العربى الغنائى القديم هو فن « الحُداء » ، حيث كان الانسان العربى فى سالف العصور يمتطى جمله ، أو يسير به فى رفقة طريق شاق ، ولا يجد أمامه وسيلة لتقليل النصب والمشاق سوى فى نغمات منداحة ، تطوف معه الآفاق الممتدة الأطراف حاديا أو شاديا بها للجمل الذى يمتطيه أو يلازمه المسير وكذلك لنفسه .

يقول (الدكتور حسين نصار) عن فن الحُداء : « إذا كنا لانزال نرى راكب الجمل أو الناقة يشغل وقته فى رحلته متغنيا ، فنحن على يقين أن هذا الراكب كان يفعل ذلك منذ ركب فى التاريخ . فالحُداء ـ فيما يقال ـ اقدم أنواع الشعر والغناء التى توصل إليها العربى » .[2]

وقيل إن أول من توصل إلى فن « الحُداء » هو (مضر بن نزار) ، وذلك أنه سقط من بعير له فاندقت يده وتفرقت إبله ، فجعل يقول : « يايداه يايداه » . وكان حلقه حسن الصوت فاجتمعت إبله ، فحدت العرب على هذا المثال .[3]

ولقد ورث الاسلام هذا الميراث العربى القديم لفن « الحُداء » ، ولأنه رآه لازما لحياة الانسان العربى ابن البادية العربية فقد تعهده بالرعاية والاهتمام فى كل مناسبة يعن له إبراز تلك الرعاية وذاك الاهتمام .

ومما يذكر فى هذا الشأن أن الرسول المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ طلب مداحه (حسان بن ثابت) فى سفر له لكى يحدو ، فجعل ينشر ويصغى إليه رسول

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويستمع ، فمازال يسمع إليه وهو سائق راحلته حتى كاد رأس راحلته يمس الورك ، حتى فرغ من نشيده . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : لهذا أشدُّ عليهمْ من وقع النبل .(٤)

وحقيقة إن الابل تنسى نفسها مع أغاني ونغمات الحادى ، حتى يكاد أن يقتلها جهد المسير المضنى ، ولذا طلب الرسول الكريم الرحمة للابل ، خوفا من استمرار سماعها لحدو الحادى لها فى الصحراء القفار فينسيها ذلك ألم المسير ذى النصب والتعب الشديدين عليها .

وقيل ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين دخل مكة فى العمرة ، التى قام بها بعد صلح الحديبية بعام ، دخلها و (عبدالله بن رواحة) آخذا بخطام ناقته ، وهو يقول :(٥)

خلوا بنى الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير فى رسوله
يارب إنى مؤمن بقيله
أعرف حق الله فى قبوله

ولم يكن غريبا على الحضارة العربية أن ينبغ فيها المغنون القدماء ، الذين كانوا يغنون فى طرق قوافل الحج الاسلامية ، سواء عن طريق نغمات الحداء أو عن طريق نغمات شعرية أخرى عرفها الانسان العربى ابن حضارة البوادى والمدن .

ولعل أشهر ما اشتهر من هؤلاء المغنين العرب كان (عبيد بن سريج) مولى بنى نوفل بن عبدمناف ، والذى ولد فى خلافة (عمر بن الخطاب) وتوفى فى خلافة (هشام بن عبدالملك) وقت الدولة الأموية ، وكذلك (حنين بن بلوع الحادى) فى أوائل المائة الثانية من العام الهجرى و (سالم الحادى) ، و (أبو المحكم عوف) و (مخارق بن يحيى الجزار) مولى الرشيد فى عصر الدولة العباسية .

كان أولهم (عبيد بن سريج) يصاحب الشاعر (عمر بن أبى ربيعة) ، ويغنى له وللآخرين بعض أشعاره . وذات مرة قال (عمر بن أبى ربيعة) له : يا أبا يحيى ، إنى تفكرت فى رجوعنا مع العشية إلى مكة مع كثرة الزحام والغبار وجلبة الحاج فثقل علىّ ، فهل لك أن نروح رواحا طيبا معتزلا ، فنرى فيه من راح صادرا إلى المدينة من أهلها ونرى أهل العراق وأهل الشام ونتعلل فى عشيتنا وليلتنا ونستريح ، قال : وأين ذلك يا أبا الخطاب ؟ ! قال : على كثيب أبى شجوة المشرف على بطن يأجج بين منى وسرف ، فنبصر مرور الحاج بنا ونراهم ولا يرونا . قال (ابن سريج) : طيب والله ياسيدى ، فدعا بعض خدمه فقال : اذهبوا إلى الدار بمكة ، فاعملوا لنا سفرة واحملوها مع شراب إلى الكثيب ، حتى إذا أبردنا ورمينا الجمرة صرنا إليكم . قال : والكثيب على خمسة أميال من مكة مشرف على طريق المدينة وطريق الشام وطريق العراق ، وهو كثيب شامخ مستدق

أعلاه منفرد عن الكثبان ـ فصارا إليه فأكلا وشربا ، فلما انتشيا أخذ (ابن سريج) الدف فنقره وجعل يغنى وهم ينظرون إلى الحاج ، فلما أمسيا رفع (ابن سريج) صوته يغنى في الشعر الذى قاله عمر ، فسمعه الركبان فجعلوا يصيحون به : ياصاحب الصوت . أما تتقى الله ! قد حبست الناس عن مناسكهم ! فيسكت قليلا ، حتى إذا مضوا رفع صوته وقد أخذ فيه الشراب فيقف آخرون ، إلى ان مرت قطعة من الليل ، فوقف عليه في الليل رجل على فرس عتيق عربى مرح مستن ، فهو كأنه ثمل ، حتى وقف بأصل الكثيب وثنى رجله على قربوس سرجه ، ثم نادى : ياصاحب الصوت ، أيسهل عليك أن ترد شيئا مما سمعته ؟ قال : نعم ونعمة عين ، فأيها تريد ؟ قال : تعيد علىّ :

الا ياغراب البين مالك كلما	نعبت بفقدان علىّ تحوم
أبا البين من عفراء أنت مخبرى	عدمتك من طير فأنت مشوم

قال : والغناء لابن سريج ـ فأعاده ، ثم قال له (ابن سريج) : أزدد إن شئت ، فقال : غننى :

أمسلم إنى يابن كل خليفة	ويافارس الهيجا وياقمر الأرض
شكرتك إن الشكر حبل من التقى	وما كل من أقرضته نعمة يقضى
ونوهت لى بإسمى وما كان خاملا	ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

فغناه ، فقال له : الثالث ولا أستزيدك ، فقال : قل ما شئت ، فقال : تغنينى :

يادار أقوت بالجزع فالكثب	بين مسيل العذيب فالرحب
لم تتقنع بفضل مئزرها	دعد ولم تسق دعد في القلب

فغناه ، فقال له (ابن سريج) : أبقيت لك حاجة ؟ قال : نعم ، تنزل إلىّ لأخاطبك شفاها بما أريد ، فقال له (عمر) : أنزل إليه ، فنزل ، فقال له : لولا أنى أريد وداع الكعبة وقد تقدمنى ثقلى وغلمانى لأطلت المقام معك ولنزلت عندكم ، ولكنى أخاف أن يفضحنى الصبح ، ولو كان ثقلى معى لما رضيت لك بالهوينى ، ولكن خذ حُلتى هذه وخاتمى ولا تخدع عنهما ، فإن شراءهما ألف وخمسمائة دينار .[٦]

وسُمع غناء (ابن سريج) ذات مرة عند جبل بمنى غداة النفر والارتحال وهو ينشد :[٧]

جددى الوصل ياقريب وجودى	لمحب فراقه قد ألمّا
ليس بين الحياة والموت إلا	ان يردُّوا جمالهم فتزما

قيل : إن كل مضرب وخباء سمع الغناء صار يرسف في الحنين والأنين .. ! أما المغنى العربى (حنين بن بلوع الحيرى) فقد عمر طويلا غناءه بين العرب ، حيث قد وصل من العمر نحو مائة وسبع سنين عاشها بينهم ومات .

ومما يروى عنه (أبوالفرج الأصفهانى) أن قال : « حج (هشام بن عبدالملك) وعديله ـ شخص يوضع في الجنب الآخر للمحمل ليتوازن الحمل

فوق ظهر الجمل - (الأبرش الكلبى) ، فوقف له (حنين) بظهر الكوفة ومعه عوده وزامر له ، وعليه قُلنسية طويلة ، فلما مر به (هشام) عرض له ، فقال : من هذا ؟ فقيل : حنين ، فأمر به فحمل فى محمل على جمل وعديله زامره ، وسير به أمامه وهويتغنى :

أمن سلمى بظهر الكو ... فة الآيات والطلل
يلوح كما تلوح على ... جفون الصَّيقل الخِلَل

فأمر له (هشام) بمائتى دينار ، وللزامر بمائة ، وقيل : إنه غنى هشاما :

صاح هل أبصرت بالخيـ ... ـتين من أسماء نارا
موهنا شُبَّت لعينيـ ... ـك ولم توقد نهارا
كتلالى البرق فى المز ... ن إذا البرق استطارا
أذكرتنى الوصل من سعـ ... ـدى وأياما قصارا

فلم يزل هشام يستعيده حتى نزل من النجف ، فأمر له بمائتى دينار . وقيل ذات مرة لحنين : أنت تغنىَ منذ نحو خمسين سنة ما تركت بكريم مالا ولا دارا ولا عقارا إلا أتيت عليه ! ، فقال : بابى أنتم ، إنما هى أنفاس أقسمها بين الناس ، أفتلومونني أن أغلى بها الثمن !

وخلال موسم الحج ، والناس تشترى وتبيع برز شيخ أبيض الراس واللحية على بغلة شهباء ، فقال يسأل : أين بيت أبى موسى ؟ فدلوه إليه ، فمضى حتى انتهى إلى الظل من بيت أبى موسى ، ثم راح يغنى

أسعديني بدمعة أسراب ... من دموع كثيرة التسكاب
إن أهل الحصاب قد تركونى ... مغرما مولعا بأهل الحصاب
فارقونى وقد علمت يقينا ... ما لمن ذاق ميته من إياب
سكنوا الجزع بيت أبى مو ... سى إلى النخل من صفى الشباب[9]
كم بذاك الحجون من حى صدق ... وكهول أعفة وشباب
أهل بيت تتابعوا للمنايا ... ما على الموت بعدهم من عتاب
فلى الويل بعدهم وعليهم ... صرت فردا وملنى أصحابى

ثم صرف الرجل بغلته وذهب ، فتبعه بعضهم حتى أدركوه ، فسألوه من هو ، فقال : أنا حنين بن بلوع ، وأنا رجل جمال أكرى الإبل ، ثم مضى .[10]

وفى عصر الدولة العباسية ذكر الرواة أن (أباجعفر المنصور) الخليفة العباسى حدا به فى بعض حجاته (سالم الحادى) ، وكان ينشده فى طريقه قائلا :

أبلج بين حاجبيه نوره ... إذا تغدى رفعت ستوره
يزينه حياؤه وخيره ... ومسكه يشوبه كافوره

فطرب الخليفة العباسى (أبوجعفر المنصور) حتى ضرب برجله المحمل ، ثم قال لأحد رجاله ويدعى (ربيع) : ياربيع أعطه نصف درهم ، فقال (سالم) . لا غير ياأمير المؤمنين ؟ والله لقد حدوت بهشام بن عبدالملك بن مروان فأمر لى

بثلاثين الف درهم ، فقال له (المنصور) : ما كان له أن يعطيك من بيت مال المسلمين ما ذكرت ، ثم التفت الخليفة العباسى إلى (ربيع) وقال له : ياربيع . وكل به من يستخرج هذا المال منه ! . قال (ربيع) : فمازلت أسفر بينهما حتى شرط عليه أن يحدو به فى خروجه وقفوله بغير مؤونة ، وكان (سالم) هذا تورد له الابل بعد الثمان والتسع والعشر من المسافات المقننة لها للراحة ، فيحدو لها ، فيلهيها حدوه عن ورود الماء .[11]

وروى (أبوالمحكم عوف بن الحكم الشيبانى) فقال : « كانت لى وفادة على (عبدالله بن طاهر) إلى خراسان ، فصادفته يريد المسير إلى الحج ، فعادلته فى العمارية من مرور إلى الرى ، فلما قاربنا الرى سمع (عبدالله بن طاهر) ورشانا فى بعض الأغصان يصيح ، فانشد (عبدالله) يقول :

الا يـاحـمـام الأيـك إلفـك حـاضـر
وغصنـك ميـاس ففيـم تنـوح

افـق لا تنـح مـن غـيـر شـىء فـإننـى
بكيـت زمـانـا والفـوائـد صحيـح

ولـوعـا فشـطـت غـربـة دار زينـب
فـهـا أنـا أبكـى والفـؤاد جـريـح

ثم قال : ياعوف أَجِزْ هذا ، فقال (عوف) فى الحال :

أفـى كـل عـام غـربـة ونـزوح
أمـا للنـوى مـن ونيـة فتـريـح

لقـد طلـح البيـن المشـت ركـائبـى
فـهـل أريـن البـيـن وهـو طليـح

وارقنـى بـالـرى نـوح حـمـامـة
فنـحـت وذو الشجـو القـديـم ينـوح

عـلى انـهـا نـاحـت ولـم تـذر دمـعـة
ونحـت وأسـراب الـدمـوع سـفـوح

ونـاحـت وفـرخـاهـا بحيـث تـراهـمـا
ومـن دون أفـراخـى مـهـامـه فيـح

عسـى جـود عبـدالله أن يـعـكـس النـوى
فتضحـى عصـا الأسـفـار وهـى طـريـح

فـإن الفتـى يـدنـى الفتـى من صـديقـه
وعـدم الفتـى بـالمقتـريـن نـزوح

قال : فاخرج رأسه من العمارية ، وقال : ياسائق . ألق الزمام ، فالقاه . فوقف ووقف الحاج ، ثم دعا صاحب بيت ماله ، فقال له : كم يضم ملكنا فى هذا الوقت ؟ فقال : ستين ألف دينار . فقال : إدفعها إلى (عوف) . ثم قال : ياعوف ، لقد

ألقيت عصا منظومك فارجع من حيث جئت ، قال : فاقبل خاصة (عبدالله) عليه يلومونه ، ويقولون : أتجيز أيها الأمير شاعرا فى مثل هذا الموضع بستين ألف دينار ولا تملك سواها ؟ فقال : إليكم عنى ، فإنى استحييت من الكرم أن يسير جملى و (عوف) يقول « عسى جود عبدالله » وفى ملكى شىء لا ينفرد به . ورجع (عوف) إلى وطنه ، فسئل عن حاله ، فقال ، رجعت من عند عبدالله بالغنى ، والراحة من النوى .[١٢]

وكان من أشهر المغنين (مخارق بن يحيى الجزار) ، والذى وصفه الشاعر العربى الزاهد (أبوالعتاهية) حين سمع الغناء من حنجرته بقوله : « يادواء المجانين . لقد رفقت حتى كدت أحسوك ، فلو كان الغناء طعاما لكان غناؤك أدما ، ولو كان شرابا لكان ماء الحياة .. ![١٣]

قال عنه (هرون بن محمد بن عبدالملك الزيات) : « أنه خرج ذات مرة إلى باب الكناسة بمدينة السلام ، والناس يرتحلون للخروج إلى مكة ، فنظر إليهم واجتماعهم وازدحامهم ، فقال لأصحابه الذين خرجوا معه : قد جاء فى الخبر أن (ابن سريج) كان يتغنى فى أيام الحج ، والناس بمنى فيستوقفهم بغنائه ، وساستوقف لكم هؤلاء الناس وأستلهم جميعا ، ليتعلموا أنه لم يكن ليفضلنى إلا بصنعته دون صوته ، ثم اندفع يؤذن ، فاستوقف أولئك الخلق واستلهاهم ، حتى جعلت المحامل يغشى بعضها بعضا ، وهو كالأعمى عنها لما خامر قلبه من الطرب لحسن ما يسمع .[١٤]

وقال (هرون بن مخارق) عن أبيه : أن الخليفة العباسى (المامون) سأله لما قدم مكة عن أحدث صوت صنعه ، فغناه :

أقبلت تحصب الجمار وأقبلـ ـت لرمى الجمار من عرفات
ليتنى كنت فى الجمار أنا المحـ ـصوب من كف زينب حصيات

قال : فضحك (المأمون) ، ثم قال : لعمرى إن هذا لأحدث ما صنعت ، ولقد قنعت بيسير ، وما أظن (بهار) - زوجته - كانت تبخل عليك بأن تحصبك بحصاة كما تحصب الجمار . واستعاده الصوت مرات .[١٥]

وقيل أن رجلا حج ذات مرة مع المغنى (مخارق) ، فلما قضيا الحج وعادا ، قال له الرجل فى بعض طريقه : بحقى عليك غننى صوتا ، فغناه :

رحلنا فشرّقنا وراحوا فغربوا
ففاضت لروعات الفراق عيون

فرفع الرجل يده إلى السماء وقال : اللهم إنى أشهدك أنى قد وهبت حجتى له .. ![١٦]

ما من شك كان لأرباب حرفة الغناء والانشاد العربى القديم فى وقت قدوم أو رجوع قوافل الحج كل الاجلال والتقدير ، سواء أكان هذا نابعا من ولاة الأمور أو من العامة من الناس ، وسواء أكان أيضا هدف هذا الغناء أو الانشاد هو إثارة

الشجون والمهج على فراق الأحبة أو الأهل والديار ، أو غير ذلك من المقاصد الغنائية الشجية .

ولقد اهتم بإبراز صورة المنشد بعض الأدباء الذين كتبوا في أدب المقامات ، مثل (الحريرى) (٤٤٦ - ٥١٦) ، والذى وقف عند المنشد المكد الجوال (أبى زيد السروجى) كما في المقامة (الرملية) في أسلوب جمع كلمات منثورة إلى جوار شعر منشد ، وهو يقف أمام جمع من الحجيج بالشام ، يتأهب للرحيل إلى مكة ، فيقول في البداية بأسلوب نثرى لهم : « أتخالون أن الحج هو اختيار الرواحل وقطع المراحل واتخاذ المحامل وإيقاد الزوامل ؟ أم تظنون أن النسك هو نضو الأردان وإنضاء الأبدان ومفارقة الولدان والتنائى عن البلدان ؟[١٧]

هنا لا يقف (الحريرى) مكتوف اليدين أمام صورة يستنكرها من الأعماق ، بل يخط ملامح الصورة الحقيقية التى تتناسب وجوهر رسالة الذاهب إلى بيت الله الحرام ، من خلال إنشاد (أبى زيد السروجى) ، والذى قال عنه : « .. ثم رفع عقيرته بصوت أسمع الصم وكاد يزعزع الجبال الشم وأنشد :[١٨]

ما الحج سيرك تأويبا وإدلاجا[١٩]
ولا اعتيامك[٢٠] أجمالا[٢١] وأحداجا[٢٢]

الحج أن تقصد البيت الحرام على
تجريدك الحج لا تقضى به حاجا[٢٣]

وتمتطى كاهل الإنصاف متخذا
ردع الهوى هاديا[٢٤] والحق منهاجا

وأن تواسى ما أوتيت مقدرة
من مد كفا إلى جدواك محتاجا

فهذه إن حوتها حجة كملت
وإن خلا الحج منها كان إخراجا[٢٥]

حَسْب المرائين غبنا أنهم غرسوا
وماجنوا ولقوا كداً وإزعاجا

وانهم حُرِمُوا أجراً ومحمدة
وألحموا عرضهم من عاب أوهاجى

أخى فابغ بما تبديه من قرب
وجه المهيمن ولَّاجا وخرَّاجا

فليس تُخفى على الرحمن خافية
إن أخلص العبد في الطاعات أو داجى[٢٦]

وبادر الموت بالحسنى تقدمها
فما ينهنه[٢٧] داعى الموت ان فاجا[٢٨]

واقـن التـواضـع خلقـا لا تـزايلـه
عنـك الليـالى ولـو البسـتـك التـاجـا
ولا تشـم كـل خـال لاح بـارقـه
ولـو تراءى هتـون السكب[٢٩] ثجـاجـا[٣٠]
مـا كـل داع بـأهـل أن يصـاخ لـه
كـم قـد أصم بنـعى بـعض من نـاجـى
ومـا اللبيـب سـوى مـن بـات مقتنـعـا
ببلـغـة تـدرج الأيـام[٣١] إدراجـا
فكـل كثـرٍ إلى قـلٍ مـغبتـه
وكـل نـاز إلى لـين[٣٢] وإن هـاجـا[٣٣]

وينشد (ابوزيد السروجى) فى ختام هذه المقامة امام جمع الحجيج الذى سار الهوينا أمام ناظريه فوق الكثبان الرملية ، على ايقاع دقات كفيه طربا :[٣٤]

ليـس مـن زار راكبـا	مثـل سـاع عـلى القـدم
لا ولا خـادم أطـا	ع كـعـاص مـن الخـدم
كيـف يـاقـوم يسـتـوى	سـعـى بـان ومـن هـدم
سـيقيـم المفـرطـو	ن غـدا مـاتـم النـدم
ويقـول الـذى تقـر	ب طـوبـى لمـن خـدم
ويـك يـانفـس قـدمـى	صـالحـا عند ذى القـدم
وازدرى زخـرف الحيـا	ة فـوجـدانـه عـدم
واذكـرى مصـرع الحمـا	م إذا خطبـه صـدم
وانـدبـى فـعـلـك القبيـح	وسـحّـى لـه بـدم
واد بـغيـه بتـوبـة	قبـل أن يحـلـم الأدم
فـعسـى الله أن يقيـك	السـعـير الـذى احتـدم
يـوم لا عثـرة تقـا	ل ولا ينفـع السـدم

وفى مصر خلال عصر سلاطين المماليك لعبت الأشعار والأزجال والأغانى والموسيقا الشعبية دورا كبيرا فى تشكيل وجدان الناس فيها ، خاصة انها حملت الأحداث التاريخية معها فيما يتعلق برحلات قوافل الحج التى كانت تروح وتغدو قادمة من الأراضى الحجازية .

ومن تلك الأحداث التاريخية الهامة ما حدث فى عام ٦٧٧ هجرية أيام سلطنة السلطان (السعيد محمد بن الظاهر بيبرس) المملوكى .

ذكر لنا (إبن اياس) فى تاريخه عن هذا السلطان المملوكى فقال : « .. ومن الحوادث فى أيامه أن العرب خرجوا على الحجاج فى أثناء الطريق ، ونهبوا جميع أموالهم ، وقتلوا منهم جماعة ، وكان أمير المحمل فى تلك السنة ، الأمير

(بورى) ، فلما جرى ذلك هرب ، وفى ذلك يقول المعمار :[٣٥]

لقد أخذوا الحجاج فى عام سبعة وسبعين حقا بعد نهب تمكنا
وصار أمير الركب بورى هاربا ولولا اختفاه ـ صار بورى مكفنا

وهنا يبرز دور الشاعر الهام فى مدى اظهار الروح الفكهة والتهكم على حكامه من خلال هذا الموقف ، فالمعروف فى مصر أن سمك (البورى) المملح يكفن فى عدة مناطق ويوضع فى الرمال مع الملح حتى يتم نضجه فيستخرج عندئذ ويؤكل لحمه ، ولا يغيب عن البال أقران تلك الصورة بصورة أمير المحمل (بورى) إذا كان قدر له الله أن يموت فى تلك الحادثة التاريخية ويدرج فى كفن الموت .. !

وفى حوادث سنة ٧١٣ هجرية ذكر لنا (ابن اياس) أن السلطان المملوكى (الناصر محمد بن قلاون) أثناء عودته من حجته الأولى استقبلته المغانى فى أثناء دخوله القاهرة مع من استقبله فى موكبه من القضاة الشرعيين الأربعة ، وكبار الحكام وعامة الناس .[٣٦]

ولم ينس (ابن اياس) أن يذكر لنا حادثة طريفة فى زجل عامى نظمه أحد الزجالين فى فيل يدعى (مرزوق) كان يطاف به مع موكب المحمل ، وكان هذا الفيل لسوء حظه أن أخرجه غلمان السلطان (الناصر فرج بن الظاهر برقوق) المملوكى ، ليسيروا به ، فتوجهوا به إلى نحو (بولاق) ، من الطريق التى تطل على قنطرة باب البحر ، فوقع هناك ومات وسط فرجة العامة عليه ، وقيل فى هذا الزجل الذى حمل طرفة التهكم من تلك الحادثة التى وقعت فى ثانى أيام شهر شعبان سنة ٨٠٤ هجرية :[٣٧]

تعا اسمعوا ياناس اللى جرى
الفيل وقع يوم الاثنين فى القنطرة
لما أفلسوا غلمان الفيل راموا الحراف
خدوه وراحوا صوب بولاق يجيبوا المطاف
رأوا شويخ من أهل الله ما فيه خلاف
جم ياخدوا شىء منه بالزنطرة
دعا على الفيل اتقنطر فى القنطرة
فقلت له يافيل مرزوق ياأسود دغوش
أين حرمتك بين العالم وأنت نهوش
وكنت يافيل السلطان زين الوحوش
وكنت بالاعجاب تزهو فى المخطرة
وقد بقيت اليوم مطروح فى القنطرة
والفيل لسان حاله ناطق للناس يقول
كم كنت دور فى الزفات فوقى طبول

وكنت دور في المحمل ولي قبول
كنت عروسه حين تُجلى في منظره
واليوم كان آخر مشى في القنطرة

لم يترك أبناء الشعب المصرى فرصة لذهاب أو عودة قوافل المحمل المصرى إلا واستقبلوا أمراء المحمل بما يناسب ظلمهم الذى اثقل كاهلهم ، وكان أوضح مثال لذلك يوم استقبال المحمل العائد من الأراضى الحجازية في ربيع الأول سنة ٩٠٩ هجرية ، يومها زفوا أمير المحمل (الأتابكى قيت الرجبى) قائلين :(٣٨)

حججت البيت ليتك لا تحجُّ
فظلمك قد فشى في الناس ضج
حججت وكان فوقك حمل ذنب
رجعت وفوق ذاك الحمل خرجُ

وبعد نحو شهور أربعة من تلك الحادثة استقبل أبناء الشعب ذهاب محمل السلطان (الغورى) في طوافه الرجبى قبل الذهاب لأداء العمرة باغنية تحمل مضمونا عميقا يكشف عن جوهر هذا الشعب ، هذه الأغنية تقول :(٣٩)

بيع اللحاف والطراحة
حتى أرى ذى الرماحة
بيع اللحاف ذى المخمل
حتى أرى ذا المحمل

فهذا الشعب الذى يقول ذلك ليس إلا محب متوله في معبد عقائده الدينية الشعبية ، حتى ولو ادى به ذلك إلى بيع ما يلتحف به من البرد ولو كان ثمينا أو عزيزا ، فمجرد رؤية المحمل وهو خلو الوفاض من أسباب عيشه الضرورية بركة لا تعد لها بركة ..!

كان موكب المحمل في العصر المملوكي في مصر يحمل من الموروث الشعبى العربى القديم جماعة حداة الابل والمغنيين أو المنشدين أو ما اصطلح على تسميتهم بالمغاني عند مؤرخى هذا العصر .

وظهر ذلك واضحا في محمل (خوند بركة) أم السلطان (الأشرف شعبان ابن قلاوون) سنة ٧٧١هـ ، وفي محمل (خوند فاطمة) زوجة السلطان (الأشرف قايتباى) سنة ٨٧٩هـ ، وفي هذا المحمل الأخير ظهر اسم بعض المغنين والحداة ، وإن طمست تماما الأغاني التى كانوا يتغنون بها .

يقول عن موكب هذا المحمل (ابن اياس) واصفا محمل السلطانة : « ومشت قدام محفتها بالرملة جميع أرباب الدولة ، وهم : كاتب السر ، وناظر الجيش ، وناظر الخاص ، وغير ذلك من المباشرين ، ومشى الزمام ، ومقدم المماليك ، وأعيان الخدام بأيديهم العصى ، وقدامها من الحداة أربعة ، منهم : (ابراهيم بن الجندى) المغنى ، و (أبوالفوز) الواعظ ، وغير ذلك(٤٠)

ومن الآلات الموسيقية التى كانت تصاحب موكب المحمل (الكوسات) . وهي التي ذكرت عند وصف محمل (خوند طغاى) زوجة السلطان (الناصر محمد بن قلاوون) سنة ٧٢١ هجرية ، ومحمل (خوند بركة) والدة السلطان (الأشرف شعبان) سنة ٧٦٤ هجرية[٤١]

هذه الكوسات يصفها (القلقشندى) قائلا : « هى صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق أحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص ، ويتولى ايقاع ذلك الكوسى .[٤٢]

وانفرد استقبال عودة محمل (خوند فاطمة) زوجة السلطان (الأشرف قايتباى) سنة ٨٨٠ هجرية باستخدام المغانى للطارات أى الدفوف[٤٣] .

وأما فى العصر العثمانى فقد بدأت الزمور الى جوار الطبول تدخل فى موكب المحمل المصرى ، كما روى لنا (الجبرتى) فى أعوام ١٢١٩ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٩ هجرية ، وفى هذا العام الأخير ظهرت الجوقات فى احتفاليات المحمل المصرى تؤدى هى الأخرى دورا لها فى المناسبة .[٤٤]

وبسبب هذه الطبول والزمور حدثت ازمة بين الوهابيين فى الاراضى الحجازية وحجاج المحمل المصرى فى سنة ١٢٢٢ هجرية ، والتى قال عنها (الجبرتى) فى تاريخه : « .. وصل حجاج المغاربة إلى مصر من طريق البر ، وأخبروا أنهم حجوا وقضوا مناسكهم ، وأن (مسعود الوهابى) وصل إلى مكة بجيش كثيف ، وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار ، وأحضر (مصطفى جاويش) أمير الركب المصرى ، وقال له : ما هذه العويدات والطبول التى معكم يعنى بالعويدات المحمل ، فقال : هو إشارة وعلامة على اجتماع الناس بحسب عادتهم ، فقال : لا تأت بذلك بعد هذا العام وإن أتيت به أحرقته »[٤٥]

ولم يكن اعتراض الوهابيين على عادات المحمل المصرى فقط ، بل شمل ذلك ايضا المحمل الشامى بطبله وزمره[٤٦] .

وفى عصر (محمد على) استمرت الموسيقا والأناشيد والأغانى تؤدى دورها فى موكب المحمل المصرى ، للاحتفاء به والابتهاج عند استقباله .

كان الأهالى يخرجون لملاقاة المحمل القادم من الحج وفى صحبتهم الآلات الموسيقية بالطبول والزمور عند (بركة الحاج) قبل دخولهم الى القاهرة ، كما قال واصفا ذلك (ادوارد وليم لين) ، أما (جيرار دى نرفال) ، فقد ذكر مع الآلات الموسيقية ابواقا وإن لم يحدد نوعها .[٤٧]

وذكر (لين) ضمن ما ذكر فى وصفه موكب المحمل أن : « ظهر عدة رجال راكبين الجمال ، يضرب كل منهم زوجا من النقارات مربوطا بمقدم السرج »[٤٨]

هذان الزوجان من النقارات قال عنهما : « وهما من النحاس الأحمر ، ولا يختلفان فى الشكل ، فهما على هيئة ثلثى دائرة تقريبا ، ولكنهما يختلفان فى السعة . فالأكبر قطره عند السطح المستوى قدمان تقريبا ، والآخر قدم ونصف .

وهما يحملان على جمل ، ويربطان فى مقدم السرج حيث يجلس الضارب والطبل الأكبر يوضع على اليمين »[٤٩]

ولقد وصف (جيرار دى نرفال) حملة الدفوف فى موكب المحمل الذى رآه ، قائلا : « كانت الجمال الأولى تحمل قارعى دفوف من الشبان عارى الأذرع ، وكانوا يرفعون عصاهم المذهبة ، ثم يتركونها تسقط وسط باقة من الرايات المرفرفة المصفوفة حول البردعة »[٥٠]

وكان غناء العامة وأناشيدهم فى موكب المحمل المصرى يشكل عنصرا هاما فى الاهتمام بالاحتفال بهذه المناسبة . فمنهم طائفة (الدراويش) ، الذين كانوا « يحركون رءوسهم من جانب إلى آخر ، ويرددون اسم الله .وكان مع هؤلاء عدة حمالين وسقائين وكناسين وغيرهم ، وكان بعضهم يصيح (عرفات .. يا الله) و (الله الله .. بالسلامة) .[٥١]

وأضاف (نرفال) وجود العوالم فى الموكب الذى وصفه فى رحلته إلى مصر ، ووصفهن بأنهن : « مجموعات من العوالم قد انضمت الى القافلة ، وأخذت تنشد مع الجميع أناشيدهم الطويلة الصادرة من الحنجرة ، غير خائفات من إبداء وجوههن السافرة ، بما فيها من وشم أزرق وأحمر وأنوفهن ذات الحلقات الكبيرة »[٥٢]

وعند مطلع القرن العشرين وقف بعض الحجاج المصريين على نتف من الأغانى والموسيقا المصاحبتين للمحمل المصرى ، وكذلك بعض من موسيقا وأغانى الأعراب فى الأراضى الحجازية عند قدوم المحمل المصرى إليهم . ومن هؤلاء الحجاج اللواء (ابراهيم رفعت باشا) و (محمد لبيب البتنونى) .

ومما لاحظه الأول أن الأعراب فى بلدة (الحمرة) فى الطريق من (ينبع) إلى (المدينة المنورة) كانوا يحدون بإبل الحجيج ، وهم ينشدون قائلين :[٥٣]

حنـت ولا هـزت أطـراف الجـاعـد[٥٤]
يـابـعـد مسـراحـك عـلى الـلى قـاعـد
نبيـع بمـا بـاعـوا ونشترى بما شروا
ولا غبـن إلا فى النضـا والحلايـل[٥٥]

وكان الحجاج المصريون فى طريقهم يقابلهم أطفال بدو الحجاز ، الذين راحوا على الرغم من صغر سنهم يغنون لهم أغانيهم الشعبية التى تقول :[٥٦] .

يـاحـاج سـلامـات
يـافنـدى سـلامـات
يـابـوـيـا سـلامـات
إن شـاء اللـه سـلامـات
إن شـاء اللـه عـرفـات
إن شـاء اللـه بـركـات

فى حين غنى أطفال آخرون من بدو الحجاز فقالوا لهم

حــج حجيـج بيــت اللـه
والكـعبـة ورسـول اللـه

وقال اللواء (ابراهيم رفعت باشا) مبينا حب اهل مكة للموسيقا : « وقد زرت كثيرا من الأشراف والسراة وكانوا يقابلوننا أجمل مقابلة ويردون الزيارة إلينا فى المعسكر ، فكنت أكرمهم غاية الاكرام ، وكان ضباط الحرس يعطفون عليهم ، ويتحدثون معهم وكانوا ولعين بسماع الآلات المطربة ، فكنت استحضر لهم الموسيقا والمزمار البلدى ، فيتناوبان الألحان مما يزيد فى ابتهاجهم وانشراح صدورهم ، وكانت الموسيقا تعزف كل يوم بعد صلاة العصر حتى تتوارى الشمس بالحجاب ، وكان الناس يجتمعون على السماع ترويضا للأفكار وتهذيبا للنفوس ، فكان لنا الدين والدنيا جميعا »[٥٧]

وقال فى موضع آخر ، وهو يصف شغف اهل مكة بالموسيقا وقت رحلة المحمل المصرى إلى الأراضى الحجازية سنة ١٣١٨ هجرية الموافقة ١٩٠١ ميلادية : « بينما الموسيقا المصرية والشاهانية يتناوبان الألحان اخذ جماعة من أهل مكة يسمون (أهل النوبة) يضربون على النقارات ومعهم آلات اشبه بالرباب يغنون عليها بالأناشيد العربية الجميلة »[٥٨]

وعند مرور المحمل المصرى بمدينة جدة كان لأهلها الأذان الصاغية لموسيقاه التى كانت تطربهم . يقول اللواء (ابراهيم رفعت باشا) واصفا ذلك : « وقد كان أهالى جدة صغيرهم وكبيرهم يتواردون علينا عصر كل يوم لمشاهدة المحمل وسماع الموسيقا والمزمار البلدى حتى مغرب الشمس ، ومن بعد العشاء إلى الساعة الثالثة بعد الغروب ، وايام وجود المحمل بجدة تعتبر عند اهاليها مواسم فرح وسرور ، وانهم ليحبون سماع الألحان حبا جما ، وكأن ذلك مركوز فى طبيعتهم مفطورة عليه نفوسهم »[٥٩]

اما (محمد لبيب البتنونى) فقد وقف عند فنون الغناء والموسيقا وقت رحلته إلى الحجاز مع الخديو (عباس حلمى ـ الثانى) عام ١٣٢٧ هجرية الموافق ١٩٠٩ ميلادية . قال عن فن الحداء للبدو فى الأراضى الحجازية : « ولهم اغنية يتغنون بها فى طريقهم ، وهى فى الغالب على النغمة العراقية والرومية التى اخذوها عن حجاج الأتراك والشوام ، وجمالهم ترتاح إليها وتستمع لها ، فتنسيها لحظة ما هى فيه من التعب والعناء . وهذه الأغنية لا يكاد يعرفها من يسمعها لأنها اقرب الى الرطانة منها الى العربية ، على انها لا تخلو من معان دقيقة لطيفة ، وأغلبها غرامية تمثل حكاية محب ومحبوب أو عاشق ومعشوق ، ومنها ما هو مدح فى المطايا ودونك شيئا منها :[٦٠]

يـاحبيبـى لــو تــرى حــالى — واللى جــرى لى بعـد فرقاك
واله مــا غـبـت عــن بــالى — ولا نسـبت الحصـــافة ذاك
يـاســيـد وإيـش غـربـك — فى دايــر الحفـــا والشـــوك
يـارهيـف يـامـرود الـعيـن — ياريت خــدى ينقســم نعليــن
اللــه يحاسـبهم كما حاسـبونى — كما رمونى بجوف الوقيدة وأنا خى
لو أهنى بالحـج وأوفى جمــاره — واقف على العيرات ساجدين مع الريع
(الجبل المرتفع)

صبح أربع تمسى شعيب الخضارة — مع مثلهن يمسى بوادى الربيع
مـع مثلهن كـل تهنـى بـداره — وادى النعيم اللى عذوقه مهابيع
يا الله ياراد كل غريب بـــلاده — والـذوق (النوم) بعـد القسـا
(التعب الشديد)

حمت اللمن (اليمن) والشــام — وكـل دايـره جـيـت من دارهـــا

● ● ●

لى فى اللمــن سيــد ولى فى الشــام بــاشــا
إن جيت عند اللى فى اللمن يبقى السيد يملكنى
وإن جيت عند اللى فى الشام يبقى الباشا يحكمنى

وعندما خرج الخديو (عباس حلمى الثانى) قاصدا عرفة كانت فرقة الأعراب من أمامه تضرب نوبتها ، ويوقعون عليها بنشيدهم الرخيم ، وأصوات الخلق فيما بين ذلك تعلو بالتلبية وراء التلبية[٦١]

وعند الافاضة من عرفات قال (البتنونى) : « انتظم الموكب فسار فى مقدمة الركب كوكبة من عسكر البيشة بهجنهم ، وفى وسطهم فرقة منهم تدق نوبتهم ، والباقون يتغنون بنغمات تدخل رناتها فى القلوب فتملؤها سرورا وحبورا ، يتلوها الجناب العالى ، وحضرة الشريف يتلوهما حاشيتهما ، ومن ورائها فرقة الموسيقا العربية تعزف بنغماتها الشجية . »[٦٢]

وقال يصف التشريفات بمنى وسط عزف الموسيقا : « أثناء مقابلات الخديو كانت تعزف فى أطراف المصطبة موسيقات الحرس الخديوى والمحمل المصرى والشامى وموسيقا القوة العسكرية الموجودة بمكة ، وإلى جانبها المزمار البلدى ، تتخلل نغماتها طلقات المدافع وهتاف الحجيج بأصوات السرور من كل جانب »[٦٣]

وكانت هذه الموسيقا المصرية مثار جذب لحجاج بعض المحامل الأخرى ، مثل محمل دارفور أو التكرور ، مما أدى إلى الاندماج معها فى حركات ايقاعية منتظمة ، والتى وصفها (محمد لبيب البتنونى) قائلا : « لاحت من الخديو التفاتة فرأى عسكر (على بن دينار) سلطان (دارفور) مع رئيسهم الذى أتى بمحملهم وراء

صفوف الناس من بعد ، فارسل فاستحضر رئيسهم ، وبعد أن لاطفه وحياه بما يليق بكرمه أمره ـ حفظه الله ـ بأن يسير بجنده فى هذا الاستعراض ، فسار يتقدم رجاله الذين كانوا يحركون حرابهم على نغمة الموسيقا بحماسة كأنهم يتحركون إلى حرب أو طعان »[٦٤] .

أما فى الأزمنة المتأخرة فقد كان توديع كسوة الكعبة المشرفة فى القاهرة يقام له مناسبة خاصة وهامة تلعب فيها الأغانى والموسيقا الشعبية دورا كبيرا فى هذا الحفل . ولقد وصف (محمد فهمى عبداللطيف) نوعا من الغناء والمدائح والأهازيج التى كان يتغنى بها المنشدون ، وتترنم بها الجماعات من الرجال والسيدات فى أيام (طلعة المحمل النبوى) وتوديع كسوة الكعبة المشرفة ، والمسافرين إلى حج بيت الله الحرام .

قال : « كان توديع الكسوة يتم فى حفل حافل يتبارى فيه كبار المطربين والمنشدين فى انشاد المدائح النبوية ، وكان فارس الميدان فى هذا المرحوم الشيخ (يوسف المنيلاوى) ، ثم الشيخ (على محمود) من بعده ، وكذلك يوم طلعة المحمل ، لقد كان يوما مشهودا تتعطل فيه الأعمال فى المصالح والدواوين ويحتشد له الناس جماعات من كل صوب فى زحام أشبه بالحشر للتبرك برؤية المحمل الشريف وهو يخترق شوارع القاهرة فى موكبه الحافل بالموسيقا والأناشيد وضرب النقاقير . وكان للحج اغنية شعبية مشهورة ترددها السيدات فى أداء جماعى عذب الترانيم فى وداع الحجاج ، وفى استقبالهم ، كما كانت ترددها السيدات المسافرات للحج وهن يقطعن الرحلة على ظهور الجمال من جدة إلى مكة ، ومن مكة إلى المدينة المنورة ، وهى اغنية تتحدث عن الطريق إلى الحج ، وركوب الوابور . والبحر ، وذكر شعائر الحج بالترتيب ، وزيارة النبى والأعتاب ، وكان من العادة أن تبدأ سيدتان الغناء معا بكلمة : (ياهنا اللى انوعد) ، فترد الجماعة بصوت محدود : (ياهناه .. ياهناه اللى اتوعد) .

وهكذا يجرى الترديد فى آخر كل مقطع من مقاطع الأغنية على النحو التالى :[٦٥]

انا امدح محمد والحسن والحسين والقاسم أحمد ..

بلغ العاشقين يارب زيارة محمد .. مديح باشتياق انا ما امدح الا النبى ..

ياهنا اللى انوعد .. ياهناه ..

● ● ●

ياليلة ان برزوا وباتوا لبره وبات قلبى فى حنين ..

ويطلب من الله يرجعوا سالمين بنصرة من الله ..

ياهنا اللى انوعد .. ياهناه ..

● ● ●

وإن جبت حبيبي يا بابور ، وإن جبت حبيبى ..
لأكنسك وارشك وبالشمع اقيدك ..
مروق بخوخة يابحر يابحر مروق بخوخة ..
لا يمسك عكار ولا ريح بدوخة تحت القلوع ابوشال وجوخة ..
فى رابغ نوى الاحرام ولبس احترامه [رابغ هى نقطة الاحرام لمن حاذا مدينة « أبا » برا وبحرا] ..
يا يوم الهنا يوم خلوه يحل احرامه ..
ياهنا اللى انوعد .. ياهناه ..

● ● ●

يافرح قلبى يوم طلوع الجبل .. والخطيب على الجمل .. والمبلغ يرقى ..
يافرح قلبى ساعة النقرة وفرحت عيونا ونزلنا بفرحة .. وفوتنا من بين العلمين ..
ياهنا اللى انوعد .. ياهناه ..

● ● ●

كان القمر لايح .. يوم دخولنا منى ونصبنا الخيم ودبحنا الدبايح ..
وافتكرنا العيال .. وبقى الدمع سيال ..
وبعد تلات أيام حملنا لمكة ..
وطفنا طواف الوداع وبرزنا ..
والجمال حملنا وعلى ابوابراهيم سرنا ..
ياهنا اللى انوعد .. ياهناه ..

● ● ●

وصلنا قبة المصطفى والأعتاب زمرد ..
حول مقام النبى قال الطواشى فين ياجماعة ..
زوروا النبى زوروا واطلبوا الشفاعة ..
ياهنا اللى انوعد .. ياهناه ..

● ● ●

وهناك اغنية اخرى شعبية كانت تردد اثناء رحلة المحمل المصرى ، وهذه الأغنية الشعبية كلماتها ونغماتها تاخذ طابع حداء الابل فى الصحراء ، من حيث قصر الجملة الغنائية المرددة ، والتى تتناسب وحركة اهتزاز راكب سفينة الصحراء ، ومن حيث شجن اللحن نفسه ، وهذه الأغنية تقول :[٦٦]

بعيدة بعيدة ياطريج (طريق) النبى ..
بعيدة بعيدة ..
بعيدة بعيدة .. وإن عطانى ربى لأروحلك سعيدة ..
ولا مال معايا خاطر ازور النبى ولا مال معايا ..

ولا مال معايا ياكريم ياحنون تحنن ياربى ..
بعيدة بنفسى ياطريق النبى بعيدة بنفسى ..
بعيدة بنفسى وإن عطانى ربى لأروحلك بزفة ..

● ● ●

صلوا على النبى وزيدوا صلاته ..
دا كان يلاغى القمر محمد ويفهم لغاته ..
يانخل مكة ياطويل ياعالى ..
والتمر منك دوا للمبالى ..
يابير زمزم سلبك حريرى [السلب هو الحبل . والمعنى انه لا توجد مشقة فى نزول وصعود الدلو عند الشرب ..]
والشربة منك دوا للعليلى ..
يابير زمزم سلبك سلامة ..
والشربة منك دوا للمسافة ..
رايحة فين ياحاجة ياموشال قطيفة ..
رايحة ازور النبى والكعبة الشريفة ..
وادعيلى يا امة من فوق المنابر ..
ودعيتلك يابنى تيجى بالسلامة ..
وصلتنى ليلة (ليلى) لحد المخاضة .
عودى يا ليلة لجيت لى رفاجة ..
صلوا على النبى وزيدوا صلاته ..
داكان يلاغى القمر محمد ويفهم لغاته ..

ان المتامل فى الاغانى الشعبية التى كانت تردد عند الحج وهو ما يسمى باسم (حنون الحجاج) سيلمح تشابها كبيرا بينها ، من حيث الوزن ، والقافية ، والحس الداخلى . على الرغم من تلك المتغيرات الثقافية فى المجتمع المصرى ، مثلما حدث فى وسائل الانتقال والسفر واستبدال (الجمل) كتعبير لفظى بتعبير (الوابور) ، وهو ما يعنى انتقال الحجيج وسفرهم باستخدام السكك الحديدية . من ذلك تلك الأغنية :(٦٧)..

صغير بشوشة .. حج منا جدع .. صغير بشوشة ..
وزعقته فى الجبل .. بتبعد الوحوشة ..
صغير وزينة .. حج منا جدع .. صغير وزينة ..
وزعقته فى الجبل .. ترج المدينة ..

● ● ●

يابو الخف زينة .. ياجمل ياجمل .. يابو الخف زينة ..
ورايح فين ياجمل .. دانا رايح اودى الحبيب يزور نبينا ..

يابو دراع حديدى .. يا بابور يا بابور . يابو دراع حديدى ..
ورايح فين ياببور .. دانا رايح أودى الحبايب يزوروا الحبيبى

● ● ●

يارب ما اموت ولا انزل ترابى ..
إلا أما أزور النبى وأبلغ مرادى ..
يارب ما أموت ولا انزل لحودى ..
إلا أما أزور النبى وأبلغ مقصودى ..
ياهناه اللى انوعد ..

● ● ●

يابشير يابشير ياللى تبشر ..
لأدى لك لبنى ونقى تعشر ..

● ● ●

يا رايح بلدنا يا بشير يابشير .. يا رايح بلدنا ..
قول لأهلى العزاز .. يزينوا عتبنا ..
ياللى انت رايح يابشير يابشير .. ياللى انت رايح .
قول لأهلى العزاز .. يحضروا الدبابيح ..
وياهناه اللى انوعد ..

● ● ●

ما تستكتروش مالى على الحج والنبى ..
دا نبينا المصطفى على الباب ونده لى ..

● ● ●

ياللى فوق العلالى ، وادعى لى يا أمى .. ياللى فوق العلالى ..
دعيت لك ياخوى .. يردك يا غالى ..
يافوق السطوحى .. وادعى لى يا أمى .. فوق السطوحى ..
يا فوق السطوحى .. ودعيت لك يا أخويا .. يردك يا روحى
ولما انت ناوى يابوى .. ولما أنت ناوى ..
ولما أنت ناوى .. مين يحيى الضيوف .. ويوزع قهاوى ..
ولما أنت رايح ..ياحبيبى يابوى .. ولما انت رايح ..
ولما انت رايح .. مين يحيى الضيوف .. ويشرى دبابيح ..

● ● ●

خد الكشك كله .. وإن نويت ع السفر .. خد الكشك كله ..
خد الكشك كله .. عند حرم النبى .. اقعد وبله ..

● ● ●

وهدى شويه .. يا وابور السفر ..وهدى شويه
وهدى شوية .. لما ابويا العزيز .. يوصى عليه

● ● ●

لابنى واعلى .. فى طريق النبى .. لابنى واعلى
لابنى واعلى .. وحياة أبوك .. تميل تصلى
لابنى خزانة .. فى طريق النبى .. لابنى خزانة
لابنى خزانة .. وحياة ابوك ياحاج .. تميل حدانا
وانا قاعده احلل .. فات عليه البشير .. وانا قاعده احلل
وانا قاعده احلل .. رمى عليه الجواب .. جوابه يطمن
يارايح بلدنا .. يابشير يابشير .. يارايح بلدنا
يارايح بلدنا .. قول لولدى العزيز .. يبيض عتبنا
ببوهيه وزيتى .. نقرش البوابة ببوهية وزيتى
ببوهية وزيتى .. واكتب حجتى .. على باب بيتى
ورصوا الكراسى .. حوالين قبر النبى .. ورصوا الكراسى

● ● ●

ورصوا الكراسى .. فج نور النبى .. تاب كل عاصى ..
بنوك جدودى .. يلحرم النبى .. بنوك جدودى
بنوك الجدود .. وسعوا ساحتك .. وعلوا العمود ..
وعاليه فى سماها .. قبتك يانبى .. وعاليه فى سماها ..
وعاليه فى سماها .. دول بنوها الملوك .. وربى نشاها ..

● ● ●

يجيب الأمارة .. اللى زار النبى .. يجيب الأمارة
يجيب الأمارة .. دا الكواكب دهب .. وخضرة الستارة

● ● ●

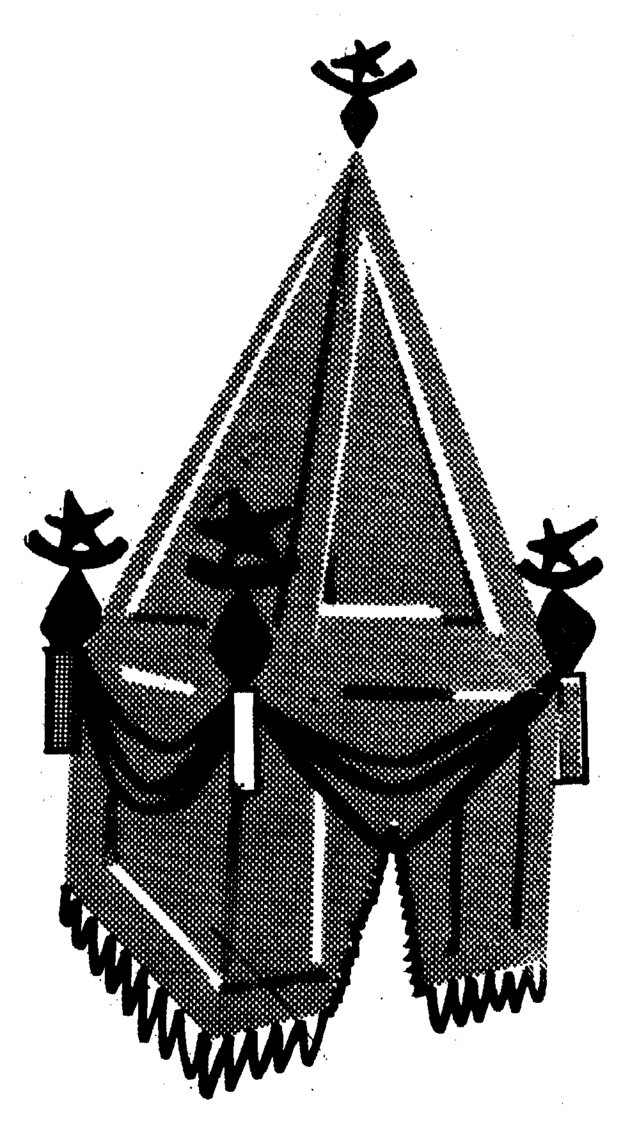
ومن الأغانى الشعبية التى كانت تردد حديثا فى موكب المحمل المصرى أغنية (وديني يا دليل وديني) ، والتى تقول كلماتها : (٦٨)

ودينى يا دليل ودينى .. ع النبى اشوفه بعينى
النبى آهوعدى وفات .. على منى وجبل عرفات

وهذه الأغنية تعد من الأغانى الشعبية التى وصلت لنا متاخرا ، كما أن هناك سلاما وطنيا يسمى (سلام المحمل) كان يُعزف خصيصا عند توديع واستقبال المحمل المصرى فى رحلته إلى الأراضى المقدسة .

ومن الأغانى الشعبية فى موكب المحمل المصرى أغنية : (٦٩)

قعدنا رباعه	دق طبل النبى
منين ياجماعه	احنا زوار النبى



■ شكل تخطيطي كاريكاتورى شعبى للمحمل المصرى ■

أغاني حجّاج العجم :

لم ينفرد الحجّاج العرب وحدهم بفن الغناء عند الحج ، بل شاركهم الموالى والعجم منذ عهد بعيد . فقد أورد (ابن الجوزى) المتوفى عام ٥٩٧ هجرية ما يؤيد ذلك ، فقال : « إن الغناء يطلق على أشياء منها غناء الحجيج فى الطرقات . فإن أقواما من الأعاجم يقدمون للحج فينشدون فى الطرقات أشعاراً يصفون فيها زمزم والكعبة والمقام ، وربما طربوا مع الانشاد . فسماع أشعارهم مباح ، وليس فى إنشادهم إياها مايطرب ويخرج عن الاعتدال . » (٧٠)

ويقول الدكتور (حسين مجيب المصرى) معلقا على ذلك بقوله : « إننا لانعرف هؤلاء الأعاجم على التحقيق ولا اللسان الذى كانوا يغنون به ، وإن كنا أميل إلى أرجحية أن يكون غير لسان العرب . وأيا ما كان ، فزيارتهم لبيت الله واختلاطهم بالعرب وغيرهم من المسلمين القادمين من شتى أرجاء الأرض والمجتمعين فى صعيد واحد ، مما يخرج أغانيهم عن أعجميتها وعربيتها ، ليكسبها طابعا ساطعا لاسلاميتها ، ويجمع عليها المسلمين كافة ، لأنها الناطقة عن مناسك الحج التى تجمعت أمم الاسلام لها وتوحدت بها . » (٧١) إن أغانى الحج عند الترك فى خصائصها ومضامينها ومعانيها تفترق فى كثير عن مثيلتها العربية ، لأن الأغانى التركية تميل إلى السرد القصصى ، وهو مانعهده فى الشعر التركى القديم الذى يرمز إلى مغزى صوفى فى معرض قصة ، ومجاهدة النفس والصعاب فى الدنيا ، مثل قول الشاعر : (٧٢)

عشقـا لـك فى الطـريـق مضيـت
فى البحـر والصحـراء تـرديـت
لكـل عبـد مثـل هـذا مـارأيـت
وكـان لى ، فللـه الحمـد
تلـك الطـرق ضـاقـت للـغـايـة
ولاتبـدو لـهـا بـدايـة مـن نـهـايـة
تمضى ليـال وأيـام بمـا لـهـا مـن آيـة
واقـول عـلى الـدوام لله الحمـد

وقد جرت عادة العبيد فى مدينة كربلاء بالعراق فى القرن الماضى على ترديد أغنية تركية عراقية ، كانوا يغنونها عند الطواف بديار من قدموا من حج بيت الله الحرام ، ويعزفون لكلماتها على معازفهم منشدين : (٧٣)

قـدر الـدوام لـهـذا يـا إلـهـى
اكتـب السـلامـة يـا إلـهـى
اجـعـل البـركـة فى عمـرهـم
قـدر الـدوام لـهـذا يـا إلـهـى

وسواء اكان الغناء للحجيج عربيا أو أعجميا فلا فرق فى ذلك بينهما لأن

الباعث فى كل منهما إنسانى ، وفوق الغناء شوق وقصد إلى الغسل من أدران الذنوب والغفران .

■ المحمل كما رسمه المستشرق ادوارد وليم لين ■

الهوامش والمراجع

(١) د . فؤاد زكريا - « التعبير الموسيقى » - ص ٨ - مكتبة مصر بالفجالة - الطبعة الثانية - ابريل ١٩٨٠

(٢) د . حسين نصار - « الشعر الشعبى العربى » - ص ٧٠ - المكتبة الثقافية رقم (٦٠) - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - أول مايو ١٩٦٢ .

(٣) أبوطالب المفضل بن سلمة - « كتاب الملاهي وأسمائها » - ص ٢٩ - تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ .

(٤) أبو الفرج الأصفهاني - « الأغانى » - ص ٥٠٩ المجلد الثانى - هذبه ابن واصل الحمودى - كتاب التحرير ١٩٦٣ .

(٥) د . حسين نصار - « الشعر الشعبى العربى » - ص ٧٢ .

(٦) أبو الفرج الأصفهاني - « الأغانى » - ص ٢٦١ المجلد الأولى - تحقيق : ابراهيم الابيارى - دار الشعب ١٩٦٩ .

(٧) المرجع السابق - ٢٩٣ .

(٨) الحصاب : موضع رمى الجمار بمنى .

(٩) صفى السباب : موضع بمكة به ماء قريب من بيت أبى موسى الأشعرى .

(١٠) أبو الفرج الأصفهاني - « الأغانى » - ص ٣٥٥ ح ٢ - اعداد لجنة نشر كتاب الأغانى اشراف : محمد أبو الفضل ابراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠ .

(١١) عبد القادر الأنصارى الجزيرى - « درر الفرائد المنظمة » - ص ٢١١

(١٢) المرجع السابق - ص ٢١٢

(١٣) أبو الفرج الأصفهاني - « الأغانى » - ص ٣٤٦ حـ ١٨ .

(١٤) المرجع السابق - ص ٣٤٥ حـ ١٨ .

(١٥) المرجع السابق - ص ٣٧٢ حـ ١٨ .

(١٦) المرجع السابق - ص ٣٧٣ حـ ١٨ .

(١٧) مقامات الحريرى - ص ٣٢٦ - المكتبة الشعبية - بيروت بلبنان - بدون تاريخ .

(١٨) المرجع السابق - ص ٣٢٨

(١٩) سير النهار وسير الليل .

(٢٠) أى اختيارك .

(٢١) بالجيم والحاء المهملة .

(٢٢) جمع جدح بالكسر ، وهو مركب من مراكب النساء كالمحفة .

(٢٣) جمع حاجة .

(٢٤) أراد من هذه الاستعارة أن يتبع الانصاف والعدل ولاينفك عنه أن يجعل هاديه فى سره ردع هواه ومخالفة نفسه وقمعها .

(٢٥) أى نقصانا ، والمعنى كان الحج ناقصا من اخدجت الناقة إذا ألقت بولدها ناقص الخلق ولو لتمام الوقت ، وخدجت خدجا ألقته قبل النتاج ولو تام الخلق .

(٢٦) من المداجاة ، وهى النفاق هنا .

(٢٧) أى فما يؤخر ولايمنع من نهنهته عن كذا زحزحته ومنعته عنه .

(٢٨) فاجأه .

(٢٩) اى ولو تخيل لك وظننته .
(٣٠) ثجاجا : اى متتابع القطر .
(٣١) اى تسوقها وتمضيتها من درج القوم إذا انقضوا أو تطويها كطى الكتاب .
(٣٢) اى نهاية كل متشدد إلى الارتخاء مستفاد من قولهم تنزو وتلين .
(٣٣) من الهيجان .
(٣٤) الحريرى - مقاماته - ص ٣٣١ .
(٣٥) هو ابراهيم بن على المعمار - ارجع إلى (ابن اياس) فى كتابه « بدائع الزهور » ص ٣٤٦ جـ ١ ق ١ .
(٣٦) ابن اياس - « بدائع الزهور » - ص ٤٤٣ جـ ١ ق ١ .
(٣٧) المرجع السابق - ص تچدف جـ ٢
(٣٨) المرجع السابق - ص ٥٧ جـ ٤ .
(٣٩) المرجع السابق - ص ٦١ جـ ٤ .
(٤٠) المرجع السابق - ص ١٠٤ جـ ٣ .
(٤١) المرجع السابق - ص ٤٥٢ جـ ١ ق ١ ، ابن تغرى بردى - « النجوم الزاهرة » - ص ٥٥ جـ ١١ .
(٤٢) القلقشندى - « صبح الأعشى » - ص ١٣٢٩ جـ ٤ .
(٤٣) ابن اياس - « بدائع الزهور » - ص ١٠٦ جـ ٣ .
(٤٤) الجبرتى - « عجائب الآثار » - ص ٢٩ جـ ٣ ، ص ١٣٢ جـ ٣ ، ص ١٨٨ جـ ٣ ، ص ١٨٩ جـ ٣ ، ص ٢٤٧ جـ ٣ ، ص ٤٦٧ جـ ٣ - دار الجيل ببيروت - بدون تاريخ .
(٤٥) المرجع السابق - ص ١٨٩ جـ ٣ .
(٤٦) المرجع السابق - ص ١٨٨ جـ ٣ .
(٤٧) ادوارد وليم لين - « المصريون المحدثون » - ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، جيراردى نرفال - « رحلة إلى الشرق » - ص ٢٢٣ جـ ١ . .
(٤٨) لين - « المصريون المحدثون » - ص ٤١٠ .
(٤٩) المرجع السابق - ص ٣١٦ .
(٥٠) جيراردى نرفال - « رحلة إلى الشرق » - ص ٢٢٤ جـ ١ .
(٥١) لين - « المصريون المحدثون » - ص ٤١٠ .
(٥٢) جيراردى نرفال - « رحلة إلى الشرق » - ص ٢٢٥ جـ ١ .
(٥٣) ابراهيم رفعت باشا - « مراة الحرمين » - ص ٢٠ جـ ٢ .
(٥٤) الجاعد : الفروة .
(٥٥) النضا : البعير المهزويل ، والحلايل : الزوجات .
(٥٦) محمد لبيب البتنونى - « الرحلة الحجازية » - ص ٢١٦ .
(٥٧) اللواء / ابراهيم رفعت باشا - « مراة الحرمين » - ص ٣٨ جـ ١ .
(٥٨) المرجع السابق - ص ٥٠ جـ ١ .
(٥٩) المرجع السابق - ص ٢٠ جـ ١ .
(٦٠) محمد لبيب البتنونى - « الرحلة الحجازية » - ص ٢١٦ .
(٦١) المرجع السابق - ص ١٩٧ .

(٦٢) المرجع السابق - ص ١٩٨ .
(٦٣) المرجع السابق - ص ٢٠٣ .
(٦٤) المرجع السابق - ص ٢٠٣ .
(٦٥) محمد فهمي عبد اللطيف - « الفن الإلهي » - ص ٧٤ - المكتبة الثقافية رقم (٢٢٣) - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٩ .
(٦٦) الأغنية للفنانة (فاطمة عيد) ، وهي على شريط كاسيت يحمل اسم (حشكيك للقاضي) - انتاج شركة عالم الفن بالقاهرة .
(٦٧) د . أحمد مرسى - « الاغنية الشعبية مدخل إلى دراستها » - ص ٢٦٥ - دار المعارف ١٩٨٣ .
(٦٨) روى لنا ذلك الحاج (امين هندى) - ٨٠ سنة - وهو صاحب فرقة الطبل البلدى التى كانت تقوم بزفة المحمل المصرى منذ الثلاثينات - منذ عام ١٩٣٣ ميلادية على وجه التحديد - اما قبل ذلك فكانت فرقة الحاج (على الدخاخنى) هى التى تقوم بزفة المحمل المصرى بالطبل البلدى والمزمار . وقد استقينا هذه المعلومات من الحاج (امين هندى) بمنزله بالسكاكيني بالقاهرة يوم ٢٥ /٧ /١٩٨٨ .
(٦٩) د . حسين مجيب المصرى - « فى الأدب الشعبى الاسلامى المقارن » - ص ٢٣٧ مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الأولى ١٩٨٠ ..
(٧٠) ابن الجوزى - « تلبيس إبليس » - ص ٢١٥ - مطبعة فيصل عيسى البابى الحلبى - بدون تاريخ .
(٧١) د . حسين مجيب المصرى - « فى الأدب الشعبى الاسلامى المقارن » - ص ٢٣٦ .
(٧٢) المرجع السابق - ص ٢٣٩ .
(٧٣) المرجع السابق - ص ٢٤٠ .

□ □ □

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٣٤٧٣ / ٩١

الترقيم الدولى 3 — 0114 — 08 — 977 ISBN

سنة أولى سجن



للكاتب الكبير

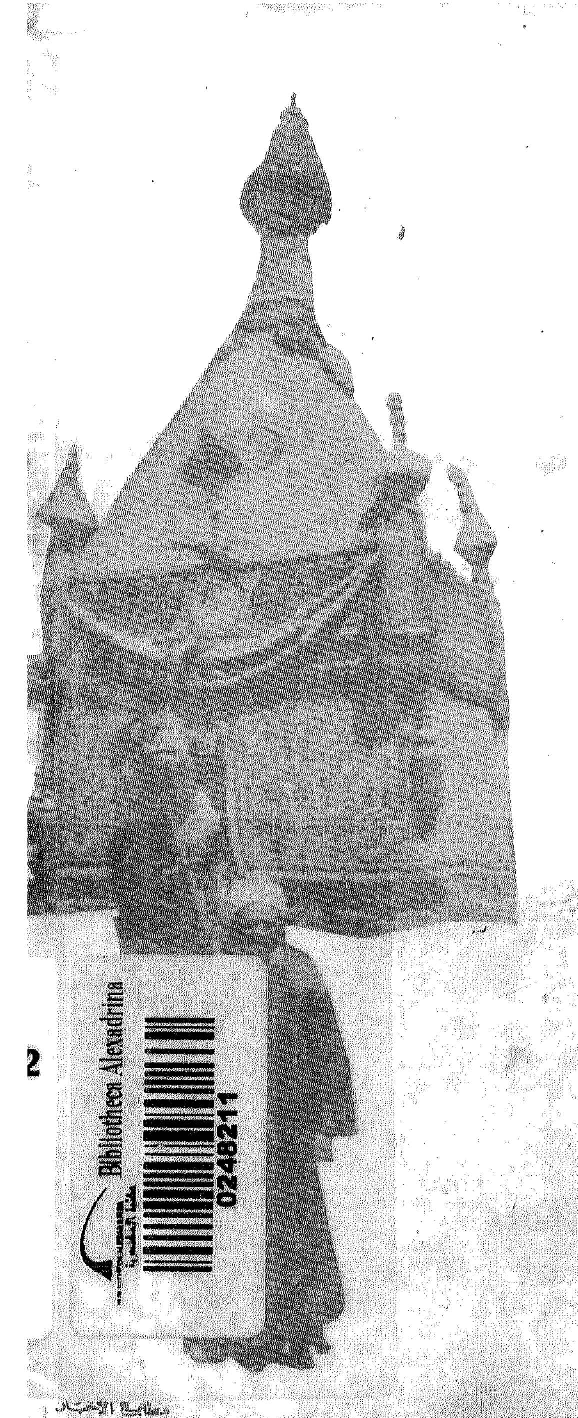
مصطفى أمين

سنة أولى سجن تروى لأبناء مصر المأساة فى حقبة من أحلك حقب تاريخها .. حيث أهدرت فيها كرامة المواطن والاعتداء على حريته .. وهتك الأعراض .. واختفاء الرجال خلف الأسوار .

.. صارت مصر كلها خلف الأسوار ..

• ترقب صدوره •





هـذا الكتـاب

كسوة الكعبة المشرفة ، رمز غال وعزيز على الأمة الاسلامية ، لم يشرف شعب فى الدنيا قدر الشعب المصرى بكساء بيت الله الحرام ، وحول هذا الشرف المقدس التفت الأمة الاسلامية تشاركه فى بعض المراحل ابتغاء مرضاة الله رب العالمين .

وتاريخ الكسوة . بعناصره الفنية وجوانبه العديدة قطعة حية من تاريخ العالم الاسلامى . امتزج فيه الشعور الدينى العميق بفنون من صاغوا ونسجوا وطرزوا هذا الرمز الجليل .

إبراهيم حلمى الباحث فى التراث يقدم فى هذا الكتاب دراسة تاريخية ، فنية ، تسجل تاريخ صناعة الكسوة . والمحمل النبوى الشريف بالكلمة والصور النادرة . انه مرجع نفيس . يعد الأول من نوعه فى الكتب العربية . كتاب لا غنى لمسلم عنه .

كتاب اليوم

٢٠٠ قرشاً

مطابع الأخبار